الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية

الدكتورة
إسمت غنيم
جامعة الإسكندرية

١٩٨٣







الامبراطورية البيزنطية



الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية

الدكتور
إسمت غنيم
جامعة الإسكندرية



دار المعارف




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

من أهم ما يميز تاريخ العصور الوسطى ، تلك اللقاءات التى تمت بين الدولتين البيزنطية والاسلامية ، وهى لقاءات اتخذت شكل العلاقات المباشرة بين الطرفين ، واستمرت قائمة بينهما على امتداد الشطر الأكبر من العصور الوسطى .

والواقع أن هذه العلاقات البيزنطية الاسلامية على امتداد تاريخها الطويل لم تسير على وتيرة واحدة ، وإنما شابها التغيير بين آن وآخر ، فهى تارة تتخذ شكل الصراع العسكرى ، ذلك الصراع الذى فرضته طبيعة الحدود المشتركة بينهما واختلاف المصالح ، وتارة أخرى تتمثل فى الأتصال الحضارى ، الذى كان فى واقع الأمر اتصال قمة بين أرقى حضارتين شهدتهما العصور الوسطى وهما الحضارة البيزنطية والحضارة الاسلامية ...

ولكن وسواء كان الاتصال بينهما عسكريا أو حضاريا ، فإنه كان لقاء ندين عرف كل منهما الآخر حق المعرفة وبذل له من التقدير والاحترام ما يستحقه.

ويمثل الموضوع الذى تم معالجته فى هذا البحث حلقة من حلقات المواجهة السياسية بين البيزنطيين والمسلمين فى العصور الوسطى ، وهو يشمل فترة زمنية امتدت منذ أواخر العقد الثالث من القرن التاسع الميلادى ، وحتى أوائل الستينات من القرن العاشر . وكان محور هذه العلاقات طوال هذه الحقبة التاريخية ، هى جزيرة كريت التى كانت من ممتلكات الدولة البيزنطية ، ثم فتحها المسلمون فى عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هذه الجزيرة مسرحا للصراع بين المسلمين أصحابها الجدد والبيزنطيين حكامها السابقين .

والحقيقة أن هذا الصراع يعد من أكثر الصفحات تألقا فى تاريخ العلاقات الاسلامية البيزنطية ، نظرا للدور البطولى الذى قام به فاتحو كريت المسلمون ضد العدو البيزنطى ، ورغم أهمية الموضوع ، ألا أن المراجع الحديثة ، وعلى الأخص العربية منها ، لم تعطه حقه من العناية والبحث وهذا ما دعانا إلى إختيار هذا الموضوع بالذات لمعالجته فى هذا البحث .

ومن الأمور التى حرصت عليها ، أن تتم معالجة هذا الموضوع فى ضوء النظرة العريضة الشاملة حتى يمكن الإلمام بصورة واضحة لمسرح الأحداث التاريخية وقتذاك ، خاصة وأن هذا الصراع قد مست جوانبه معظم أنحاء العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب على السواء . لذا فمن الضرورى أن نشمل بالدراسة إلى جانب طرفى النزاع المباشرين وهما بيزنطة وكريت ، الخلافات الاسلامية الثلاث التى وجدت فى العصور الوسطى ، وهى الخلافة العباسية فى المشرق ، والخلافة الأموية فى الأندلس ، والخلافة الفاطمية فى المغرب والدور الذى لعبه كل منهم فى الصراع البيزنطى الاسلامى فى كريت ، سواء كان دورا إيجابيا أو دورا سلبيا ، فضلا عن الإحاطة بجميع العوامل السياسية الأخرى التى كان لها تأثيرها المباشر أو غير المباشر على العلاقات بين بيزنطة وكريت فى الفترة موضوع البحث .

وقد استلزمت هذه الدراسة أن أخصص الفصل الأول من البحث للفتح الاسلامى لكريت وقد عرضت فيه لجغرافية هذه الجزيرة وأهميتها الاستراتيجية وألممت بنبذة تاريخية عنها قبيل الفتح الاسلامى لها ، ثم تتبعت المحاولات المبكرة للمسلمين لغزو كريت والنتائج التى أسفرت عنها هذه المحاولات . وعرضت لتاريخ الاندلسيين فاتحى كريت منذ خروجهم من موطنهم الأصلى فى الأندلس حتى فتحهم للجزيرة ، مع بيان العوامل السياسية الخاصة بالجانب البيزنطى التى مهدت لهذا الفتح وساعدت على نجاحه .

وعرضت فى الفصل الثانى للمحاولات المتتالية لبيزنطة فى عهد الاسرة العمورية لإسترداد كريت من يد المسلمين ، وعالجت أسباب أخفاق هـذه المحاولات ، وتطرقت للظروف السياسية المختلفة التى عرضت لأباطرة هـذه الأسرة وكان لها تأثيرها الواضح على سياستهم تجاه هذه الجزيرة .

أما الفصل الثالث ، فقد تناولت فيه التعاون الذى تم بين القوى البحرية الاسلامية المختلفة فى حوض البحر المتوسط وبين أسطول كريت فى مواجهة البحرية البيزنطية، وأثر هذا التعاون الاسلامى فى الصراع مع بيزنطة خلال المرحلة الزمنية التى امتدت منذ أواخر العقد السابع من القرن التاسع الميلادى وحتى نهاية النصف الأول من القرن العاشر .

وخصصت الفصل الرابع والأخير لعرض تفاصيل أسترجاع بيزنطة لكريت ، والعوامل السياسية الخاصة بالجانبين البيزنطى والاسلامى ، التى أدت لقيام حملة الاسترداد وساعدت على نجاحها . وعالجت موقف القوى الاسلامية المختلفة من الصراع البيزنطى الكريتى فى هذه المرحلة ، كما أوضحت الظروف السياسية التى حالت بين المسلمين فى المشرق والمغرب على السواء ، وبين محاولة استعادتهم لكريت .

واشتملت الخاتمة على أهم النتائج السياسية التى ترتبت على استرجاع بيزنطة لكريت وتقييم الدور الذى لعبه مسلمو كريت فى الصراع البيزنطى الاسلامى فى العصور الوسطى .

وإذ أقدم هذا البحث ، أرجو أن أكون قد وفقت بعرضه فى إزاحة الستار عن جهود وجهاد فئة من المسلمين ، كافحت وناضلت العدو ، ونجحت فى إحراز العديد من الإنتصارات على امبراطورية عتيدة ، بكل ما تهيأ لها من إمكانيات مادية وبشرية ضخمة .

«والله الموفق»

لـوران — إسمت غنيم

١٢ أبريل ١٩٨٢



عرض وتحليل لمصادر البحث



فيما يتعلق بالمصادر الخاصة بهذا البحث . تجدر الاشارة إلى أن الاستفادة كانت كبيرة من المصادر البيزنطية وخاصة المعاصرة منها ، التى روت تفاصيل الصراع بين بيزنطة وكريت ، وذلك بخلاف المصادر العربية المعاصرة والمتأخرة على السواء ، التى أغفلت التعرض لتفاصيل هذا الموضوع ، بإستثناء قلة منها أوردت بعض المعلومات ورغم أهميتها إلا أنها لا تكفى الباحث لتكوين فكرة واضحة عن حقيقة هذا الصراع البيزنطى الكريتى لذلك فأننا ندين بالفضل للمصادر البيزنطية فى إبراز الدور الكبير الذى لعبه مسلمو كريت فى النضال ضد العدو البيزنطى ، وإظهار هذه الصفحة المشرقة والمشرفة فى تاريخ المسلمين فى العصور الوسطى .

والواقع أن الأعتماد أساساً على المصادر البيزنطية فى تتبع أخبار هـذا الصراع يوضح مدى الجهد الذى استلزمه معالجة هذا الموضوع حيث أن جميع هذه المصادر اما بلغتها الأصلية وهى اللغة اليونانية ، أو مترجمة إلى اللغة اللاتينية كما هو الحال فى مجموعة بون البيزنطية المعروفة بأسم Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (١) وبقدر ما عانيت من صعوبة قراءة وفهم هذه اللغات ومشقة نقلها إلى لغة عربية سليمة مع الحفاظ على المعنى الذى يقصده المؤرخ، بقدر ما أرجو أن أكون قد وقفت فى استخلاص مثل هذه المعلومات التاريخية القيمة من مصادرها الأصلية وعرضها باللغة العربيـة .

---

(١) هذه المجموعة تتكون من خمسين مجلدا ، ووتشمل كتابات غالبية المؤرخين البيزنطيين المعاصرين منهم والمتأخرين ، وهى تضم الاصول اليونانية وترجمة لاتينية حرفية لهذه الاصول ، وقد تم نشر هذه المجموعة فى مدينة بون بألمانيا .

ومن المؤرخين البيزنطيين الذن تعرضوا لتفاصيل الصراع بين بيزنطة وكريت الاسلامية المؤرخين التاليين بحسب ترتيبهم الزمنى :

يوحنا كامينياتى :

هو أحد المؤرخين البيزنطيين ، ولد بمدينة سالونيك وعاش بها فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلاديين . وكتابه الذى يعرف بأسم «قهر سالونيك» يعتبر من أكثر المصادر أهمية لموضوع البحث ، إذ إنفرد فيه مؤلفه بسرد التفاصيل الدقيقة للغارة التى قام بها الكريتيون وإخوانهم المسلمين من مصر والشام على المدينة البيزنطية الهامة سالونيك فى عام ٩٠٤ م . ومما زاد فى أهمية هذا المصدر أن كامينياتى كان شاهد عيان لهذه الغارة ، كما أنه وقع أسيرا فى قبضة المسلمين ، وانتهى به المطاف إلى مدينة طرسوس على ساحل قيليقية ومنها عاد مرة أخرى إلى سالونيك بعد أن تم إفتداؤه وبعد عودته إلى بلده دون جميع ما يتعلق بهذه الغارة منذ ظهر الاسطول الأسلامى أمام سالونيك حتى عودته إلى قواعده فى كريت والشام ومصر ، بعد الانتصار التام الذى أحرزه .

وقد تميز أسلوب هذا الكتاب بالطابع الحزين المؤثر ، وذلك يرجع إلى أن مؤلفه عاش المأساة وخاض وقائعها بنفسه . وقد تم الاعتماد على الأصل اليونانى لهذا الكتاب الذى نشر لأول مرة فى عام ١٨٣٨ م فى مجموعة بون البيزنطية . . . . (١) .

قسطنطين بورفيروجينيتوس "Constantin Porphyrogénètus"

هو الامبراطور قسطنطين السابع ، ابن الامبراطور ليو السادس من

(١) أنظر كتاب يوحنا كامينياتى «قهر سالونيك» ص٤٨٧ وما بعدها باليونانية ، وراجع كذلك :
La grand Encyclopedia, Vol VIII, p 1079

زوجته الرابعة زوى كاربونوبسينا Zoé Carbonopsina . ولد فى عام ٩٠٥ م ، وتوفى فى ٩ نوفمبر ٩٥٩ م .

ورغم أن العرش البيزنطى قد آل إلى قسطنطين السابع بعد وفاة والده ليو السادس فى عام ٩١١ م ، إلا أنه لم يتولى مقاليد الأمور بصفة فعلية إلا فى عام ٩٤٤ م (١) وبعد أن انفرد بالعرش فأنه عهد إلى زوجته هيلين ليكابينوس ووزرائه بتصريف شئون الحكم . ويرجع السبب فى ذلك إلى تفوق النزعة الأدبية عند قسطنطين على النزعة السياسية ، فقد إشتهر بميوله إلى العلم والمعرفة والدراسات التاريخية وأسهم بذلك فى التقدم الفكرى البيزنطى بما أصدره من مؤلفات عديدة ، وما أقدم عليه من تشجيع الآخرين على التأليف . وقد أنفق أموالا طائلة فى سبيل تصنيف كتبا تتضمن نصوصا مختارة من مؤلفات القدماء.

ومن مؤلفات الامبراطور قسطنطين السابع كتاب عن «الثغور» De Thematibus الذى جرى تأليفه فى عام ٩٣٤ م . وهذا الكتاب يعتبر سجل للولايات البيزنطية وحدودها وسكانها ، وإستمد معظم مادته من المؤلفات الجغرافية التى ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين. وقد رجعت إلى هذا الكتاب عند التعرض لدراسة جغرافية بعض الجزر والبلاد البيزنطية التى ورد ذكرها فى هذا البحث .

أما كتابه عن «إدارة الامبراطورية» De Administrando Imperio الذى أهداه إلى أبنه وولى عهده رومانوس الثانى ، فيحتمل أنه وضعه فى عام ٩٥٣ م ، وقد استهل هذا الكتاب بفصل عن الاقوام التى تجاور الامبراطورية

---

(١) انظر تفاصيل الظروف السياسية التى حالت دون انفراد الامبراطور قسطنطين السابع بالعرش البيزنطى فى الفصل الثالث من هذا البحث .

البيزنطية من جهة الشمال وما قام به هؤلاء الاقوام لا سيما البجناك والروس من دور كبير فى الحياة السياسية والاقتصادية فى القرن العاشر الميلادى . واشتمل هذا الكتاب على العديد من التوجيهات بشأن السياسة الخارجية لبيزنطة ، وعلاقات الامبراطورية بالأمم المجاورة لها . أما أهمية هذا الكتاب بالنسبة للموضوع الذى نحن بصدد معالجته فى هـذا البحث فتعتبر محدودة إذ أن الامبراطور قسطنطين تعرض فيه للفتح الاسلامى لكريت بإيجاز ولم يأت بجديد فى هذا الموضوع يخالف فيه المصادر البيزنطية الأخرى التى تعرضت للفتح .

ومن مؤلفات الامبراطور قسطنطين السابع كذلك كتاب «المراسم الامبراطورية» وهو عبارة عن نصوص مختلفة ، يتناول الأباطرة الذين سبقوا قسطنطين ، والذين جاءوا بعده، ، لذلك فالمصدر يشتمل على زيادات أضيفت إليه فى فترة متأخرة . وقد أستند فى تأليفه إلى محفوظات القصر الامبراطورى من سجلات رسمية فى العصور المختلفة . وهو يتضمن مادة وافية عن قواعد المعاملة فى البلاط البيزنطى وآداب السلوك ، وكل ما يتعلق بالحياة داخل القصر الامبراطورى من حيث الإدارة المالية للقصر ، والتعميد والزواج وتشييع جنائز الاباطرة وإستقبال السفراء الأجانب وإعداد الحملات الحربية والوظائف والألقاب وأغلب الظن أن تصنيف هذا الكتاب تم فى عام ٩٥٣م

(١) بشأن عصر قسطنطين السابع ومؤلفاته أنظر :

Diehl, dans la grande Encyclopedia, tome XXX, pp. 583—584; Barker, Social and Poltitical thought in Byzantium, pp 100—104; Ostrogor.ky Histoιy of the Byzantine State, pp 190—191

راجع كذلك هارتمان ، الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ترجمة الدكتور جوزيف نسيم ، الاسكندرية ، ١٩٧٠ ، ص ٦-٧ .

وهذا المصدر يعتبر على جانب كبير من الاهمية لموضوع هذا البحث إذ أورد فيه الامبراطور قسطنطين السابع تفاصيل الاستعدادات العسكرية للحملتين الكبيرتين اللتين أرسلتها الامبراطورية البيزنطية ضد كريت، وجرى ارسال الحملة الأولى فى عام ٩١٠ م فى عصر والده الامبراطور ليو السادس، على حين أرسلت الحملة الثانية فى عام ٩٤٩م فى عصر قسطنطين السابع نفسه. والواقع أننا ندين بالفضل لهذا المؤرخ فى امدادنا بالمعلومات القيمة عن هاتين الحملتين، إذ لولاه لطمست معالم هذه الحقبة الهامة فى تاريخ العلاقات البيزنطية الكريتيه، نظرا لأنه لم ترد التفاصيل الخاصة بها فى أى مصدر آخر من المصادر البيزنطية والعربية على السواء. هذا إلى جانب ما أورده هذا الكتاب من تفاصيل الاحتفالات التقليدية التى تقام فى بيزنطة فى حالة احراز النصر على المسلمين وهو ما افادنا أثناء معالجة الفصل الرابع من هذا البحث، حين عرضنا للاحتفالات التى تمت فى بيزنطة ابتهاجا باسترجاع كريت من يد المسلمين.

وقد نشرت مؤلفات الامبراطور قسطنطين السابع لأول مرة فى مجموعة بون البيزنطية ورجعت فى بحثى إلى الترجمة اللاتينية للكتابين الأول والثانى وعلى الأصل اليونانى للكتاب الثالث.

مؤلف صلة ثيوفان : **" Theophanes Continuatus"**

لم يعرف على وجه الدقة مؤلف هذا الكتاب، وان كان بعض المؤرخين المحدثين قد رجحوا أن مؤلفه هو الامبراطور قسطنطين السابع نفسه (١). والكتاب يبدأ بعرض الاحداث الخاصة بعصر الامبراطور ليو الأرمنى (٨١٣–٨٢٠ م) ويسير فى تسلسل زمنى حتى عصر الامبراطور قسطنطين السابع، وهذا المصدر يمجد الاسرة المقدونية وعلى الأخص مؤسسها باسيل الأول.

---

(1) Ostrogorosky, History of the Byzantine State, p 187;

رانسيمان : الحضارة البيزنطية، ص ٢٩٦.

وقد عني مؤلف صلة ثيوفان بالاحداث الخاصة بالعلاقات بين بيزنطة وكريت منذ بداية الفتح الاسلامى للجزيرة حتى عصر الامبراطور ليو السادس (٩١١ م) ، لذلك كان الاعتماد على هذا المصدر أمر ضرورى أثناء معالجة العلاقات البيزنطية الكريتية خلال هذه الفترة من الزمن ، وكذلك لمختلف العناصر الجانبية الخاصة بهذا البحث ، مثل تلك التى ساعدت على نجاح الفتح الاسلامى لكريت كثورة توماس الصقلبى والنتائج التى ترتبت عليها. والأخرى التى أثرت على الصراع بين بيزنطة وكريت مثل فتح صقلية ، والحروب بين العباسيين والبيزنطيين فى عصر ثيوفيل (٨٢٩ – ٨٤٢ م) وعلاقات بيزنطة بجيرانها الروس والبلغار وغيرها من الموضوعات التى تركت بصماتها الواضحة على العلاقات بين الطرفين فى الفترة موضوع البحث .

وقد نشر هذا الكتاب للمرة الأولى فى عام ١٨٣٨ م فى مجموعة بون البيزنطية .

جينزيوس : "Genesius"

هو المؤرخ البيزنطى جوزيف جينزيوس ، عاش فى أواسط القرن العاشر الميلادى وصنف أثناء حياة الامبراطور قسطنطين السابع فى الفترة من ٩٥٤– ٩٥٩ م كتاب أطلق عليه اسم «تاريخ الملوك» "Basiliea" ، بدأه بالأحداث التى تمت خلال عهد الامبراطور ليو الارمينى وأختتمه بوفاة الامبراطور باسيل الأول فى ٨٨٦ م .

وهذا المصدر على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لهذه الفترة من التاريخ البيزنطى حيث أن جينيزيوس قد أستقى معلوماته التاريخية من شهود العيان من أقربائه الذين كانوا يشغلون مناصب هامة فى البلاط الامبراطورى . كما كان هو نفسه مقربا من الامبراطور قسطنطين السابع ومن ثم فقد أتيح له الاطلاع على الوثائق الهامة المحفوظة بالقصر الامبراطورى .

وقد أهتم جنزيوس ، شأنه فى ذلك شأن صاحب صلة ثيوفان ، بأيرد مختلف العناصر الجانبية الخاصة بالعلاقات بين بيزنطة وكريت فى الفترة التى

تناولها . وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة فى عام ١٧٣٣ م فى مدينة ليبزج Leipzig فى مجموعة فينيس البيزنطية La Byzantine de Venise ثم نشر من جديد فى عام ١٨٣٤ م فى مجموعة بون البيزنطية (١) .

ثيودوسيوس الشماس :

عاش ثيودوسيوس فى أواسط القرن العاشر الميلادى ، وكان يعمل شماسا فى كنيسة القسطنطينية ، وقد أثار حماسة الانتصار الكبير الذى أحرزه نقفور فوقاس فى كريت أثناء الحملة التى قادها فى عام ٩٦٠ م والتى نجحت فى أستعادتها من أيدى المسلمين ، فألف ملحمة شعرية من خمسة أبواب أسماها «فتح كريت» .

وقد حرص ثيودوسيوس على عدم اظهار هذه الملحمة أثناء حياة الامبراطور رومانوس الثانى خوفا من غيرة هذا الامبراطور من النجاح المطرد للدمستق نقفور فوقاس .. على أنه قدمها لنقفور فى أبريل عام ٩٦٣ م بعد وفاة الامبراطور رومانوس الثانى (٢) .

ورغم أن هذه الملحمة تعتبر من المصادر الهامة والرئيسية التى يمكن الرجوع اليها عند معالجة حملة نقفور فوقاس على كريت ، إلا أنه يجب على الباحث أن يتقبلها بحذر تام ، إذ أن مؤلفها يظهر تحيزا واضحا للجانب البيزنطى ، ويبالغ فى تمجيد جيشه وقائده نقفور فوقاس الذى يطلق عليه ثيودوسيوس اسم «شمس القادة» و «منتقم الرومان» وغيرها من الألقاب البراقة التى تنم عن اعجابه الشديد بهذا القائد وشجاعته وبطولاته النادرة.وهو نفس الاسلوب الذى تتميز به دائما الملاحم الشعرية التى تمجد أعمال القادة العظام وغيرهم من الشخصيات التى يرتبط اسمها بأعمال البطولة .

وقد تم الاعتماد على الاصل اليونانى الذى نشر لأول مرة فى مجموعة بون البيزنطية .

---

(1) La grande Encyclopedia, tome Dix - Huitième, p 732

(2) Schlumberger, Un Empereur Byzantine au Dixieme siécle Nicephore Phocas, p 84

ليون الشماس : "Leon Diaconus"

هو أحد رجال الدين البيزنطيين ، عاش فى النصف الثانى من القـــرن العاشر الميلادى وفى حوالى ٩٩٢ م تقريبا ، وضع مؤلفا عرف باسم «تاريخ ليون الشماس» Leonis Diaconi Histoiiae تكون من عشرةفصول تناول فيه الاحداث التاريخية البيزنطية فى الفترة من ٩٥٩ — ٩٧٦ م . وعرض للانجازات العسكرية التى قـام بها القائـد ثم الامبراطـور نقفور فوقـاس ، والامبراطور يوحنا تزيمسكس ضد المسلمين والشعوب الأخرى المجـاورة للامبراطورية البيزنطية مثل الروس والبلغار .

وقد خصص ليون الشماس الفصلين الأولين من مؤلفه لعرض الحملـة التى قادها نقفور فوقاس ضد كريت فى عام ٩٦٠ م . وكل التطورات الخاصة بهذه الحملة حتى تم لها فتح الجزيرة وفرض السيادة البيزنطية عليها من جديد . لذلك فقد كان هذا الكتاب من المصادر الاساسية التى اعتمدت عليها فى الفصل الرابع من هذا البحث ، وذلك عند التعرض للاحداث الخاصةباسترجاع بيزنطة لكريت .

والنسخة الخطية لهذا الكتاب موجودة فى مدينة باريس ، وقد قامت دار النشر الفرنسية هاس «Hase» بنشرها للمرة الأولى فى عام ١٨١٩ مع التعليق عليها الذى له جانب كبير من الاهمية ، ثم أعيد طبع نسخة هاس هـذه فى مجموعة بون البيزنطية فى عام ١٨٢٨ م . (١)

كان ذلك عن المصادر البيزنطية ، أما المصادر العربية فبرغم أنها تأت فى المرتبة الثانية بالنسبة للموضوع الاساسى فى هذا البحث وهو العلاقاتالسياسية (المباشرة) بين بيزنطة وكريت الاسلامية ، إلا أن القليل من هذه المصادر قد انفرد بأيراد بعض الاحداث التاريخية الهامة الخاصة بهذه العلاقات ، ولم نعثر

(1) La grande Encyclopedie, inventaire Raisonné des Sciences, des lettres, des arts, tome vingt, p 32.
Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P.187.

على أية أشارة لها فى المصادر البيزنطية وبذلك تصبح المصادر العربية مكملة للمصادر البيزنطية فى هذا الشأن . فضلا عن الاعتماد على المصادر العربية فى كثير من الاحيان عند معالجة بعض العناصر الجانبية المتفرعة عن موضوع البحث والتى أثرت تأثيرا مباشرا أو غير مباشر على العلاقات بين بيزنطة وكريت .

وإلى جانب الاعتماد على المصادر التاريخية ، استعنت أيضا بما كتبه الرحالة والجغرافيون وخاصة المعاصرون منهم ، والواقع أن بعض هذه المصادر الجغرافية أوردت من المعلومات الجغرافية والتاريخية على السواء ، ما أنار لنا السبيل فى كثير من الأحيان اثناء معالجة بعض المسائل الجغرافية أو التاريخية الخاصة بالبحث .

وتجدر الاشارة هنا بصفة خاصة إلى بعض المؤرخين المسلمين ، الذين أمدتنا كتبهم بالمعلومات القيمة المفيدة ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر المؤرخ المعاصر الطبرى وهو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد ، ولد فى عام ٢٢٤ هـ (٨٣٩ م) بمدينة أمل بالقرب من بحر قزوين فى اقليم طبرستان الفارسى ، ولذلك سمى بالطبرى ، وتوفى فى بغداد فى عام ٣١٠ هـ (٩٢٢ — ٩٢٣ م) . (١) .

استفاد الطبرى من خبرة الاساتذة فى بلده ثم رحل فى طلب العلم ، ونزل بايران والعراق والشام ومصر ، وكان واسع المعرفة بالاحاديث الاسلامية والقرآن الكريم والفقه والتاريخ وقد وضع الطبرى تفسيرا للقرآن الكريم ، يقال أنه كان فى الأصل أكثر اسهابا مما هو عليه الآن ويقول المؤرخ فيليب

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، حققه وعلق عليه ووضع فهارسه محمد محيى الدين عبد الحميد ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٣٣٢ .

Hitti, History of the Arabs, London, 1937, p. 390.

حتى أن هذا التفسير «يعتبر لا أقدم التفاسير فحسب ، بل أعظم مجموعة للروايات التفسيرية . وقد أصبح مقياسا نسج على منواله المفسرون فيما بعد ، واستمدوا منه معلوماتهم » (١) .

أما كتابه التاريخي المعروف باسم «تاريخ الرسل والملوك» أو «تاريخ الأمم والملوك» فهو يبدأ منذ بداية الخليقة ، وينتهى حتى عام ٣٠٢ ه (٨١٥ م) . وقد رتب الطبرى حوادث التاريخ ترتيبا زمنيا ، فجمعها تحت سنوات الهجرة المتعاقبة ، وأتبع فى كتابته الطريقة المحببة إليه وهى عرض الأخبار على طريقة الرواية الدينية المعروفة بالاسناد ولم يقتصر الطبرى على الاستفادة من المصادر الأدبية والتاريخية التى ترجمت عن الفارسية ، والتى كانت موجودة فى عصره بل أضاف حوادث إلى تاريخه من الروايات الشفوية التى جمعها أثناء رحلاته ، ومن المحاضرات التى تلقاها على شيوخه الذين درس على أيديهم فى بغداد وغيرها من مراكز الفكر . ويقول ابن خلكان وهو أحد الذين ترجموا لحياة الطبرى أن «تاريخه من أصح التواريخ وأثبتها» (٢) . ويقال ان النسخة الأصليه من هذا الكتاب تبلغ عشرة امثال النسخة الموجودة الآن (٣).

وقد أولى الطبرى أهتماما كبيرا للعلاقات السياسية بين البيزنطيين أو (الروم) على حد تعبيره ، والمسلمين فى المشرق ، على أنه مما يؤخذ على الطبرى عدم اهتمامه بتتبع أخبار المسلمين بكريت ، رغم أنه كان معاصرا لفترة لا يستهان بها (٢٢٤ — ٣١٠ ه ٨٣٩ — ٩٢٣ م) من الصراع البيزنطى الكريتى . ويبدو أن السبب فى اغفال الطبرى التعرض لتاريخ كريت الاسلامية ، يرجع إلى عدم معرفته الدقيقة بهذه الجزيرة ، ويتضح ذلك جليا أثناء عرضه الموجز

(1) Hitti, op. cit, p.390

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ص ٣٣٣ .

(3) Hitti, op. cit., p. 390.

للفتح الاسلامى لهذه الجزيرة إذ قال أنه بعد مغادرة الاندلسيين للاسكندرية فى ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م «نزلوا جزيرة من جزائر البحر يقال لها اقريطش» (١) .

على أن الاستفادة كانت كبيرة من هذا المصدر فيا يتعلق بالصراع بين العباسيين والبيزنطيين فى عهد الامبراطور ثيوفيل ، هذا الصراع الذى كان له تأثيره على العلاقات بين بيزنطة وكريت . كما كان الطبرى أكثر المؤرخين المسلمين سردا لتفاصيل الغارة التى قام بها البيزنطيون على مدينة دمياط فى عام عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م ، انتقاما للهزائم التى أنزلها بهم مسلمو كريت ، تلك الغارة التى أغفلتها المصادر البيزنطية تماما ، رغم ما حققه فيها البيزنطيون من نجاح .

النعمان :

هو المؤرخ الشيعى أبو حنيفة بن محمد المغربى ، عاش فى المغرب فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وتوفى فى ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م — ٩٧٤ م . وكان النعمان عالما فى المسائل القضائية والفقهية ، وكان يشغل منصب (القاضى) فى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٢) .

وكتاب النعمان المعروف باسم «المجالس والمسايرات» يعد من أهم المصادر التاريخية المعاصرة للخليفة المعز (٩٥٢ — ٩٧٥ م) وقد تناول فيه النعمان علاقة المعز بالامويين فى الأندلس وشرح أسباب العداء الذى قام بينهم وبين الفاطميين ووازن بين قوة كل منهما . كما عرض كذلك لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية .

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، الجزء العاشر ، ٢٧٦ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ . ص ص ٤٧٨ — ٤٧٩ .

وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة لموضوع البحث إلى أن النعمان قد انفرد دون غيره، من سائر المؤرخين المسلمين والبيزنطيين بأيراد تفاصيل السفارة التى أرسلها مسلمو كريت إلى الخليفة المعز لدين الله وهو فى شمال افريقيـة يستنجدون به ضد الدولة البيزنطية التى أناخت جيوشها وأساطيلها عليهم فى عام ٩٦٠ م / ٣٤٩ ﻫ وما دار بين المعز وأعضاء السفارة الكريتية من أحاديث متبادلة . كما انفرد دون المؤرخين جميعا بأيراد نص الكتاب الذى بعث به الخليفة المعز إلى الامبراطور البيزنطى رومانوس الثانى بشأن موضوع كريت . وكذلك نص الخطاب الذى أرسله المعز لكافور الاخشيدى بهدف التعـاون معا لنجدة أهالى كريت من القوات البيزنطية المحاصرة لهم .

وهذا الكتاب يتكون من مجلدين ، تمت الاستفادة من المجلد الثانى وهو مايزال مخطوطا وهو موجود بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٦٠ .

النويـــرى :

هو أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن شهاب الدين النويرى كان عالما جليلا ومؤرخا وفقيها ، ولد بمصر فى أواخر القرن السابع الهجرى وتوفى بها فى رمضان عام ٧٣٢ ﻫ / يونية ١٣٣٢ م فى سن الخمسين (١) .

وكتابه الكبير «نهاية الأرب فى فنون الأدب» يتألف من واحد وثلاثين مجلدا طبع منها حتى الآن ١٨ مجلدا ، نشرته دار الكتب المصرية ، وبقيـة هذه الموسوعة لايزال مخطوطا .

وهذا الكتاب يشتمل على مواد أدبية ولغوية وجغرافية وادارية ودينية وتاريخية وقد قسم النويرى التاريخ الاسلامى إلى دول، فتحدث عن السيرة

(١) فازيليف : العرب والروم ، ترجمة الدكتور عبد الهادى شعيره ، ص ٣٢٨ .

النبوية ، وأخبار الخلفاء الراشدين ، وتعرض لتاريخ الدولة الأموية والدولة العباسية ، والدولة العلوية (الفاطمية) ودول ملوك الاسلام المستقلة بالملك فى عصر الدولة العباسية ، وقد تناول النويرى تاريخ هذه الدول دولة دولة ، فلا ينتقل من سرد تاريخ دولة منها إلا إذا انتهى من عرض تاريخ الدولة السابقة(١).

وقد عرض للفترة المتأخرة من تاريخ امارة اقريطش (كريت) ضمن عرضه لتاريخ مختلف الدول الاسلامية الأخرى وذلك فى المجلد الثانى والعشرين الذى لايزال مخطوطا .

وقد انفرد النويرى من بين المؤرخين المسلمين ، برواية أخبار استعادة بيزنطة لكريت ، ولكن للأسف ، فأن روايته فى هذا الشأن ضعيفة وتخالف الحقائق التاريخية التى وردت فى المصادر البيزنطية ، وقد تمت مناقشة ذلك فى موضعه فى الفصل الرابع من هذا البحث . كما انفرد كذلك دون سائر المؤرخين المسلمين والبيزنطيين على السواء ، بسرد تفاصيل أجبار بيزنطة بعد استعادتها لكريت فى عام ٩٦١ م / ٣٥٠ هـ أهالى الجزيرة المسلمين على ترك دينهم ، واعتناق المسيحية متبعة فى ذلك أعنف الوسائل .

وإلى جانب المصادر من بيزنطة وعربية ، رجعت كذلك إلى أهم المراجع الحديثة مثل تلك التى أهتمت بمعالجة تاريخ الامبراطورية البيزنطية، والأخرى التى عرضت للعلاقات البيزنطية الاسلامية بصفة عامة . ومن أهم هذه المراجع مؤلفات المؤرخ الفرنسى شلومبرجيه Schlumberger وعلى الأخص كتاب

Un Empereur Byzantin au Dixième Siecle, Nicephore Phocas.

وهو دراسة تاريخية مسهبة عن نقفورفوقاس وحروبه ضد المسلمين سواء وهو قائد أو بعد اعتلائه للعرش الامبراطورى ، وقد نشر هذا الكتاب فى

(١) السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ من ص ٨٤-٨٥، ص ١٩٨ .

باريس فى عام ١٨٩٠ . ومؤلفات المؤرخ الروسى فازيابييف Vasiliev ومنها «تاريخ الامبراطورية البيزنطية» «Hisitore de l'empire Byzantin» الذى بلغ من أهميته أنه ترجم من اللغة الروسية إلى لغات عديدة ، ونشرت احدى هذه التَرجمات باللغة الفرنسية فى مدينة باريس فى عام ١٩٣٢ م ، وقد عالج فازيلييف فى هذا الكتاب تاريخ الامبراطورية البيزنطية منذ القرن الرابع الميلادى ، حتى سقوطها فى عام ١٤٥٣ م . ولفازيلييف كتاب آخر يتكون من ثلاث مجلدات عن العلاقات بين المسلمين والدولة البيزنطية وترجمة إلى اللغة الفرنسية المؤرخان جريجوار وكانار ، ونقل الجزء الأول منه إلى اللغة العربية الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيره وظهر بعنوان «العرب والروم» ومن أهم المراجع الأجنبية كذلك كتاب المؤرخ الروسى اوستروجورسكى Ostrogorosky الذى كتبه باللغة الالمانية ثم ترجمته المؤرخة الانجليزية هسى Hussey إلى اللغة الانجليزية تحت عنوان History of the Byzantine State وقد تناول فيه هذا المؤرخ دراسة تاريخ الامبراطوريةالبيزنطية حتى سقوطها فى عام ١٤٥٣ م وأولى اهتماما خاصا للناحية السياسية .

أما المراجع العربية فأهمها لموضوع البحث مؤلفات الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق «الامبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الاراضى المقدسة» وهو دراسة لحروب نقفور فوقاس فى المشرق الاسلامى ،منذ اعتلائه للعـــرش الامبراطورى فى ٩٦٣ م وحتى وفاته فى ٩٦٩ م ، وما تميزت به هذه الحرب من الطابع الدينى ، وكتاب «مقدمات العدوان الصليبى» ، وتناول فيـــه فتوحات الامبراطور يوحنا تزيمسكس فى الشرق الأدنى الاسلامى وأولى اهتماما خاصا لدراسة أحوال المشرق وبشكل خاص فى المرحلة التى سبقت هجـوم تزيمسكس ، كما زود الكتاب بعدة ملاحق على جانب كبير من الأهمية .

والواقع أن هذين الكتابين دراسة تحليلية دقيقة للموضوعات التى عالجهـــا المؤلف ، وقد اعتمد فى هذه الدراسة على المصادر من بيزنطة وعربية . أما الكتاب الثالث وهو «تاريخ الامبراطورية البيزنطية». فقد عالج فيه التاريخ البيزنطى بصفة عامة منذ بداية تأسيس القسطنطينية فى عهدالامبراطور قسطنطين الأكبر وحتى سقوطها فى ١٤٥٣ م .

كان هذا عرض سريع لأهم المصادر البيزنطية والعربية المعاصرةوالمتأخرة زمنيا ، التى أنارت لى سبيل البحث والمعرفة فى هذا الموضوع .



الفصل الأول


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفتح الاسلامى لجزيرة كريت

٨٢٧م / ٢١٢ هـ

- جغرافية كريت وأهميتها الاستراتيجية .
- أحوال كريت قبيل الفتح الاسلامى .
- محاولات المسلمين المبكرة لغزو الجزيرة ونتائجها .
- مناقشة أصل الأندلسيين فاتحى كريت .
- نزول الاندلسيين بالاسكندرية ومشاركتهم فى احداثها السياسية ، ثم استقلالهم بها .
- طردهم من الاسكندرية ونزولهم بكريت وفتحهم لها .
- تحليل أسباب عدم وجود مقاومة من جانب السلطات البيزنطيةوأهالى كريت ، للفاتحين المسلمين .

كريت ، هى الجزيرة ذات المائة مدينة ، التى لعبت دورا هاما فى تاريخ العلاقات السياسية بين المسلمين والدولة البيزنطية خلال الفترة التى امتدت من أواخر العقد الثالث من القرن التاسع ، حتى أوائل الستينات من القرن العاشر الميلادى ، وقد استحوذت خلال تلك الفترة من الزمن على جانب كبير من اهتمام بيزنطة ، وأصبح القضاء على السيادة الاسلامية على هذه الجزيرة هو الشغل الشاغل لها .

اشتهرت كريت فى العصور القديمة بأسماء متعددة ، فسميت ماكارونيسوس Macaronesos ، وأيضا «يريا» Aeria (١) نظرا للطف هواءها

---

(١) الاصل اليونانى لهذه الكلمة هو يريوس ومعناها الحرفى «طلق الهواء» .

واعتدال مناخها ، وعرفت كذلك باسم «دوليخه» Doliché بسبب تكوينها المستطيل الشكل ، كما سميت ، تلخينيا Telchinia نسبة إلى الشعب المعروف بأسم «تلخينيس» Telchines ، وهو أحد الشعوب التى استوطنت كريت فى الأزمنة القديمة ، وأطلق عليها أيضا أسم «ايدايا» Idaea (١) ، والراجح أن هذا الاسم نسبة إلى جبل «أيدا» Ida أضخم جبال كريت .

أما فى العصور الوسطى فقد أطلق عليها المؤرخون والجغرافيون المسلمون اسم اقريطش (٢) أو أقريطية (٣) ، وذكر المؤرخ القلقشندى أنها «تسمى أيضا (اقريطش البترليش) ومعناها بالعربية مائة مدينة (٤)» . وعرفها المؤرخون البيزنطيون باسم كريتا (Creta) (٥) .

وقد اختلفت الروايات الخاصة بتحديد أصل اسم «كريت» ، فالبعض يرجح أن هذا الاسم مشتق من «كوريتيس» Curètes وهو اسم أحد الشعوب

---

(1) Lacroix; M.L., Histoire et Description de tous les peuples, Iles de la Crece, p. 530.

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ١ ، ص ٥٧ ، المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ج ٥ ، ص ١٥ ، ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، ص ٢٠٣ ، ابن جبير : الرحلة ، ص ٦ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، طبعة بيروت ، ص ٢٣٦ .

(٣) ابن رسته : الاعلاق النفسية ، ص ٨٥ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .

(٥) انظر كتاب المؤرخ البيزنطى كيدرينوس ، المسمى ، «موجز التاريخ» وهو مدون باليونانية ، الجزء الثانى ص ٩٢ .

وانظر كذلك :

Monachus, Vitae Recentiorum Imperatorum , p. 789 ; Constantim Porphyrogenetus, De Administrando. Imperio p. 104; Genesius Basileiai, p, 46, Symeon Magistri, Annales, p. 758.

التى سكنت كريت فى الأزمان القديمة ، ولعب دورا هاما فى تاريخها وحضارتها (١) . وثمة فريق آخر يعزى هذا الاسم إلى «كريس» Cres وهو اسم أول ملك حكم هذه الجزيرة ، وأطلق عليه القلقشندى اسم قراطى فقال :

«سميت بذلك لأن أول من عمرها كان اسمه قراطى» (٢) ، أما الجغرافى تيودور الصقلى فقد ذكر فى هذا الصدد رواية غلب عليها الخيال ، وتتلخص فى أن الاله المصرى آمون ضاق ذرعا بأحدى المجاعات التى حدثت فى مصر ، فهاجر منها إلى جزيرة كريت ، التى كانت تعرف آنذاك باسم «ايدايا» Idaea ، وتزوج من احدى بنات شعب «كوريتيس» وتدعى «كريتا» Creta وبعد أن تم الزواج أصبح الاله آمون ملكا على تلك الجزيرة ، التى أصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم كريت نسبة إلى زوجته (٣) .

والباحث فى جغرافية كريت خلال العصور الوسطى يصادف صعوبة كبيرة ، نظرا لضآلة المعلومات الخاصة بهذا الموضوع ، فعلى الرغم من اهتمام المؤرخين البيزنطيين بسرد الصراع السياسى الذى اشتعل بين الدولة البيزنطية وا لمسلمين بكريت ، إلا أنهم لم يذكروا شيئا عن جغرافية الجزيرة ، بل أن الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه عن الثيمات الامبراطورية De Thematibus (٤) رغم اهتمامه الواضح بجغرافية الاقاليم التابعة للامبراطورية وكذلك الاقاليم المحيطة بها والتابعة للمسلمين والبلغار والروس ، ومختلف

(1) Lacroix, op. cit., p. 530.

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٧١ ، وانظر كذلك ، Lacroix, op. cit., p. 530.

(3) Lacroix, op. cit., p. 530.

(٤) تم الاطلاع على هذا المصدر فى مجموعة بون البيزنطية ، ولم نعثر به على أية معلومات تتعلق بجغرافية كريت .

الشعوب الأخرى ، إلا أنه لم يذكر شيئا البته عن جغرافية كريت ، مع أن الصراع السياسى بين فاتحيها المسلمين والدولة البيزنطية ، قد استحوذ على جانب كبير من عصر هذا الامبراطور (١) . فإذا إنتقلنا إلى المصادر العربية ، وجدنا معظم الجغرافيين المسلمين وكتاب المسالك والممالك ، قد أشاروا إلى كريت إشارات سريعة موجزة للغاية ، لا تشفى غلة الباحث فى هذه الناحية ، فعلى سبيل المثال لم يزد المقدسى عند تعرضه لها عن قوله «واقريطش تقابل مصر» (٢) وقد نحا نحوه كل من ابن رسته الذى قال « واقريطية يحيط بها ثلثمائة ميل» (٣) ، وياقوت الذى عرفها بقوله «اقريطش ... اسم جزيرة فى بحر المغرب ، يقابلها من بر افريقية لوبيا ، وهى جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى» (٤) ، وكذلك ابن جبير الذى قال «وبينها (أى اقريطش) وبين جزيرة صقلية ، مسيرة سبعمائة ميل ، وبين هذه الجزيرة المذكورة(اقريطش) وبين الاسكندرية ستمائة ميل أو نحوها» (٥). ولكن رغم قلة المعلومات التى وردت فى هذه المصادر وغيرها ،إلا أنه يمكن الاستعانة بها فى تكوين نبذة سريعة عن جغرافية كريت .

تعتبر هذه الجزيرة احدى أربع جزر كبرى فى البحر الأبيض المتوسط(٦) وهى تتمتع بموقع استراتيجى هام أكسبها مكانة ممتازة بين سائر الجزر اليونانية فان قربها من القارات الثلاث المعروفة فى العصور الوسطى وهى آسيا وافريقية

(١) بشأن هذا الصراع ، انظر الفصل الرابع من هذا البحث .
(٢) المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ص ٤٥ .
(٣) ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص ٨٥ .
(٤) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦ .
(٦) الثلاث جزر الاخرى هى : صقلية ، وسردينيا ، وقبرص .

وأوروبا ، جعلها مركز التقاء الحضارات المختلفة لشعوب هذه القارات ، كما جعلها مستودعا تجاريا هاما . كذلك فأن موقعها عند الحد الجنوبى للبحر الايجى (١) ، الذى ضم القسط الوافر من الجزر والبحار الداخلية ، جعلها تقسم مدخله إلى شطرين ، تتحكم فى كل منهما ، وقد هيأ لها ذلك فرض السيطرة على عديد من الجزر اليونانية فى هذا البحر والشواطىء المطلة عليه(٢)

والجزيرة ذات شكل مستطيل. يقول ابن خلدون «وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء إلى مابين الجنوب والشرق منه (أى من بحرالروم)(٣) وفيما يتعلق بطولها فقد حدده بعض الجغرافيين بثلثمائة ميل (٤)، وحدده البعض

---

(١) يعرف كذلك ببحر الارخبيل ، وهو بحر داخل تكون من مياه الجزء الشرقى من البحر المتوسط ، فى المنطقة المحصورة بين آسيا الصغرى وأوروبا ، ويحده من الجنوب جزيرة كريت ، ومن الشرق ساحل آسيا الصغرى حتى مضيق الهللسبونت (الدردنيل) . ومن الغرب سواحل تساليا ، والهيلاس (بلاد اليونان) ، والبلوبونيز (شبه جزيرة المورة) . ويبلغ طوله من الشمال للجنوب ستمائة كيلو متر ، وعرضه فى الاجزاء الشمالية يبلغ ٢٥ كم ، وفى الوسط والجنوب يبلغ عرضه ٤٥٠ كم . انظر ،

La grande Encyclopedia, tome Troisième, p. 677.

(2) Semple, The geography of the Mediterranean region, p. 74.

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ١ ، ص ٥٧ .

(٤) انظر على سبيل المثال ، ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص ٨٥ .

الادريسى : نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر ، تحت الجزء الرابع من الاقليم الرابع ، النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٧١ ، ابن جبير : الرحلة ، ص ٦ .



جزيرة كريت

البحر الأيجى

شبه جزيرة آكروتيرى

جزيرة ديا

الخندق

جبال بلانك

جبل ايدا

البحر الأبيض المتوسط



الآخر بثلثمائة وخمسين ميلا وأما عرضها فيتراوح ما بين مائة إلى مائة وثلاثين ميلا (١).

وسواحل الجزيرة كثيرة التعاريج مما ساعد على وجود مجموعة كبيرة من المرافىء لعل أشهرها خليج سودا Suda على الساحل الشمالى نظرا لعمقه واتساعه لعدد كبير من السفن ، فضلا عما يتمتع به من حماية طبيعية هيأتها له شبه جزيرة اكروتيرى Akıotiri القريبة منه . أما الساحل الجنوبى فخال تماما من الموانىء ، ولكنه امتاز بوجود سلسلة ضخمة من الجبال أشبه ما تكون بالحائط ، منحته الحماية الطبيعية ضد أى غزو خارجى (٢) . ومثل كل الجزر اليونانية ، فأن جزيرة كريت ذات سطح جبلى وبها مجموعة من الجبال ، أضخمها ثلاث جبال منفصلة عن بعضها تخترق الجزيرة من الشرق إلى الغرب وهى على التوالى جبل ديكته Dicté ، وجبل أيدا Ida ، وجبال بلانك Blanks . على أن أكبر هذه الجبال الثلاث هو جبل ايدا ، الذى يرتفع إلى أكثر من ١٢٠٠ مترا فوق سطح البحر ، ويمتاز بوجود غابات كثيفة من الأشجار على الأجزاء المرتفعة منه ، وبالتالى أصبح مصدرا هاما للأخشاب ،

---

(١) الادريسى : نفس المصدر ، تحت الجزء الرابع من الأقليم الرابع ، النويرى نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ . والجدير بالذكر أن المراجع الحديثة قد حددت طول الجزيرة بمائة وستين ميلا ، وذكرت ان عرضها من الشمال للجنوب يتراوح ما بين ٣٥ ميلا إلى ٧,٥ ميل. وأن هذا الاختلاف بينها وبين المصادر الوسيطة فى طول وعرض الجزيرة يرجع لأحد سببين، اما أن يكون بسبب عدم دقة المصادر الوسيطة فى تحديد الأطوال والمسافات تحديدا دقيقا لعدم وجود أجهزة القياس اللازمة لذلك فى العصور الوسطى ، أو ان تكون الجزيرة قدتعرضت للتآكل من جانب البحار المحيطة بها من كل جانب . وبشأن طول وعرض الجزيرة فى العصر الحديث انظـر ،

Encyclopedia Britannica, vol 6, p. 676; Semple, op. cit., p. 74.

(2) Encyclopedia Britannica, vol 6, p. 676.

أما سفحه فأنه مغطى بالبساتين وأشجار الفاكهة من جميع الاتجاهات وهى تمتد من الشرق إلى الغرب مكونة سهلا خصيبا (١).

وبالجزيرة نهران رئيسيان يتجهان نحو الجنوب ، الأول هو مترو بولى بوتاموس Metropoli Potamos ويتفرع منه عدة فروع مثل جاردانوس Jardanus ، وبيكنوس Pycnus فى أقليم جبال بلانك فى الغرب ، وأمفياتروم Amphimatrum وأوأكسس Oaxes ، وتتيس Tetthys وتريتون Triton وامنيسوس Amnisos ، كوثراتوس Coeratos فى أقليم جبل ايدا فى وسط الجزيرة. أما النهر الرئيسى الثانى فيدعى آنابوثيارى Anapothiari ، ويتفرع منه فروع تقع كلها فى أقليم جبل ايدا وهى ، ماساتيا Massatia ، واليكترا Electra ، وليثاكوس Lithacus ، وبوثيريوس Pothereus ، وكاتاراكتوس . أما أقليم جبل ديكته فى شرق الجزيرة فتوجد به بعض الأنهار الصغيرة القليلة الأهمية هى أشبه ما تكون بالغدران. (٢) والغالب أنه بعد الفتح الاسلامى للجزيرة قد تغيرت اسماء هذه الأنهار وأن كانت المصادر لم تشير إلى ذلك .

وقد امتازت جزيرة كريت بمواردها الاقتصادية الهامة، فأشتهرت بأنتاج العسل والجبن ، ويذكر المؤرخ البيزنطى صاحب صلة ثيوفان(٣) «أن

---

(1) Lacroix, op. cit., p. 531; Semple, op. cit., p. 268.

(2) Lacroix, op. cit., p. 532; Encyclopedia Britannica, vol 6, pp. 676-677.

(٣) النص اللاتينى لهذه العبارة هو :

«non est haec alia quam terra fluens lacte et melle»

انظر ،

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 74.

هذه الارض لم تكن إلا فيضا من العسل واللبن .» ويذكر كل من جينزيوس وكيدرينوس نفس هذا المعنى (١) . ومن اشارة أوردها المؤرخ النويرى السكندرى يفهم منها أن كريت كانت تصدر العسل والنحل والجبن لمصر والشام (٢) . ويبدو أن صناعة الجبن قد تركزت فى مدينة بالذات كان يطلق عليها وقتذاك اسم «ربض الجبن» وكانت من أشهر مدن كريت (٣) . ، واشتهرت الجزيرة أيضا بكثرة أشجارها وخاصة أشجار الكروم (٤) وامتازت تربة السهل الساحلى بالخصوبة ، وقد دون الجغرافيون المسلمون هذه الحقيقة فقال الادريسى « وجزيرة اقريطش جزيرة عامرة كثيرة الخصب (٥) » . وأوضح كل من الجغرافى ابن حوقل والمؤرخ القلقشندى نفس هذا المعنى(٦) ، ويضيف القلقشندى الى ذلك قـــوله « واكـــثر مواشيها المعز وليس بها ابل ، ولم يكن بها سبع ولاثعلب ولاغيرهم من الدواب الدابة بالليل ، وكذلك ليس بها حية ، وان دخلت اليها حية ماتت فى عامها ، ويقال ان صناعة الموسيقى أول ما ظهرت بها (٧)» . وبالاضافة إلى خصوبة التربة ، فقد

(1) Genesius, Liber 11, p. 47;

كيدرينوس : موجز التاريخ ، ص ٩٢ ، باليونانية .

(٢) النويرى السكندرى : الالمام بما جرت به الاحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية ، مخطوط مصور ، لوحة رقم ١٢٣ أ.

(٣) الادريسى : نزهه المشتاق فى ذكر الا مصار والاقطار والبلدان والجزر ، تحت الجزء الرابع من الاقليم الرابع ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ .

(٤) القلشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٧١.

(٥) الادريسى : نفس المصدر ، الجزء الرابع من الاقليم الرابع.

(٦) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الأول ، ص ٢٠٣ ، القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٧١ .

(٧) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٣٧ .

احتوت كذلك على بعض المعادن النفسية وأهم ما يذكر منها معدن الذهب(١)

ووجد سكان كريت – قبل الفتح الاسلامى للجزيرة – فى الأخشاب التى أمدتهم بها الجبال مصدرا لبناء أسطول دائم هيأ لهم الاشتراك فى عمليات نقل التجارة ، والدفاع عن سواحل جزيرتهم . لذلك اشتهرت كريت منذ أقدم العصور بأنها مصدرا عظيما للجند المرتزقة ، الذين كانوا لا يبخلون بخدماتهم على من يدفع الثمن ، كذلك استخدم فريق من أهالى الجزيرة هذا الأسطول فى القيام بعمليات القرصنة ضد سفن التجارة المارة بالبحار المحيطة بكريت ، وأيضا فى الهجوم على السواحل القريبة وجلب الاسرى والسبايا لبيعهم داخل أسواق جزيرتهم ، وعلى هذا فقد اشتهرت كريت آنذاك بأنها وكراً للقراصنة ، كما كانت من أكبر أسواق الرقيق (٢) .

وإلى جانب تمتع كريت بكل هذه الميزات ، فقد كانت كذلك مهد للحضارة الهللينية ، كما أكتسبت مكانة دينية مرموقة بسبب اعتقاد اليونان بأن فة اينكتاس Inktas – إلى الجنوب من مدينة الخندق – هى مقبرة الاله زيوس Zeius كبير آلهة اليونان ، لذلك فقد نظر اليها دائما نظرة تبجيل واحترام وكانت مزارا يحج اليه اليونانيون (٣) .

وخلال عصر الامبراطورية الرومانية القديمة ، ضمت كريت إلى أقليم

---

(١) الادريسى : نفس المصدر ، الجزء الرابع من الأقليم الرابع ، النعمان : المجالس والمسايرات ، مخطوط مصور ، الجزء الثانى ، لوحة رقم ٤٢١ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .

(2) Semple, op. cit., pp. 639-656; Lacroix, op. cit., p. 531.

(3) Encyclopedia Britanica, vol 6, pp. 684, 676, La grande Encyclopedia, tome treizième, p. 339.

سيرن Cyrene (برقة) (١) وكونتا مقاطعة واحدة ، وحكمت حكما ذاتيا عن طريق مجلس شيوخ ، ووجد بها نائبا عن بابا روما ، وموظفا أو اثنين لجمع الخراج (٢) . وفى زمن الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ – ٣٣٧ م) ضمت كريت إلى مقاطعة الليريا Illyria (٣) وحكمت عن طريق قنصل موفد من قبل الامبراطور البيزنطى ، وتحالفت مدنها تحت السيادة البيزنطية(٤) ثم كونت كريت مع غيرها من جزر البحر الايجى تغرا بحريا هاماوبالاضافة إلى الموارد الاقتصادية الهامة ، والموقع الاستراتيجى والجغرافى الذى ميز هذه الجزيرة ، فقد كان لها دورها فى البحرية البيزنطية ، حيث امدت الامبراطورية بأسطول قوى من السفن الحربية والبحارة الأكفاء (٥) . وفى تلك الفترة ساهمت كريت مساهمة فعالة فى الأحداث الجارية فى بيزنطة ، ومن أمثلة ذلك ما حدث فى عام ٦٩٨ م حين استغل بحارة الأسطول الكريتى التطورات السياسية التى حدثت فى داخل الامبراطورية ، وقاموا بالثورة ونادوا بأمير أسطولهم ويدعى ابسيمار Apsimar امبراطورا لبيزنطة ، ولقب باسم طيبريوس الثالث Tiberius III ، وأبحر الامبراطور الجديد بقواته متجها نحو القسطنطينية فلم يجد مقاومة تذكر ، ودخل إلى المدينة واستمر يحكم الامبراطورية لمدة سبع سنوات (٦٩٨ – ٧٠٥ م) (٦) . وفى زمن الامبراطور

---

(١) تقع سيرن على الساحل الليبى المطل على البحر المتوسط إلى الغرب من مدينة الاسكندرية .

(2) La grande Encyclopedia, tome treizième, p. 339.

(٣) تقع الليريا على الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الادرياتيكى .

(4) Eucyclopedia Biitannica, vol 6, p. 684: La grande Encyclopedia, tome 13, p. 339,.

(5) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 140.

(6) Constantin Porphgrogenitus, De Administrando Imperio, ch. 57. p. 215.

البيزنطى ليو الثالث الايسورى (٧١٧ — ٧٤١ م) أصبحت كريت ثغرا قائما بذاته ، واستمرت كذلك حتى سقطت فى أيدى المسلمين (١) .

أوضحنا فى هذه المقدمة بإيجاز أهم المميزات الجغرافية لكريت ، حيث ألممنا بالموقع الاستراتيجى للجزيرة ، وشكل السطح وتكويناته ، ومميزات التربة ، ونشاط السكان ، ثم ألقينا نظرة عاجلة على وضع كريت بالنسبة للدولة الأم سواء فى العصر الرومانى القديم أو فى العصر البيزنطى .

وإن كانت المصادر المعاصرة لمحاولات المسلمين المبكرة غزو الجزيرة ، لم تذكر شيئا مباشرا عن أسباب هذه المحاولات ، إلا أننا بناء على العرض السابق نستطيع أن نعلل ذلك بما كان لهذه الجزيرة حينذاك من أهمية كبرى من حيث موقعها الجغرافى والاستراتيجى الممتاز ومكانتها الدينية الكبيرة . ومركزها التجارى المرموق الذى يدر أرباحا طائلة على من يتحكم فيها لذا كانت محاولات المسلمين احتلالها من أشد وسائل مضايقة البيزنطيين وقطع مورد مالى هام عنهم ، فضلا عن أن فتحها كان يعتبر بمثابة ضرورة سياسية وحربية لتأمين الدولة الاسلامية الفتية من مضايقات جيرانها ومناوشاتهم . ولعل كل هذه الميزات قد لفتت نظر المسلمين إلى كريت منذ زمن مبكر ، فقاموا بأكثر من محاولة لاحتلال هذه الجزيرة ، وقد وصلتنا أخبار هذه المحاولات من المصادر الاسلامية ، أما المصادر البيزنطية فلم تعرض لها . وقد جرت محاولتان فى عصر الخلافة الأموية ، ويبدو أن اهتمام الامويين بفتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، جعلهم يتجهون بأنظارهم نحو فتح كريت حتى يمكنهم اتخاذها قاعدة حربية لعملياتهم العسكرية ضد القسطنطينية وكذلك لاستخدامها فى سد منافذ بحر أيجة فى وجه السفن البيزنطية ومنعها

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 140.

من الوصول إلى بلاد المسلمين . وجرت المحاولة الأولى فى عام ٥٤ هـ (٦٧٤م) فى عهد الخليفة الأموى معاوية بن ابى سفيان (٤١ – ٦١ هـ / ٦٦١ – ٦٨١م) وقام بها القائد أجاده بن ابى أمية الازدى ، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، إذ يقال أن بعض سفن الاسطول الاسلامى، أغرقها البيزنطيون بمن فيها، واستولوا على بعض السفن الحربية الأخرى ، أما الباقى فقد أسرع بالفرار (١) . أما المحاولة الثانية فلم تحدد المصادر تاريخها وإنما ذكرت أنها حدثت فى عصر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (شوال ٨٦ – جمادى الآخرة ٩٦/أكتوبر ٧٠٥ – فبراير ٧١٥م) (٢) وقد تمكن المسلمون أثناء هذه المحاولة من فتح بعض أجزاء من كريت ، ثم تروى هذه المصادر أنهم قد انصرفوا عنها بعد ذلك (٣) . ولم تأت بشىء عن تاريخ انصرافهم عنها ، ولا عن الاسباب التى أجبرتهم على ذلك . والباحث المدقق فى تاريخ الخلافة الأموية يرجح أن ذلك تم أثناء عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (صفر ٩٩ – رجب ١٠ هـ / سبتمبر ٧١٧ – فبراير ٧٢٠ م) (٤) الذى انتهج سياسة مغايرة لسياسة أسلافه من الخلفاء الأمويين القائمة على أساس التوسع فى الفتوحات ، إذ أكتفى هذا الخليفة بما بلغته الدولة الاسلامية من حدود تمتد من تخوم الصين شرقاإلى الأندلس غربا ، ومن بحر آرال شمالا حتى شلالات النيل السفلى جنوبا ، ورأى أن الأمر يتطلب توجيه الجهود إلى تنظيم هذه الامبراطورية الاسلامية

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٤٤ ، ياقوت ، معهم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ . انظر ايضا ، فازيليف ، العرب والروم ، ص ٥٤ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ ، جـ ٢ ، ص ١١٩.

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ص ٢٤٤ – ٢٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢، ص ٢٣٦ .

(٤) المسعودى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٣١.

المترامية الأطراف وتأمين رقعتها قبل الاستمرار فى الفتح والتوسع (١) . ولا يستبعد أن يكون قد أمر بالإنسحاب من الأجزاء المفتوحة فى كريت تحقيقا لسياسته هذه وبعد أن تخلى عن الحلم الذى راود الأمويين الأوائل الخاص بفتح مدينة القسطنطينية (٢) .

وتمت المحاولة الثالثة فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد (ربيع الأول ١٧٠ - جمادى الآخرة ١٩٣ هـ / سبتمبر ٧٨٦ - أبريل ٨٠٩ م) الذى أرسل أسطولا لفتح كريت بقيادة قائد أساطيل الخلافة العباسية فى شرقى البحر الأبيض المتوسط حميد بن معيوف الهمذانى ، وقد تمكن من فتح أجزاء من هذه الجزيرة (٣) على أن المصادر الاسلامية تؤكد أن البيزنطيين قد استعادوا هذه الأماكن من جديد (٤) لكنها لم تذكر تاريخ استعادة البيزنطيين لها ، وإن كان المرجح أن ذلك لم يتم أثناء حياة الخليفة هارون الرشيد ، الذى بلغت الدولة الاسلامية فى عهده عنفوان شبابها وقوتها وكانت تلتزم سياسة الهجوم دفاعا عن كيانها ونشرا لدعوتها ، وتأمينا لحدودها ، وقد أحرزت الكثير من الانتصارات على الدولة البيزنطية التى اتخذت جانب الدفاع عن نفسها بسبب الضعف الذى انتابها (٥) والغالب أن البيزنطيين قد استعادوا هذه الأجزاء خلال فترة الفتن والاضطرابات السياسية التى اشتعلت فى مختلف

(١) العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ١٩١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٢ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .
(٥) بشأن الظروف السياسية التى عرضت للدولة البيزنطية وأدت إلى اضعافها. انظر نفس هذا الفصل ص ٧١ وما بعدها.

أرجاء الامبراطورية العباسية أثر وفاة الخليفة الرشيد ، ونتيجة للصراع الحربى العنيف الذى قام بين ولديه وخليفتيه الأمين والمأمون (١) .

ولكن إذا كانت هذه المحاولات لم يصادفها التوفيق ، فأن المحاولة التالية التى قامت بها فئة من المسلمين ، قد صادفت نجاحا كبيرا ، وأسفرت عن فرض السيادة الاسلامية على جزيرة كريت لفترة امتدت لأكثر من مائة وثلاثين عاما .

وقد اتفقت المصادر العربية والبيزنطية على أن الموطن الأصلى لهؤلاء الفاتحين هو الأندلس ، وروى المؤرخون البيزنطيون أمثال جينيزيوس ، وقسطنطين السابع ، وصاحب صلة ثيوفان والماجستر سيمون ، وكيدرينوس أن هؤلاء الفاتحين المسلمين قد هاجروا من وطنهم الأصلى فى شبه جزيرة ايبيريا — فى الجنوب الاسبانى — نتيجة للجدب ، الذى أصاب بلادهم ، ونزلوا بكريت مباشرة ، حيث تم لهم فتحها واستيطانها (٢) .

وهكذا يتضح أن هؤلاء المؤرخين البيزنطيين كانوا يجهلون على ما يبدو الأحداث التاريخية التى عرضت لهؤلاء الفاتحين المسلمين فى الفترة السابقة مباشرة لعملية الفتح ، وكان من حسن الحظ أن أمدتنا المصادر العربية بالتفاصيل الدقيقة لتاريخ هذه الفترة .

---

(١) فيما يتعلق بالخلاف بين الأمين والمأمون والنتائج التى ترتبت عليه . أنظر نفس هذا الفصل من البحث ص ٥٦ وما بعدها.

(2) Genesius : op. cit., p. 46; Constantin Porphyrogenetes. De Administrando Imperio, ch. 22, p 104; Theophanes Continuatus : Liber 11, p. 46; Symeon Magistri, p. 758, Zonaras : Epitomae Historiarum, Liber XV, tomus III, pp. 347-348.

وقد اجمع عدد كبير من المؤرخين المسلمين القدامى (١) على أن هؤلاء الفاتحين هم ثوار حى الربض بقرطبة (٢) ، الذين قاموا بثورة عارمة ضد الخليفة الأموى الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢٢ م)، الذى ما أن تم له قمع هذه الثورة أمر بطردهم من الأندلس ، فتوجه فريق منهم إلى مدينة الاسكندرية حيث شاركوا فى الأحداث السياسية التى مرت بها البلاد المصرية آنذاك ، وعلى الأخص مدينة الاسكندرية ، حتى تم طردهم منها ، فنزلوا إلى كريت وافتتحوها . ونظرا لأهمية ثورة حى الربض ، وما ترتب عليها من نتائج خاصة بفتح كريت سنعرض لها عرضا مركزا .

لقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التى أدت إلى قيام هذه الثورة ، فهناك فريق منهم لا يرى سببا وجيها يدعو الناس للقيام بها ، مثل المؤرخ المغربى ابن عذارى الذى قال : «أن ذلك الهيج كان أصله الأشر والبطر . إذ لم يكن ثم ضرورة من اجحاف فى مال ، ولا انتهاك لحرمة ، ولا تعسف فى ملكة ، والحال تدل على صحة ذلك ، فأنه لم يكن على الناس وظائف ، ولا مغارم ، ولا سخر ولا شىء يكون سببا لخروجهم على السلطان ، بل كان ذلك أشرا ، وبطرا ، وملالا للعافية ، وطبعاً جافيا ، وعقلا غبيا ، وسعيا فى هلاك انفسهم» . (٣)

---

(١) انظر على سبيل المثال : ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ص ٧٦ — ٧٧ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ص ٧٣ — ٧٤ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٥ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، : ص ١٦ ، المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، جـ١ ، ص ٣١٨ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٣٥٣ .

(٢) تقع مدينة قرطبة العاصمة فى الجنوب الغربى من الاندلس ، بغربى نهر أشبيلية ، وهى مدينة حصينة يحوطها سور ضخم من الحجارة بة سبعة أبواب ، واشتهرت المدينة بكثرة مساجدها التى بلغت ألف وستمائة مسجد ، انظر القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٢٦ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ص ٧٥ — ٧٦ .

وثمة فريق آخر من المؤرخين ساق أسبابا عدة دعت سكان حي الربض بقرطبة إلى القيام بثورتهم هذه ، ومن هذا الفريق ، ابن القوطية ، والمقرى ، والمراكشي ، وابن الخطيب ، وابن الاثير ، وغيرهم . فقد كان الشعب القرطبي ناقما على الأمير طغيانه وصرامته وكبريائه ، وتشاغله باللهو والصيد والشراب ، وكان من بين أهل قرطبة كثير من المولدين (أى مسلمي الاسبان) الذين يبغضون السلطة الحاكمة ، لشعورهم بنقص فى مركزهم الاجتماعى وفى حقوقهم العامة ، كما كان الفقهاء من جانبهم يعملون على أذكاء سخط العامة على الأمير الحكم وبلاطه ، وكان السبب الحقيقي وراء تحريضهم ما أصاب نفوذهم من انكماش . ذلك أن الأمير هشام والد الحكم كان قد أحاط نفسه بالفقهاء المالكية ، واستسلم لهم ، فعظم شأنهم وتجاوزوا حدودهم . فلما تولى الحكم الامارة بعد أبيه ، حاول أن ينتزع منهم سلطانهم ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به فى عهد أبيه من نفوذ ، وأن يكف أيديهم عن التدخل فى شئون دولته ، فأنقلبوا عليه ، وسخطوا على تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم الروحى فى اثارة الرعية ، الذين زاد من سخطهم ما فرضه الحكم على المواد الغذائية من ضرائب مرهقة (١) .

وهكذا وجدت هوة عميقة من العداء بين أهل قرطبة وفقهائها وبين الحكم وأصبحت بين الفريقين وحشة أخذت تشتد على مر الأيام ، وكان العامة يجاهرون بذمة ، والخوض فى سيرته ويجتمعون فى المساجد ليلا لتجريحه

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٧٢ ، المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، المراكشي : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ١٩ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، ص ١٥ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٧٢ .

والتعريض به ، حتى بلغ بهم الأمر إلى القول «يا أيها المسرف المتمادى فى طغيانه المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك (١)» . وما إلى ذلك من ألفاظ القدح التى تدل على سخطهم واستيائهم وسار الغوغاء ينادونه عند انقضاء آذان الفجر «الصلاة يا مخمور الصلاة» (٢). وكانت النتيجة المتوقعة أن أتفق الفقهاء ووجهاء قرطبة على خلع الحكم ، ووقع اختيارهم على ابن عم له يدعى ابن الشماس لمبايعته بالامارة ، فأظهر الأخير استجابته لهم ، ثم أفشى سرهم ، فأبلغ الأمير الحكم بما اجتمعوا عليه ، وروى تفاصيل المؤامرة وأعطاه بيانا بأسمائهم ، وحين تأكد الأمير من ذلك أمر بالقبض على ستة من أعلام القوم المشاهير المشتركين فى هذه المؤامرة وصلبهم عند مدخل قصره ، فامتلأ جسر قرطبه بمظاهر السخط وبخاصة بعد أن أمر بقتل الثوار (٣) .

وفى هذا الجو المتوتر ، والبركان الذى يوشك أن ينفجر ، وقع حادث بسيط أشعل نيران الفتنة ، فقد قتل أحد مماليك الأمير غلاما من أفراد الشعب بسبب خلاف شخصى بينهما (٤) . فغلت نفوس الأهالى بالغضب وهرعوا الى السلاح ، وكان أشدهم تحفزا وهياجا أهل الربض الجنوبى من الضفة الأخرى من النهر ، وهى ضاحية قرطبة الجنوبية المسماه شقنده ، وكان هذا الربض مسكن العمال وأهل الأسواق . وزحفت جموع الثوار إلى القصر من كل ناحية وتأهب الحكم فى حرسه وغلمانه لردها ، ووقع القتال بين الطائفتين يوم

---

(١) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ص ١٧٢ .

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ص ٧٢-٧٣ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ٢٢ ، لوحة ١٥ (مخطوط مصور) .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٧٢ .

الأربعاء ١٣ رمضان ٢٠٢ هـ / ٢٥ مارس ٨١٨ م (١) فكانت الغلبة لأهل الربض ، وأحاطوا بالقصر ، فأرسل الأمير الحكم ابن عم له يدعى عبيد الله البلنسى ، ومعه الحاجب عبد الكريم ، فى قوة من الفرسان والمشاه ، وأتوا أهل الربض من وراء ظهورهم ، فأضرموا النيران فى الربض ، ونجحت هذه الوسيلة فى تفريق شمل الثوار ، إذ ما كادت النار تعلو حتى هرع الكثيرون منهم الى دورهم يحاولون اخمادها وإنقاذ نسائهم وأطفالهم . وعندئذ التف الجند حول الثوار من كل ناحية ، وأعملوا فيهم القتل حتى أفنوا عددا كبيرا منهم ،

---

(١) هناك اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ هذه الثورة ، فبعضهم وبخاصة المشارقة مثل المقريزى وابى المحاسن وابن الاثير قد ذكروا وقوعها فى رمضان عام ١٩٨ هـ/ مايو ٨١٤ م ، بينما ذكر المؤرخون المغاربة مثل ابن الابار وابن عذارى وابن سعيد ، تاريخا محددا لهذه الثورة هو يوم الاربعاء ١٣ رمضان ٢٠٢ هـ / ٢٥ مارس ٨١٨ م . وتبعا لذلك اختلف المؤرخون المحدثون ، فبعضهم مثل دوزى أيد تاريخ رمضان ١٩٨ هـ ، على حين أخذ البعض الآخر بتاريخ رمضان ٢٠٢ هـ ، ومن هذا الفريق ليفى بروفنسال والأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، والدكتور السيد عبد العزيز سالم .

ونحن نميل إلى الأخذ بالرواية الاندلسية التى تؤكد وقوع ثورة الربض فى رمضان عام ٢٠٢ هـ / مارس ٨١٨ م وذلك لقدمها واتفاقها وكونها اقرب إلى ميدان الحوادث واقرب إلى التحقيق ، فضلا عن أنها أكثر تمشيا مع التسلسل الزمنى لأحداث هذه الفترة من الزمن . انظر عن ذلك المصادر والمراجع التالية :

المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ ،

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ١٥٨ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ، ص ١٧٢
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٤٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٧٥ ،
ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٢ .

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, tome I, p. 296; La Revue de Byzantione, tome 8, pp. 1-20.

سعد زغلول عبد الحميد : الاسكندرية من الفتح العربى حتى العصر الفاطمى ، ص ٢٦٧ ،
السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ص ١٣٢ .

وأسروا خلقا جما(١) ، صلب منهم الحكم تجاه قصره على شاطىء النهر نحو ثلاثمائة «لم ير فيما سلف ممثلون أكثر منهم عددا ، ولا أهول منظرا» وذلك على حد تعبير المؤرخ ابن الابار (٢) .

وقد استمر القتل والنهب لمنازلهم ، كما استمرت مطاردتهم ثلاثة أيام ، ثم أمر الأمير الحكم بهدم الربض مصدر الفتنة ، فتم مسحه مسحا «فلم يعمر ، لا اختطت فيه دار الى آخر دولتهم» (٣) . ثم نودى بالأمان ، وأمر الثوار بالرحيل عن قرطبة وأنه لا أمان لمن تخلف منهم ، فتفرقوا فى الثغور والكور ، واستقرت جماعة منهم بطليطلة التى كانت تجاهد وقتذاك جهادا حارا من أجل الاستقلال واتجهت جماعة منهم الى فاس ، وأخرى الى الاسكندرية حيث شاركوا فى الاحداث التى وقعت بها آنذاك والتى انتهت بخروجهم منها الى جزيرة كريت فتم لهم فتحها واستيطانها (٤) .

كان هذا هو الرأى السائد بين غالبية المؤرخين ، وهو أن فاتحى كريت هم ثوار حى الربض بقرطبة . ولكن الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أثبت أن الأندلسيين الذين نزلوا بالاسكندرية ، ثم رحلوا منها إلى كريت ، ليسوا هم ثوار حى الربض . فقد وضح أن ثورة الربض وقعت فى عام ٢٠٢هـ

---

(١) الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس ، ص ١١ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٤ .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٤ .

(٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ص ٧٣ – ٧٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ، ص ٧٦ – ٧٧ ، ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٥ ، المقريزى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣١٨ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ١٦ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٨١٨ م) بينما نجد أن الأندلسيين فاتحى كريت قد شاركوا فى الأحداث التى وقعت بالاسكندرية فى عام ١٩٩ ﻫ (٨١٤ – ٨١٥ م) . ويرى الاستاذالدكتور سعد زغلول أن هؤلاء الأندلسيين من الغزاة البحريين (١) ، وذلك استنادا إلى ما ذكره المؤرخ المصرى الكندى ، الذى قال أنهم كانوا «قد قفلوا من غزوهم ، فنزلوا الاسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان (٢)» . ويفهم من ذلك أنهم غزاة بحريون وأن الغزو كان صناعتهم .

والواقع أن هذا الأمر ليس بغريب ، فقد تفوق العرب بالأندلس تفوقا عظيما فى فن البحر ، وذلك بسبب طبيعة بلادهم ، فهى بمثابة جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات ، وكانت الصلة الوحيدة بينها وبين باقى الأقطار الاسلامية تتم عن طريق السفر بالمراكب فى البحر . وقد امتاز سكان موانىء الساحل الشرقى والجنوبى الشرقى من الأندلس مثل مالقة والمريه ومرسيه وبلنسيه وبرشلونة ، بالمهارة البحرية ، وأتخذت جماعات كبيرة منهم مراكز ساحلية فى شرق الأندلس تمتد ما بين طرطوشة وبلنسية ، وكانوا يقومون منها بغارات على السواحل المجاورة (٣) . وكان من الطبيعى أن يوسعوا مجال غزواتهم البحرية هذه إلى شرقى البحر المتوسط خاصة وأن سواحله أصبحت كلها اسلامية يمكنهم الالتجاء إليها اذا ما دعت الضرورة الى ذلك ، ويفهم من نص أورده المؤرخ المسيحى المعاصر ساويرس ابن المقفع أنهم اتخذوا من الاسكندرية قاعدة لعملياتهم فى شرقى البحر المتوسط ، إذ قال : «دخل

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الاسكندرية منذ الفتح العربى حتى العصر الفاطمى ، ص٢٦٧ .

(٢) الكندى ، ولاة مصر ، ص ١٨٣ .

(٣) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ٢٢٩ .

الاسكندرية قوم ومعهم شيء كثير من جزاير الروم يسموا الاندلسين وأقاموا على هذه القضية بمصر إلى جزاير الروم ، ينهبوا ويجيبوا السبي إلى الاسكندرية ويبيعوهم كالعبيد (١)» .

ونحن نأخذ برأى الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، من أن الاندلسيين الذين نزلوا إلى الاسكندرية عام ١٩٩ (٨١٤ — ٨١٥ م) ، وشاركوا فى احداثها ، هم من الغزاة البحريين وليسوا من ثوار حى الربض بقرطبة ، ولكننا لا نستطيع فى نفس الوقت أغفال ما ردده المؤرخون المغاربة القدامى أنفسهم الذين حددوا تاريخ ثورة الربض بعام ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) من أن جماعة من الربضيين قد نزلوا بالاسكندرية بعد اخماد ثورتهم ، وشاركوا فى الاحداث الجارية بها ثم طردوا منها إلى كريت حيث تم لهم فتحها (٢) . وفى رأينا أن فريقا من هؤلاء الربضيين نزلوا فعلا بالاسكندرية بعد اخماد ثورتهم فى ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) وربما كان الدافع لهم على ذلك سقوط تلك المدينة فى أيدى أخوانهم الأندلسيين من الغزاة البحريين ، الذين سبقوهم اليها فى عام ١٩٩ هـ (٨١٤ — ٨١٥ م) إذ أن الثابت فى المصادر أن هؤلاء الغزاة البحريين قد تمكنوا من السيطرة على الأمور بالاسكندرية والاستقلال بها فى ذى الحجة ٣٠٠ هـ (يوليو ٨١٦ م) ، وحتى ربيع الأول ٢١٢ هـ (يونيو ٨٢٧ م) (٣) . وهكذا أصبح من اليسير على هؤلاء الربضيين أن ينزلوا بالاسكندرية وينضموا إلى اخوانهم ويشاركوا معهم فى الأحداث التى مرت

---

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ص ٢٤٩ .

(٢) ابن الابار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٥ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ص ٤٢ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ١٦ .

(٣) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٨ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ص ٢١٥ - ٢٧٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

بها المدينة آنذاك . وعلى هذا يمكن القول أن الأندلسيين فاتحى كريت كانوا خليطا من الغزاة البحريين الأندلسيين وثوار حى الربض بقرطبة . وسنعرض فيما يلى للأحداث التى وقعت بالاسكندرية منذ عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م وكيفية مشاركة الأندلسيين فيها حتى رحيلهم إلى كريت وفتحهم لها ، ضمانا لتسلسل الأحداث وترابطها .

فى شتاء عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م عاد الأندلسيون من أحدى غزواتهم البحرية ورسوا بمراكبهم على شاطىء الاسكندرية (١) إنتظارا لأنتهاء موسم الشتاء ثم يعاودون استئناف نشاطهم البحرى من جديد ، ويذكر بعض المؤرخين أن عددهم كان خمسة عشر ألفا (٢) . وذكر البعض الآخر أنهم كانوا حوالى عشرة آلاف (٣) ، أما اليعقوبى فقد حدد عددهم بأربعة آلاف رجل (٤) . ويذكر الكندى أنهم أتوا فى أربعين مركبا (٥) ، ويقول الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد «أنه لو قدرنا أن متوسط شحنة المركب من الرجال بلغت حوالى المائة أو أكثر قليلا لبلغ عددهم حوالى أربعة أو خمسة آلاف رجل» (٦) . ويؤيده فى ذلك الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم (٧) . وبذلك يكون ما ذكره اليعقوبى أقرب إلى الصحة والصواب .

---

(١) ذكر المقريزى أنهم كانوا يرسون بالذات فى منطقة الرمل ، انظر ، المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ٢٧٨ .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٧٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ٢٧٨ .

(٤) اليعقوبى : التاريخ ، ص ٤٤٦ .

(٥) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ .

(٦) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الاسكندرية ، ص ص ٢٦٨ – ٢٦٩ .

(٧) عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ١٣٤ .

ويروى الكندى أن أمراء مصر كانوا لا يسمحون لهؤلاء الغزاة من الاندلسيين بدخول المدينة ، وإنما كان الناس يخرجون اليهم للمتاجرة: وكانت الأمراء لا تمكنهم من دخول الاسكندرية ، إنما كان الناس يخرجون اليهم فيبايعونهم» (١) . ولكن حالة الفوضى والاضطراب التى كانت تعانى منها الاسكندرية فى ذلك الوقت ، دفعت الاندلسيين إلى التدخل فى شئونها هذه المرة ، ومحاولة فرض سيطرتهم عليها ، والواقع أن هذه الفوضى التى تعرضت لها مدينة الاسكندرية كانت صدى وانعكاسا لأحوال مصر كلها ، وكانت مصر قد عرفت الاضطرابات والثورات المحلية منذ أيام الخلافة الأموية (٤١- ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) (٢) وكانت هذه الثورات تأتى من جانب القبط دافعى الضرائب ، فأنزل عامل خراج مصر فى عصر الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (شوال ١٠٥ - ربيع ثانى ١٢٥ هـ / مارس ٧٢٣ فبراير ٧٤٣م) ويدعى عبيد الله بن الحبحاب ، بيوتا من قيس وقبائل اليمانية فى الحوف الشرقى (مديرية الشرقية حاليا) فى عام ١٠٩ هـ (٨٢٧ - ٨٢٨ م) وأمرهم بالاشتغال بالزراعة حتى يحلوا تدريجيا محل قبط الحوف الدائمى الثورات (٣) . ولكن رغم ذلك فلم يحل الهدوء بهذا الموضع ، وظل مصدرا للاضطرابات ، حتى جاء الخلاف بين الأمين والمأمون فأضاف أسبابا جديدة لعدم الاستقرار . وكان هذا الخلاف بسبب نظام ولاية العهد ، إذ كان الخليفة العباسى هارون الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لولديه الأمين والمأمون ، على أن يلى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ، ويتقلد المأمون حكم البلاد الواقعة من همذان

---

(١) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ، ص ٤٢ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ، انظر أيضا ، كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ص ١٣٦ - ١٣٧ .

إلى المشرق ، وألا يكون للأمين سلطان على أخيه (١) . لكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة فى ٨٠٩ م (١٩٣ هـ) ميله إلى الاستئثار بملك العباسيين جميعه وعدم رغبته فى تنفيذ عهد الرشيد ، فخلع أخيه المأمون من ولاية العهد وبايع لأبنه موسى ، ولهذا قامت الحرب بين الأمين والمأمون (٢) وكانت فترة النزاع بينهما عهد توتر وقلق فى جميع أنحاء الدولة العباسية ، وقد عمت الفوضى مصر أيضا ، فتحزب فريق من أهاليها للأمين ، وتحزب فريق آخر للمأمون ، ولم ينته هذا الاضطراب بمقتل الأمين وانفراد المأمون بالخلافة ، بل تطور الأمر فى مصر إلى صراع بين بعض القادة للاستئثار بالسلطة فيها والاستقلال بأمورها عن الخلافة العباسية (٣) .

ويرسم المؤرخ المسيحى المعاصر ساويرس بن المقفع صورة مصغرة ولكنها شاملة للاضطراب السائد فى مصر آنذاك فيقول (٤) : «واستطال البوار على مصر وجميع أعمالها ، بحكم اضطراب مملكة بغداد ، وخرجوا الخوارج على المملكة بمصر ، وجبوا الخراج لنفوسهم ، وكان من جملتهم رجل يسمى عبد العزيز الجروى ، أخذ من شطنوف إلى الفرما ، وشرقية مصر بلبيس

---

(١) انظر التفاصيل فى المصدرين التاليين :
الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ص ٥٣ ، ٦٩ – ٧٠ ، ٧٣
أبن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ص ٨١ ، ١٠٥ – ١٠٦ ، ١٠٩–١١٠

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ١٢٤ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٣١ – ٢٣٢ .

(٣) بشأن تفاصيل الصراع فى مصر أثناء النزاع بين الأمين والمأمون انظر ، الطبرى ، نفس المصدر جـ ١٠ مواضع متفرقة من الكتاب ، الكندى : ولاة مصر ، ص ص ١٧٢ – ٢٠٥ ، راجع كذلك ، كاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، ص ص ١٥٩ – ١٦٦ .

(٤) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ص ٢٤٨ .

وأعمالها ورجل اسمه السرى بن الحكم (١) ، أخذ من مصر إلى أسوان ، واستولوا (استولى) على الخراج . وقوم يسموا لخم وجذام ، قبيلتين أخذوا غربى مصر وأعمال الاسكندرية ومريوط وملكوا البحيرة جميعها . وكانت هذه (هاتين) القبيلتين فى أكثر الأوقات متحاربين (متحاربتين) وينهب بعضهم بعضا وكان على البلاد منهما بلاء عظيم» .

ولما تولى أمور مصر المطلب بن عبد الله الخزاعى (٢) من قبل المأمون فى سنة ١٩٨ هـ (أول سبتمبر ٨١٣ — ٢١ أغسطس ٨١٤ م) ، أراد أن يضبط الاسكندرية عن طريق اسناد ولايتها إلى رجل حازم له من الحسب والنسب ما يجعل المنشقين من أهلها يخضعون لسلطته ، فعهد بأمرها إلى واحد من أسرة معاوية بن حديج (٣) ، وهو حديج بن عبد الواحد ، لكن قبائل بنى مدلج بالاسكندرية ثارت ، ولما سير اليهم الوالى أخاه هارون أنزلوا به الهزيمة (٤) .

---

(١) هو السرى بن الحكم بن يوسف بن المقوم ، مولى من بنى ضبه ، وأصله من مدينة بلخ . ويذكر المؤرخ ابن تغرى بردى أن السرى من قوم يقال لهم الزط وقيل أنهم جنس من السودان أو الهنود . وقد ولى امارة مصر بأجماع الجند والأهالى فى مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠ هـ/ ابريل ٨١٦ م . أنظر عن ذلك : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ١٦٥ .

(٢) هو المطلب بن عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعى ، وكان بمدينة مكة المكرمة حين عينه المأمون واليا على مصر ، التى قدم إليها فى النصف الثانى من شهر ربيع الاول سنة ١٩٨ هـ/ نوفمبر ٨١٣ م . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ١٥٧ .

(٣) يعتبر معاوية بن حديج من الشخصيات الاسلامية البارزة التى ناصرت معاوية بن ابى سفيان ، فى اثناء النضال الذى تلا مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وقد كافأه الخليفة معاوية بن ابى سفيان بأن عهد إليه بفتح شمال افريقية وتولى امارة مايفتحه من هذه البلاد ، وخرج لتنفيذ عملية الفتح فى عام ٤٥ هـ/ ٦٦٥ — ٦٦٦ م ، ونجح فى فتح بعض البلاد هناك ثم عاد إلى مصر فى أوائل عام ٤٧ هـ/ ٦٦٧ م . أنظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ١٩٣ (طبعة ليدن ١٩٢٠) ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١١ .
كيدرينوس : جـ ٢ ، ص ١٨٠ . باليونانية .

(٤) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٧٩.

وحين ولى المطلب بن عبد الله الخزاعى ولايته الثانية على مصر بأجماع الجند سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م) (١) ، سند الولاية على الاسكندرية إلى شخص يدعى محمد بن هبيرة بن هاشم بن حديج ، الذى استخلف عليها عمر بن عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، ويعرف باسم عمر بن ملال (٢) . فوليها لمده ثلاثة أشهر ، ثم عزله المطلب وولى عليها أخاه الفضل بن عبد الله بن مالك (٣) . و كان ذلك سببا فى حقد عمر بن ملال على المطلب فعقد الأول تحالفا مع عبد العزيز الجروى (٤) ، الذى حرض عمر على الوثوب على الاسكندرية واخراج الفضل منها ، والدعاء للجروى بها (٥) .

وقد وجد عمر بن ملال أنه لا يستطيع القيام بهذا العمل وحده ، ورأى أن يستعين فى تنفيذه بالاندلسيين الذين كانوا يرسون بمراكبهم فى مياه الاسكندرية انتظارا لانهاء موسم الشتاء ، فدعاهم لمساعدته ، فلبوا الدعوة ، وعن طريق مساعدتهم نجح فى اخراج الفضل من الاسكندرية ودعا فيها لعبد العزيز الجروى . غير أن أهالى الاسكندرية ساءهم تدخل الاندلسيين فى شئون مدينتهم

---

(١) كان الخليفة المأمون قد عزله عن ولاية مصر ، ولكن جند الفسطاط أعادوه إلى الولاية. انظر ، الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

(٢) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ .
هذا ويذكره المقريزى باسم عمر بن ملاك ، انظر ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٨ . بينما يذكره ساويرس بن المقفع باسم عمر بن مالك ، انظر ، سير الأباء البطاركة ص ٢٤٩ .

(٣) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ .

(٤) كان عبد العزيز الجروى وقتذاك متغلبا على ثغر تنيس المتاخم لدمياط ، وكان يطمع فى ولاية الفسطاط والاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية ، وقد نجح فى هزيمة جند الوالى المطلب بن عبد الله فى معركه نيلية عند شطنوف وأسر قائده السرى بن الحكم وأعتقله . انظر عن ذلك ، الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٩ . راجع أيضا ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الاسكندرية ص ٢٦٩ .

(٥) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ ، المقريزى : الخطط ، ص ٢٧٨ .

فثاروا واشتبكوا معهم فى معركة انتهت بهزيمة الاندلسيين وانسحابهم إلى مراكبهم بعد أن قتل السكندريين منهم بعض الافراد ، وأعادوا الفضل إلى منصبه . (١)

لكن المطلب سرعان ما عزل أخاه الفضل ، واسند ولاية الاسكندرية إلى اسحق بن ابرهه بن الصباح ، فتحركت أطماع ابن ملال من جديد ، وخرج لمقاتلته فى شهر رمضان ١٩٩ هـ / مايو ٨١٥ م ، وتجنبا للقتال . عزل المطلب اسحق بن ابرهه ، وولى على الاسكندرية ابى بكر بن جناده بن عيسى المعافرى.

والواقع أن هذه الأحوال القلقة ، كانت صدى للأحوال المضطربة للعاصمة الفسطاط ، وقد تم التحالف بين الجروى المتغلب على تنيس، والسرى بن الحكم الذى كان معتقلا عنده ، ضد والى الفسطاط المطلب بن عبد الله الخزاعى ، ونجح السرى فى اجتذاب الجند إلى صفه ، وانتهى الأمر بخروج المطلب من مصر إلى الحجاز ، وأصبح السرى واليا للفسطاط بأجماع الجند ، وذلك فى رمضان ٢٠٠ هـ / أبريل ٨١٦ م ، أما عبد العزيز الجروى فظل متغلبا على تنيس (٣) . وعندئذ وجد ابن ملال أن الظروف مواتية للتغلب على الاسكندرية من جديد ، فهاجم واليها ابا بكر بن جناده المعافرى ، وأخرجه منها ، ودعا للجروى بها ، وبذلك تهيأ للاندلسيين المجال للنزول بأرض الاسكندرية ، والاقامة فى برها بعد أن تولى مقاليد الأمور فيها حليفهم ابن ملال (٤) . لكن الاندلسيين بحكم طبيعتهم الجافية كرجال بحر وغزاة احتكوا

---

(١) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ٢٧٩ .
(٢) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ٢٧٩ .
(٣) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٦ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .
(٤) الكندى : ولاة مصر ؛ ص ١٨٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

بأهـــل الاسكندرية وأفسدوا فيها ، وكان ابن مـــلال يسعى إلى التقرب للسكندريين وارضائهم بغية الابقاء على ولايته عليهم ، فأمر بإخراج الاندلسيين وردهم إلى مراكبهم ، ولم يتقبل الاندلسيون هذا الاجراء منه ، فأسروها له ، وتربصوا به انتظارا لفرصة مواتية يتاح لهم فيها الانتقام منه (١) .

وفى ذلك الوقت من عام ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) ظهرت بالاسكندرية طائفة الصوفية (٢) التى يأمر أصحابها «بالمعروف – فيما زعموا – ويعارضون السلطان فى أمره (٣)» . وكان زعيم هذه الطائفة يدعى ابو عبد الرحمن الصوفى، وقد حدثت بعض العداوات الشخصية بينه وبين عمر بن ملال وهكذا جمع الحقد على والى الاسكندرية بين زعيم الصوفية والأندلسيين فى آن واحد ، وصاروا يدا واحدة ، كما نجحوا فى ضم قبيلة لخم اليهم «وكانت لخم أعز من فى الاسكندرية» (٤) ، وكان لافرادها اطماعهم فيها ، وقد سبق لهم أن تغلبوا عليها فى عام ١٩٦ هـ(٨١١–٨١٢م)بقيادة زعيمهم بهلول اللخمى(٥)

وقد بلغت اعداد المتحالفين نحو عشرة آلاف رجل وساروا يريدون ابن ملال ، وحاصروا قصره فى ذى القعدة ٢٠٠ هـ / يوليو ٨١٦ م فخشى أن يقتحموا عليه القصر عنوة ، فتملكته روح الشجاعة والتضحية ، فأغتسل وتحنط وتكفن وأمر أهله أن يدلوه إلى الثائرين ، وكان من الممكن أن يثير

(١) الكندى : نفس المصدر ، ص ٥٨٦ المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

(٢) يذكر المؤرخ متزان أول ظهور الطوائف الصوفية كان فى مصر مهد الرهبنة المسيحية ، وقد ظهرت هذه الطوائف لأول مرة فى عام ٢٠٠ هـ / ٨١٦ م ، انظر ، متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٤ .

(٣) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

(٤) الكندى ، نفس المصدر ، ص ١٨٧ ، المقريزى : نفس المصدر ، ص ٢٧٩ .

(٥) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٧٩ .

هذا المنظر الشفقة فى قلوبهم ، ولكن على العكس من ذلك ، فلم يكد يقترب من الارض حتى تلقفته سيوفهم ، ولم يهدأوا ويرفعوا الحصار عن القصر إلا بعد أن فتكوا بأربعة رجال من كبار عائلته (١) .

ولكن الحلف بين الاندلسيين واللخميين لم يدم طويلا ، فسرعان ما نشب الخلاف بينهم وتطور إلى حرب سافرة ، وجرت معركة بينهما انتهت بهزيمة اللخميين وانتصار الاندلسيين ، الذين استولوا على الاسكندرية عنوة فى ذى الحجة ٢٠٠ هـ / يوليو ٨١٦ م . وقد أظهروا عدم رغبتهم فى حكمها فأوكلوا هذه المهمة إلى زعيم الصوفية ابى عبد الرحمن الصوفى (٢) . الذى لم يكن لديه أى إلمام بأمور الحكم فعم الفساد أرجاء المدينة ، كما تعرض الأهالى بها للنهب والسلب . فعزله الاندلسيون واسندوا ولايتها إلى زعيمهم ابى حفص عمر بن عيسى (٣) . ولم يرض بنو مدلج — المقيمون حول الاسكندرية — بتفرد الاندلسيين بأمور المدينة فأشتبكوا معهم فى القتال . ولما رأى أهل الاسكندرية ما حدث بين الفريقين ، ثاروا وقتلوا من الاندلسيين نحو ثمانين

---

(١) الكندى : ولاة مصر ، ص ص ١٨٧ — ١٨٨ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ ، ساويرس بن المقفع سير الآباء البطاركة ، ص ٢٤٩ .

(٢) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ ، ساويرس بن المقفع ، نفس المصدر ، ص ٢٤٩ .

(٣) هو أحد زعماء ثورة الربض ، وقد قاد الربضيين الذين طردهم الأمير الأموى الحكم إلى الاسكندرية ، ثم قادهم إلى كريت حيث تم لهم فتحها ، وبعدها لقب بالاقريطشى نسبة إلى اقريطش (كريت) . وقد تولى ابو حفص حكم الجزيرة ، فكان بذلك أول حاكم لأمارة كريت الاسلامية . انظر ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٤٥ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٥٣ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ (طبعة بيروت) راجع كذلك :
The Encyclopedia of Islam, vol I, London 1913, p. 87.

نفسا ، وحين علم الاندلسيون بذلك — بعد انتصارهم على اللخميين—امتلأوا غيظا « كالأسد الضارية لشجاعتهم ، فجردوا سيوفهم ، وخرجوا فى المدينة مغضبين وقتلوا من لقيوه من أهل البلد من المسلمين والنصارى واليهود ، وأى موضع وجدوا فيه أحد من اصحابهم المقتولين أحرقوه بالنار (١)»وأصبح الاندلسيون هم سادة الاسكندرية .

وحين علم الجروى بما حدث لحليفه ابن ملال وما فعـــله الاندلسيون بالاسكندرية خرج لحصارهم بها ، وقد استمر الصراع قائما بين الطرفين حتى وفاة الجروى فى صفر ٢٠٥ هـ / يوليو ٨٢٠ م ، وبذلك تخلص الاندلسيون من مضايقاته لهم ، وظلوا متغلبين على الاسكندرية . وفى تلك الاثناء كان الخليفة المأمون قد نجح فى اقرار الأمور فى المشرق ، ثم وجه جهوده للقضاء على الاضطراب المتفشى فى مصر ، فأرسل إليه قائده عبد الله بن طاهر (٢) الذى تمكن من السيطرة عليها فى عام ٢١١ هـ (٨٢٦ — ٨٢٧ م) (٣) . وكان من الطبيعى أن يوجه عبد الله بن طاهر جهوده بعد ذلك لتخليص الاسكندرية

(١) ساويرس بن المقفع : سير الأباء البطاركة ، ص ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ، الكندى : ولاة مصر ص ١٨٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٢) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، ولد سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م وتأدب فى صغره وقرأ العلم والفقه ، وكان بارع الأدب ، حسن الشعر . كان أميرا على خراسان وأعمال المشرق ، ثم ولاه الخليفة المأمون ولاية مصر على الصلاة والخراج معا بعد عزل عبيد الله بن السرى ، ودخل ابن طاهر مصر فى شهر ربيع الأول ٢١١ هـ / يونيو ٨٢٦ م ، ثم صرفه المأمون عن ولاية مصر فى عام ٢١٣ هـ / ٨٢٨ — ٨٢٩ م وولاها لأخيه المعتصم محمد بن محمد بن هارون الرشيد ، انظر ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة جـ ٢ ، ص ص ١٩١ — ١٩٢ ، ص ٢٠٤ .

(٣) الكندى : ولاة مصر ، ص ص ١٨٩ — ١٩٦ ، اليعقوبى : التاريخ جـ ٢ ، ٤٦٠ — ٤٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ص ١٩١ — ١٩٢ ، المقريزى الخطط ، جـ ١ ، ص ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢١٠ .

من تغلب الاندلسيين عليها ، فوجه إليها قواته فى مستهل شهر صفر ٢١٢هـ/ مايو ٨٢٧ م ، ثم لحق بهم فى ربيع الأول ٢١٢ هـ / يونيو ٨٢٧ م ، وفرض الحصار عليها لمدة أسبوعين ، فطلب الاندلسيون الصلح ، وأجابهم اليه ، بشروط هى ، أن يخرجوا من الاسكندرية إلى حيث أرادوا على ألا ينزلوا بلدا تابعا للخلافة العباسية ، وألا يصحبوا معهم فى مراكبهم أحدا من المصريين ولا عبدا ، ولا أحدا من الأشخاص المطلوبين ، فأن أخلوا بواحد من هذه الشروط حلت له دماؤهم ونكث عهدهم . ورغم اخلالهم ببعض هذه الشروط إلا أنه عفا عنهم وتركهم يغادرون الاسكندرية ، فرحلوا عنها فى النصف الثانى من ربيع الأول ٢١٢ هـ / النصف الثانى من يونيو ٨٢٧ م . (١)

الفتح الاسلامى لكريت :

بعد أن رحل الاندلسيون عن مدينة الاسكندرية ، توجهوا إلى جزيرة كريت — التابعة للدولة البيزنطية — ونزلوا بها . والواقع أن هذا الاختيار لم يكن وليد الصدفة ، إد كانوا على معرفة سابقة بتلك الجزيرة وغيرها من الجزر اليونانية الأخرى التى طالما تعرضت لغاراتهم ، وكانت آخر غارة قاموا بها على جزيرة كريت فى عام ٨٢٦ م / ٢١١ هـ حين أرسل الاندلسيون من الاسكندرية عدة سفن اغارت عليها ، وعادت محملة بكثير من الأسرى والغنائم بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة . (٢)

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦ ، اليعقوبى : التاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٦١ ، ساويرس بن المقفع ، سير الأباء البطاركة ص ٢٦٥ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ، ص ٣١٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ١٩٢ ، ابن خلدون العبر ، جـ ٣ ص ٢٥٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ .

(٢) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ص ٢٤٩ . انظر كذلك المرجعين التاليين : فازيلييف : العرب والروم ، ص ٥٥ ، العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، ص ١٠٧ .

وأول ما يصادف الباحث فى هذا الموضوع ، هو مشكلة تحديد تاريخ الفتح الاسلامى لكريت ، فأن غالبية المصادر البيزنطية (١) لم تحدد تاريخا معينا تم فيه هذا الفتح ، وانما ذكرت أنه تم أثناء انشغال الامبراطور ميخائيل الثانى بالقضاء على ثورة توماس الصقلبي (٢) . والمعروف أن هذه الثورة استغرقت الفترة الواقعة بين عام ٨٢١ م وحتى عام ٨٢٣ م / ٢٠٥ – ٢٠٨ هـ . واستنادا إلى هذه المصادر فأن الفتح الاسلامى لكريت يقع فى وقت ما خلال السنوات السالفه الذكر . أما المؤرخ البيزنطى جينيزيوس (٣) فقد ذكر أن هذا الفتح تم فى السنة التى انتهى فيها عصيان توماس ، أى فى عام ٨٢٣ م / ٢٠٨ هـ . وتبعا لهذا الاختلاف فى المصادر البيزنطية ، اختلف أيضا المؤرخون المحدثون فأن بعضهم مثل المؤرخ الانجليزى فنلاى Finlay ، والمؤرخ الايطالى امارى Amari ، سلموا بما رواه جينيزيوس ، وبالتالى جعلوا تاريخ الفتح الاسلامى لكريت فى عام ٨٢٣ م (٤) . أما المؤرخ الفرنسى شلومبرجيه Schlumberger ، فقد حدد تاريخ الفتح بعام ٨٢٤ م/ ٢٠٩هـ (٥).على حين

---

(١) انظر على سبيل المثال المصادر التالية :

Monachus, Vitae Recentiorum Imperatorum, p. 787; Constantin Porphyrogenetus, De Administrando Imperio, ch. 22, p. 104; Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 73-74; Symeon Magistri, Annales, p. 758; Zonaras, Epitomae Historearum, Liber XV, pp. 347-348.

(٢) انظر تفصيل هذه الثورة ونتائجها فى نفس هذا الفصل من البحث ص ص ٧٤-٩١.

(3) Genesius, Basileiai, p. 46.

(4) Finlay, History of Greece, vol 11, p 135; Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, vol I, p. 163.

(5) Schlumberger, Recits de Byzance et des Croisades, p. 13.

ذكر المؤرخان الفرنسيان ديل ومارسيه Deihl et Marcais ، أن الفتح الاسلامى لكريت تم فى عام ٨٢٥ م / ٢١٠ هـ (١) .

على أننا نميل إلى الأخذ بما جاء فى المصادر العربية التى حددت تاريخ الفتح الاسلامى لكريت بشهر ربيع الأول عام ٢١٢ هـ / يونيه ٨٢٧ م . (٢) حيث أن هذه المصادر قد تتبعت أخبار الاندلسيين بدقة خلال الفترة الزمنية التى قضوها بالاسكندرية حتى خروجهم منها إلى كريت — وهى المعلومات التى أغفلها المؤرخون البيزنطيون أغفالا تاما ولم يشيروا اليها بكلمة واحدة — كما أن بعض هؤلاء المؤرخين المسلمين أمثال الطبرى ، كان معاصرا لهذه الاحداث ، ومن ثمة فأن التاريخ الذى حدده أقرب إلى التحقيق .

وتذكر المصادر البيزنطية أن الاندلسيين قدموا إلى كريت تحت قيادة زعيمهم الذى أطلقت عليه هذه المصادر اسم ابو خبص (Apochaps) ، وهو ابو حفص عمر بن عيسى (٣) ، ونزلوا على الشاطىء الشمالى للجزيرة عند موضع ذكره كيدرينوس باسم «خراكس» (٤) ، وتذكر هذه المصادر ، أنه ما كاد الفاتحون المسلمون يبتعدون قليلا عن الشاطىء حتى أمر ابو حفص باحراق السفن التى نقلتهم إلى كريت ، وقد غضب الاندلسيون لذلك أشد

---

(1) Diehl et Marcais, Le monde oriental de 395 à 1081, Paris 1944, p. 310.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، اليعقوبى : التاريخ ، جـ ٢ ص ٤٦١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٢ ، ص ١٩٢ ، ابن خلدون : العبر جـ ٣ ، ص ٢٥٣ .

(٣) انظر ص ٦٢ من هذا الفصل حاشية رقم (٣).

(٤) انظر كتاب كيدرينوس المسمى «موجز التاريخ» وهو باليونانية ، ص ٩٢ .

الغضب ، وتملكهم الخوف على نسائهم وأطفالهم ، فهدأهم ابو حفص وامتدح لهم غنى الجزيرة وجمال الكريتيات وصلاحيتهن للزواج (١) .

ويفهم من هذه الرواية حرص هذا القائد على اجبار أتباعه على الاستقرار فى الجزيرة والاستماتة فى فتحها والدفاع عنها ، غير أنه من الصعب التسليم بها ، خاصة وأن عددا غير قليل من هؤلاء الفاتحين من الغزاة البحريين ، الذين لا يستطيعون بحال من الأحوال الاستغناء عن مراكبهم ، كما أنه كان أمامهم مهمة عسيرة تتعلق بمواصلة فتح باقى الجزيرة ، وكذلك غزو الجزر المجاورة لضمان أمنهم فى مقرهم الجديد . ويبدو أن هذه الرواية قد لعب فيها الخيال دورا كبيرا ، والارجح هو ما ذكره المؤرخ الايطالى أمارى ، من أن ما أمر القائد المسلم باحراقه كان السفن غير الصالحة للاستعمال فقط وليست جميع السفن (٢) ، ومن هنا التبس الأمر على المؤرخين البيزنطيين .

ويفهم من نص أورده المؤرخ البلاذرى أن الاندلسيين افتتحوا حصنا واحدا فى بادىء الأمر (٣) ، ويبدو أنهم كانوا يخشون من قيام أهالى الجزيرة بمحاربتهم فى ذلك الحصن ، فأقاموا به تحصينات منيعة ، وحفروا حوله خندقا عظيما ، ومن هنا أتخذ هذا الحصن اسم الخندق (٤) ، ولكن على عكس ما

---

(١) انظر المصدر السابق الجزء الثانى ، ص ٩٢ ، وانظر كذلك :

Genesius, op. cit., p. 46—47; Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 75—76.

(2) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, vol I, PP. 163 — 164.

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٤٥ .

(٤) ذكرها المؤرخ البيزنطى جنيزيوس باسم خندقس Chandax ، بينما ذكرها صاحب صلة ثيوفان باسم قندقس Candax انظر ،

Genesius, op cit, Liber 11, p 47; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 76.

توقعوا ، فأنهم لم يلقوا مقاومة تذكر ، لا من جانب السلطات البيزنطية بالجزيرة ، ولا من جانب الأهالى . والباحث المدقق يرجح أن ذلك يرجع لعاملين ، الأول هو بغض الأهالى للحكم البيزنطى نتيجة لسوء معاملة السلطات لهم وتدخلها فى شئونهم الدينية . والثانى هو ثورة توماس الصقلبى وما أدت إليه من خراب الولايات التابعة للامبراطورية ، وتدهور تـام فى البحرية البيزنطية أعجزها عن مواجهة الفتح الاسلامى للجزيرة .

وبخصوص العامل الأول يمكن القول انه سيطرت على الحياة الاجتماعية فى الدولة البيزنطية الروح الدينية المشبعة بالأوهام والخرافات ، فضلا عن الاعتقاد فى المعجزات والتنبؤات وإنتشار الأناشيد الدينية ، ولم يهتم النـاس بالقيام شخصيا بأعمال إيجابية لتحسين أحوالهم نظرا لتأثرهم بفلسفة المسيحية التى كانت تدعو إلى التفكير فى العالم الآخر واعتبار الحياة الدنيا فترة زائلة لا قيمة لها ، ومن ثمة كان الفرد يتقبل كل شىء دون فهم أو إدراك أومناقشة وخضع لآراء الكنيسة خضوعا أعمى . (١) وقد أخذ الناس ينظرون إلى رجال الدين — الأحياء منهم والأموات — نظرة ملؤها الاحترام والتبجيل، يلتمسون منهم البركات ويحج إلى مشاهدهم أصحاب الحاجات ، ثم يعودون بأثر من آثارهم أو رسم من رسومهم ليكون الملاك الحارس والأب الروحى لهم ولذويهم وقد تبوأت صورة السيد المسيح والسيدة العذراء المكانة المرموقة بالقسطنطينية أمامها سجد الناس يستلهمون النصر ودفع المكروه ، ومنها التمسوا البركة والشفاء وقضاء الحاجات ، كما اعتقدوا أن هذه الصور تحرس المنازل ، وتحمى المتاجر ، ثم ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، اذ جرى تفسيرهم للحوادث

(١) انظر المقدمة التى كتبها الدكتور جوزيف نسيم فى ترجمته العربية لكتاب كولتون ، عالم العصور الوسطى ، الطبعة الثانية ، ص ١٧ .

التاريخية على ضوء معتقداتهم هذه ، فأعتبروا – مثلا – أن انتصار الامبراطور هرقل على الفرس يرجع أولا وأخيرا إلى أنه كان يحمل صورة العذراء أثناء القتال ، ، ولم يعيروا الاسباب الحقيقية كمهارته وشجاعته وقوة الجيش البيزنطى وقتها ، وغير ذلك من الأسباب أى التفات (١) .

وقد امتلأت الكنائس والاديرة بالصورة المقدسة (الايقونات) كما جرى تعليقها فى المنازل والحوانيت وطرزت على الملابس ، ونقشت على الكتب والأثاث وسائر الأدوات ، كما نحتوا لهذه الصورة تماثيل أقاموها فى الميادين العامة وعلى أسوار القصر الامبراطورى . وقد أخذ الناس يسجدون لها ويضيئون المشاعل والشموع من حولها ، ويزينونها بالأشرطة ، ويحرقون لها البخور ويقبلونها بأخلاص وخشوع (٢) .

حقيقة أن رجال الدين أوضحوا فى بادىء الأمر أن الايقونات ماهى إلا صور للقديسين ، غير أن العامة مالبثوا أن نسوا ذلك وركزوا اهتمامهم المباشر للايقونات ، التى بدت لهم كأشخاص واقعيين بصرف النظر عما كانت ترمز إليه. والتاريخ البيزنطى ملىء بالأساطير الدينية عن الايقونات التى تتكلم وتتحرك .(٣)

وقد لفت هذا التدهور فى العقيدة المسيحية ، انتباه كثير من المسيحيين المؤمنين فأظهروا سخطهم على هذه البدعة منذ وقت مبكر ، وقد أخذت حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة تزداد قوة ، حتى بلغت ذروتها فى عصر

(١) طوقان : الحركة اللا ايقونية ، ص ص ٤–٥ ، العرينى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ١٥٩ – ١٦٠ .

(2) Oman : The Byzartine Empiıc, p. 191.

(٣) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ٨٤ – ٨٥ .

الامبراطور ليو الثالث الايسورى(٧١٧ — ٧٤١ م) وكذلك فى عصر خليفته قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥ م) ، فتعرض عباد الصور المقدسة لمختلف أنواع القسوة والاضطهاد ، وجرى تعذيبهم وكى جباههم وسمل عيونهم ، وتقطيع أوصالهم والتشهير بهم ونفيهم إلى الأماكن النائية وغير ذلك من مظاهر العنف (١) .

وقد تركزت عبادة الايقونات بصفة خاصة فى البلاد والجزر اليونانية ، والاقاليم الاوروبية من الامبراطورية ، وتمسك الاهالى بهذه العبادة ، تمسكاً شديداً ، اما الاقاليم الاسيوية فقد كانت ضد هذه العباده ، ويرجع ذلك على الارجح الى تأثر هذه المناطق بالديانات السماوية كاليهودية والاسلام (٢) .

ومن الأمثلة التى يشار اليها للتدليل على تمسك البلاد والجزر اليونانية بتلك العبادة ، ما حدث فى عام ٧٢٦ م ، حين أمر الامبراطور ليو الثالث الايسورى — اثناء الحملة العنيفة التى قادها ضد عبادة الصور المقدسة — بتحطيم تمثال السيد المسيح ، الموجود بأعلى أفخم مدخل للقصر الامبراطورى ، وكان هذا التمثال موضع تبجيل واحترام الجماهير ، وقد أدى هذا الاجراء إلى ثورة عنيفة فى القسطنطينية ، ولقى حتفه أثناءها مندوب الامبراطور الذى نفذ هذا الأمر وحطم التمثال . وعندما وصلت هذه الانباء إلى البلاد والجزر اليونانية قام فيها تمرد خطير ترتب عليه أن عساكر ثيم الهيلاس (بلاد اليونان) نصبوا من قبلهم امبراطورا وأرسلوا أسطولا لمهاجمة القسطنطينية (٣) .

(1) Ostrogorsky, op. ci,t, p. 148.

(2) Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantine, p. 257; Ostrogorsky, op. cit., p. 143.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 144, Vasiliev, op. cit., p. 258.

حقيقة أنه فى الوقت الذى تم فيه الفتح الاسلامى لجزيرة كريت فى ٨٢٧م /٢١٢ هـ كانت الاضطهادات ضد عباد الصور المقدسة قد توقفت ، إلا أن الامبراطور الجالس على العرش آنذاك وهو ميخائيل الثانى العمورى (٨٢٠– ٨٢٩ م) لم يعترف بعبادة الصور المقدسة ولم يشجعها ، بل عرف عنــه أن عقائده الشخصية لا تتفق معها . فهو ينتمى إلى مدينة عمورية التى كانت فيما مضى معقل اللا ايقونية ، كما جعل تربية أبنه ووريثه فى الحكم ثيوفيل Theophelus إلى حنا النحوى المعروف بمناهضته لعبادة الصور ، وعين فى كرسى البطريركية البطريرك أنطون المشهور بشدة عدائه للأيقونية ، كما أخذ الامبراطور ميخائيل الثانى يردد فى مختلف المناسبات المساوىء التى تنطوى عليها عبادة الصــور المقدسة (١) .

وهكذا لم ينسى سكان جزيرة كريت الاضطهادات التى تعرضوا لها مع غيرهم من مؤيدى عبادة الصور المقدسة ، على أيدى السلطات البيزنطيـة ، خاصة وأن الامبراطور ميخائيل الثانى لم يتخذ أى إجراء من شأنه ارضــاء الأيقونيين والعمل على كسب ودهم ومحبتهم ، ومن ثمة فقد نظروا إلى الفتح الاسلامى للجزيرة على أنه السبيل إلى خلاصهم من الحكم البيزنطى الجائر . وبالتالى لم يبدوا مقاومة تذكر للفاتحين المسلمين .

والى جانب هذا الصراع الدينى الذى اشتغل فى داخل الامبراطورية البيزنطية ، وجدت عوامل سياسية ادت الى تدهور الموقف . والواقع ان الاضطراب السياسى بدأ ينتشر داخل الدولة البيزنطية منذ منتصف القرن الثامن الميلادى تقريبا ، وذلك بعد وفاة الامبراطور ليو الثالث الايسورى (٧١٧ –

(1) Bury, The Eastern Roman Empire, pp. 112—114; Ostrogorsky, op. cit., p. 181.

٧٤١ م) . اذ تتابع على الحكم فى بيزنطة عدد من الاباطرة الضعفاء ، وبلـــغ
هذا الضعف ذروته فى عصر الامبراطوره ايرين ، التى تولت مقاليد الامور
فى بيزنطة كوصية على ابنها الطفل قسطنطين السادس بعد وفاة والده ليـــو
الرابع فى ٨ سبتمبر ٧٨٠م، وكان قسطنطين فى العاشرة من عمره آنذاك (١)
ثم وقع الصراع بينها وبين ابنها حين بلغ سن الرشد واراد أن يباشر
السلطة بنفسه دون قسيم له فى الحكم . وقد ادى الصراع بينهما الى نشر بذور
الفرقة فى انحاء الامبراطورية ، وكانت الولايات الغربية بكل جيوشها من
مؤيدى ايرين، نظرا لميلهم الى الايقونية التى تمثلها ، وقد اقسمت لها هذه
الجيوش يمين الولاء فى عام ٧٩٠ م . على حين ان الولايات الشرقية ــ وخاصة
ثغر الارمنياق ــ كانوا من مؤيدى قسطنطين ، واخيرا تغلب الحزب المناصر
له ونادوا به امبراطوراً وحيدا فى اكتوبر ٧٩٠ م (٢) .

على ان ما عرف عن قسطنطين السادس من الضعف والعناد والقسوة ،
أدى الى قيام الصراع بينه وبين انصاره السابقين ، وازداد تبعا لذلك انصار
ايرين ، وقد ارغمه هذا على قبولها قسيماله فى الحكم فى عام ٧٩٢ م . ولكن
ذلك لم يكن ليرضى طموح هذه المرأة التى كانت تطمع فى الاستئثار بالعرش
وسرعان ما دبرت مؤامرة ضد ابنها قسطنطين ، وبناءً على اوامرها تم سمل
عينيه وابعاده عن العرش فى أغسطس ٧٩٧ م (٣) .

وقد عاد تسلط هذه الامبراطورة على الحكم بأسوأ النتائج عـــلى
الامبراطورية البيزنطية فى الداخل والخارج على السواء . ففى الداخل عمـــت
الفوضى والاضطراب ، وأدى تنازل الحكومة عن كثير من الضرائب ،

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 157.
(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 159—160.
(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 160—161.

استجداء لرضاء الشعب ورجال الدين عن حكمها ، الى اضعاف الموارد المالية للدولة ، كما كثرت المؤامرات والفتن بين رجال حكومتها من اجل الاستئثار بالسلطة والنفوذ (١) . اما فى الخارج فقد تدهورت الامور بشكل خطير ، وترتب على الانتصارات التى احرزتها جيوش المسلمين فى آسيـــا الصغرى ، ان تعهدت الامبراطورة بدفع الجزية السنوية التى قدرت بسبعين الف دينار ، الى الخليفة العباسى هارون الرشيد (٢) . كما اضطرت كذلك لدفع الجزية السنوية للبلغار على اثر الهزائم العديدة التى منيت بها الجيوش البيزنطية امامهم (٣) . اما فى الغرب الاوربى ، فقد وجدت البابوية فى الظروف التى مرت بها الامبراطورية البيزنطية خلال حكم ايرين ، الفرصة لقطع الرباط الواهى الذى ربطها بالامبراطورية الشرقية ، وكان ذلك بتتويج البابا ليو الثالث (٧٩٥ـ ٨١٦ م) (٤) لشارلمان ملك الفرنجة امبراطوراً فى يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م فى كنيسة القديس بطرس بروما . وقد كان هذا التتويج بمثابة الصدمة العنيفة بالنسبة للامبراطورية البيزنطية لعدة أسبـــاب ، فمنذ سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة فى القرن الخامس الميلادى والعالم الرومانى لايعرف الاامبراطورا واحدا هو الامبراطور البيزنطى ،الذى تمتع بسيادة ولو اسمية على الغرب بوصفه وريث الاباطرة الرومان لكن تتويج شارلمان امبراطورا أوجد ، منافسا للامبراطور البيزنطى وحرم الامبراطورية البيزنطية من كل سيطرة تدعيها على البابوية والعالم الغربى

(1) Bury, op. cit., p. 212; Ostrogorsky, op. cit., pp. 161—162.

(٢) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، جـ ٦ ، ص ٣٧٩ .

(3) Bury, op. cit ., p. 340.

(٤) ديفز : اوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة الاستاذ الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٢٥٣ .

يضاف الى ذلك ان تتويج شارلمان ، لم يجعل منه (امبراطورا) فحسب بل الامبراطور الاساسى فى الدولة الرومانية ، لأن الامبراطورية من وجهة النظر السياسية فى العصور الوسطى ، لا تحتمل رأسين – مثلها مثل البابوية – وفى هذه الحالة يصبح شارلمان صاحب الكفة الراجحة ، لأنه امبراطور الكنيسة الرومانية ، وهى الكنيسة العالمية التى تتخذ روما مركزا لها .

وهكذا تتابعت الكوارث على الامبراطورية البيزنطية من كل جانب ولم تستتب الأمور حتى بعد أن قامت ثورة فى القصر فى ٣١ أكتوبر ٨٠٢ م ، أطاحت بايرين وأبعدتها عن الحكم (٢) ، بل استمرت الامبراطورية تعانى من المشاكل والثورات السياسية حتى جاءت ثورة توماس الصقلبى (٨٢١ – ٨٢٣ م) لتضيف عاملا جديدا أدى إلى تعقيد مركز بيزنطة . ونظرا لخطورة هذه الثورة على الامبراطورية البيزنطية وما ترتب عليها من نتائج ساعدت على نجاح الفتح الاسلامى لجزيرة كريت ، فسيتم تناولها بشىء من التفصيل .

تجدر الاشارة إلى أن دراسة هذه الثورة تتسم بالصعوبة ، نظرا للتعقيد الذى شملها ، فقد كانت ذات أبعاد سياسية ودينية واجتماعية ، ولم تكن كباقى الثورات التى عرفت فى التاريخ البيزنطى ، والتى تكون فى الغالب ذات أسباب محددة واضحة . فان المؤرخين البيزنطيين الذين تناولوها بالشرح مثل موناخوس ، والماجستر سيميون وجينزيوس ، ومؤلف صلة ثيوفان ، وكيدرينوس ، وزوناراس ، لم يذكروا أسبابا معينة دعت توماس للقيام

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، التاريخ السياسى ، الطبعة الرابعة ، ص ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

(2) Vasiliev : op. cit., p. 268

العرينى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٠٥ .

بثورته هذه ، وأن كان يستنتج من دراسة هذه الثورة وتطوراتها ، أن الدافع الرئيسي لتمرد توماس هو رغبته فى الاستحواذ على العرش الامبراطورى . أما ما أعلنه من أنه نصير عبادة الصور المقدسة ، وحامى الفقراء والمدافع عنهم فقد كان فى الواقع مجرد شعارت لكسب المزيد من الأتباع والمؤيدين تحقيقا لما كان يسعى اليه من الاستئثار بالسلطة والنفوذ .

وأول ما يصادف الباحث فى هذا الموضوع ، ذلك الخلاف بين المؤرخين القدامى حول أصل توماس فقد ذكر صاحب صلة ثيوفان أنه من أصل صقلبي «ويقال أنه خرج من أصل فقير غير معروف ، ويقال مع ذلك أنه من الصقالبة الذين ينزلون فى كثير من الأحيان فى الأناضول» (١) . أما المؤرخ المعاصر موناخوس ، فلم يوضح إلى أى عنصر ينتمى توماس ، بل أكتفى بالقول ، أنه من «أرض الروم» (٢)، وتبعه فى ذلك الماجستر سيميون الذى ذكر أنه رومى من أصل غير معروف . (٣) ولكن جينزيوس يكشف الغموض الذى أحاط بأصل توماس ، فقد ذكر أنه من أصل أرمنى كما حدد مكان مولده على ضفاف بحيرة جازوروس . (٤)

كان توماس زميلا قديما فى السلاح الامبراطور ميخائيل الثانى العمورى Michael II The Amorian (٨٢٠ — ٨٢٩ م) وممن اشتركوا معه فى

(1) Theophanes Continuatus Liber 11 p. 50.

(2) Monachus, op. cit. p. 784.

(3) Symeon Magistri, op. cit., p. 621.

(4) Genesius, op. cit., Liber 1, p. 8.

هذا وتقع بحيرة جازوروس فى أقليم بنطس فى ثيم الأرمنياق ، وقد دعا ذلك بعض المؤرخين المحدثين إلى أن يطلقوا على توماس اسم توماس الجزيورى ، انظر على سبيل المثال ،

Bury History of Eastern Roman Empile p. 84.

ثورة باردانيوس (١) . وحين انتهت هذه الثورة بالفشل ، ظل توماس وفيا لباردانيوس ، وقد استطاع توماس الفرار إلى الشام وظل هناك حتى قام بثورته

وتذكر المصادر البيزنطية أنه فى الوقت الذى قام فيه توماس بالثورة ، كان مسنا ، كما كان يعانى من العرج ، نظرا لبتر إحدى أرجله ، لكن سنه وتشوهه هذا لم يحدا من نشاطه أو يضعفا من شخصيته ، فقد كان دمث الأخلاق ، مهذبا ، لطيف المعشر ، ذا شخصية محبوبة ، وكانت هذه من العوامل التى جذبت إليه الأتباع وجعلت له شعبية كبيرة . (٢)

وقد بدأ توماس عدوانه فى أواخر حكم الامبراطور البيزنطى ليو الأرمنى (٨١٣ - ٨٢٠ م) فأدعى أنه الامبراطور قسطنطين السادس ابن الامبراطورة ايرين ، الذى أبعد عن العرش ظلما وبطرين غير شرعى (٣) . وبسهولة نجح

---

(١) كان باردانيوس توركوس Bardanius Turcus قائدا للقوات البيزنطية فى آسيا الصغرى فى أيام الامبراطور نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١ م) وفى عام ٨٠٣ م أمره الامبراطور بالتوجه لقتال المسلمين فى خلافة هارون الرشيد ، ولكنه بدلا من تنفيذ أوامر الأمبراطور ، ثار وأعلن نفسه امبراطورا ، وكان مؤيدا من جانب زملائه فى الجيش وهم توماس الصقلبى وليو الارمينى ، وميخائيل العمورى ، (والأخيران توجا امبراطورين فيما بعد) . وقد انتهت هذه الثورة بالفشل ، واستطاع كل من ليو وميخائيل أن يحصلا على العفو من الامبراطور نقفور ، وفر توماس إلى الشام حيث عاش بين المسلمين . اما بردانيوس فقد انسحب إلى دير فى جزيرة بروتس Protus ، وتوفى فى أوائل حكم ليو الارمنى (٨١٣ - ٨٢٠ م) . انظر تفاصيل ثورة باردانيوس فى المصادر التالية :

Genesius, op. cit., Liber 1, pp. 6—10 & Liber 11, p. 35; Theophanes Continuatus Liber 11, 52; Zonaras, Epitomae Historiarum, Liber XV, p. 339.

(2) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 53.

(٣) عبر صاحب صلة ثيوفان عن هذا بقوله :

«. . esse se Constatntinum Irene filium manifestat.»

وترجمتها باللغة العربية هى : «اظهر نفسه كقسطنطين بن ايرين» انظر :

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 51.

فى اقناع سكان آسيا الصغرى بهذا الادعاء كما تبنى أحد الرجال وكان قزما قبيح المنظر وأطلق عليه اسم قسطنطين وجعله قائد الجيش واستطاع توماس أن يخضع أرمينية وكلديا البنطسية . (١) وفى عام ٨٢٠ م حدثت مؤامرة أدت إلى مقتل ليو الأرمنى ووثوب ميخائيل العمورى على العرش البيزنطى ، فأستغل توماس هذه الأحداث ، وأخذ يصب عدوانه فى عنف . والواقع أنه وجدت عوامل دينية واجتماعية ساعدت على انتشار الثورة من مكان لآخر ، وفيما يتعلق بالعامل الدينى نجد أن حزب عباد الصور المقدسة كان ساخطا على الامبراطور ليو الارمنى ثم ميخائيل العمورى اللذين لم يكونا من أنصار العبادة وكان أصحاب هذا الحزب على استعداد للثورة والدفاع عن آرائهم ، لذلك فحين أعلن توماس أنه قسطنطين بن ايرين نصير العبادة ، اجتذب أنصارا عديدين وحظى بتأييد كبير نتيجة خدعته التى انطلت على أهالى آسيا الصغرى.أما عن العامل الاجتماعى ، فالمعروف أن سكان آسيا الصغرى قد عانوا طويلا من فداحة الضرائب ، كما عانوا من تحكم وجور الحكام والموظفين البيزنطيين الذين إذا قوهم الأمرين وقد رأوا فى توماس محررا لهم من هذا النير بعد أن أعلن أنه حامى الفقراء والمدافع عنهم(٢)«ومنذ ذلك الوقت«رفع العبيد على السادة ، والجنود على القادة ، والقادة على أمراء الجيش أيديهم بالسلاح وتهيأوا للثأر من دمائهم» وذلك على حد تعبير صاحب صلة ثيوفان (٣).وهكذا نجح توماس وأبنه قسطنطين خلال فترة وجيزة فى اخضاع الجزء

(1) Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 51—52.; Genesius, op. cit, Liber, 11, p. 35;

(٢) فازيلييف : العرب والروم ص ٢٩ .

(3) «hinc servi adversus heros, miles stationarius advers us cohortatem, centurio adversus exercitus ducemcruento ferro dextras armaverunt.» انظر .

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 53.

الأكبر من آسيا الصغرى ، متبعين فى ذلك الاقناع واللطف فى بعض الأحيان والتهديد والعنف فى أحيان أخرى ، حتى أصبح يدين لها بالتبعية من حدود أرمينية حتى سواحل البحر الايجى . ولم يبق على الولاء للامبراطور ميخائيل سوى ثيم الاوبسيق الذى كان يتولاه القائد كاتاكيلاس – ابن أخت الامبراطور وثيم الارمنياق الذى تولاه الاستراتيجوس أولبيانوس (١) .

وقد أدى إنشغال توماس بأخضاع البلاد لسلطته إلى ترك الحدود البيزنطية مع المسلمين فى آسيا الصغرى بدون حراسة ، ونتج عن ذلك قيام المسلمين فى عهد الخليفة العباسى المأمون بغارات على البلاد البيزنطية القريبة ، وتنبه لذلك الجند المنخرط فى جيش توماس ، وأوضحوا له أنه بثورته تلك أنما يفتح آسيا الصغرى على مصراعيها للمسلمين (٢) وارضاء لهم قرر توماس القيام بحملة على المسلمين بالشام ، وفى صيف عام ٨٢١ م / ٢٠٥ هـ عبر توماس بجيش كبير جبال طوروس ، وهاجم البلاد الشامية ، وللأسف لم يحدد صاحب صلة ثيوفان وهو مصدرنا الرئيسى فى هذا الموضوع أى البلاد الشامية وقع عليها هذا الهجوم الذى كلل بالنصر ، لكن توماس منع أتباعه من أتيان أى عمل من أعمال التخريب أو النهب فى البلاد الشامية خوفا من غضب الخليفة المأمون . ويستطرد صاحب صلة ثيوفان قائلا : «أن المأمون أرسل وفدا لمقابلة هذا الثائر وتم أثناء المقابلة عقد تحالف بين الطرفين أعترف فيه المأمون بتوماس امبراطورا للدولة البيزنطية ، كما وعد بتقديم المساعدة العسكرية له ، مقابل أن يصبح توماس بعد وصوله للعرش البيزنطى – تابعا للخليفة العباسى يدفع له الجزية السنوية»(٣) .

---

(1) Theophanes Continuatus, Libei 11, pp. 53—54;
Zonaras, op. cit., Liber XV, p. 341—342.

(2) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 54.

(3) Theophanes continuatus, Liber 11, p. 54.

وكيفما كان الأمر فقد تم تتويج توماس امبراطورا عقب أبرام هذه المعاهدة ، وذلك فى مدينة أنطاكية على يد أيوب بطريرك كنيستها (١) . والواقع أن حفلة التتويج هذه كانت لها أهميتها الكبرى ، إذ تعطى سلطة الامبراطور العلمانية طابعا دينيا بأعتباره ممثل الله على الارض ، وكانت مراسم التتويج تقام فى الكنيسة فى العاصمة البيزنطية ويتولاها بطريرك القسطنطينية بأعتباره الرجل الثانى فى الدولة بعد الامبراطور . ويعلق المؤرخ الانجليزى بيورى على هذا الحدث بقوله أن هذا التتويج على يد بطريرك انطاكية ، قد أضعف مركز توماس أكثر مما أدى إلى تعزيزه ، فالمعروف أنه قدم نفسه إلى أتباعه على أنه قسطنطين ابن ايرين ، ومعنى ذلك أنه امبراطور شرعى ، تم تتويجه على يد بطريرك القسطنطينية ، وهو البطريرك الرئيسى فى الامبراطورية فلم يكن هناك داع إذن لأن يتوج مرة ثانية على يد أسقف أدنى فى المرتبة ، ويمكن القول بأنه منذ تلك اللحظة خلع توماس قناعه المزيف كقسطنطين السادس ، وأخذ فى الظهور بمظهره الحقيقى كتوماس الجزيورى .

ويستطرد بيورى قائلا ، والمرجح أن اقتراح التتويج جاء من جانب الخليفة المأمون ، ولم يأت من جانب توماس نفسه ، وكان المأمون يرمى من وراء ذلك إلى هدف سياسى وهو تأكيد تبعية توماس له بعد أن يتسلم شارة السلطة

---

(١) عرض جينزيوس لهذا الحدث بقوله :

«Itaque foedus pacis init cum Agaienus sciente duce illorum coranatur a patriarcha Antiocha Iobo»

وترجمتها بالعربية «وعقد معاهدة سلام مع المهاجرين (المسلمين) وأعلن نفسه قائدهم وتسلم التاج الملكى من أيوب بطريرك انطاكية» انظر عن ذلك :

Genesius, op. cit., Liber 11, p. 33; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 54.

من يد بطريرك انطاكية الذى كان تابعا للخليفة المأمون ، وفى ذلك اعتراف ضمنى من توماس بالخليفة العباسى كسيد أعلى له (١) .

بعد ذلك خرج توماس إلى آسيا الصغرى مصحوبا بجيش كبير من المسلمين أمده به الخليفة المأمون ، كما ضم العديد من العناصر الأخرى كالأرمن ، والفرس وغيرهم ، ويقال أن هذا الجيش بلغ نحو ثمانين ألف رجل . (٢) وأتخذ طريقه إلى القسطنطينية . وحين وصلت الأنباء بذلك إلى العاصمة، أرسل الامبراطور ميخائيل الثانى جيشا صغيرا لملاقاة الثائرين ، واشتبك الطرفان فى معركة لم يذكر صاحب صلة ثيوفان – وهو الوحيد الذى انفرد بذكر أنباء هذه المعركة – مكانها ولا تاريخها ، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة الجيش الامبراطورى هزيمة منكرة . (٣) وواصل توماس تقدمه نحو العاصمة ، وقد أدرك ضرورة محاصرة المدينة برا وبحرا (٤) . ولم يجد صعوبة كبيرة فى الحصول على الاسطول ، إذ انحاز اليه أسطول كبير هايوت – على الساحل الجنوبى

---

(1) Bury, History of Eastern Roman Empire, pp. 88—89.

(2) Ibid, p. 89.

(3) Theophanes Continuatus; Liber 11, p. 55.

(٤) الواقع أن القسطنطينية كانت تحتل موقعا استراتيجيا ممتازا وهى مثلثة الشكل منها جانبان فى البحر وجانبا فى البر كانت تحميه الأسوار المنيعة التى أقامها حكامها ، وكان من المتعذر حصار القسطنطينية حصارا كاملا إذ كان لابد لمحاصرها أن يكون متفوقا فى البر والبحر معا وقد وصفها القلقشندى بقوله ..» ولها أسوار من حجارة بينها فضاء ستون ذراعا، وعرض السور الداخلى أثناء عشر ذراعا وأرتفاعه أثنان وسبعون ذراعا، وعرض السور الخارجى ثمانية أذرع ، وارتفاعه أثنان وأربعون ذراعا . وفيما بين السورين نهر يسمى (قسطنطينيانوس) مغطى ببلاط من نحاس يشتمل على اثنين وأربعين الف بلاطه طول كل بلاطة ستة وأربعون ذراعا وعمق النهر أثنان وأربعون ذراعا . ولها نحو مائة باب أكبرها باب الذهب وهو باب فى=

لآسيا الصغرى — وكذلك أساطيل ثيم البحر الايجى ، والمعروف أن أهالى هذا الثيم كانوا من أشد مناصرى عبادة الصور المقدسة لذلك فقد رحبوا ببذل المساعدة لحامى هذه العبادة ونصيرها. ويذكر المؤرخ البيزنطى جنيزيوس ، أن أساطيل جميع الولايات قد انضمت اليه فيما عدا الاسطول الامبراطورى(١). الذى كان مركزه الدائم عند القسطنطينية . كما تمكن توماس من بناء سفن حربية جديدة وسفن للنقل ، ثم أمر بأن تجتمع كل هذه الاساطيل عند جزيرة لسبوس (٢) . انتظارا لأوامر جديدة (٣) .

=

شمالها ، طوله أحد وعشرون ذراعا وهو مصبب بالحديد ، وبه أعمدة من ذهب . وبها قصر فى غاية الكبر والعلو وطريقه الذى يتوصل اليه منه يعرف بالبدندون ، وهو من عجائب الدنيا يمشى فيه بين سطرين من صور مفرغة من النحاس البديع الصناعة على صور الادميين وأنواع الخيل والسباع وغير ذلك . وفى القصر ضروب من عجائب المصنوعات وقال فى «تقويم البلدان» : وحكى لى بعض من سافر اليها أن داخلها مروج وبساتين ، وبها خراب كثير ، وأكثر عمارتها فى الجانب الشرقى الشمالى ، وكنيستها مستطيلة ، وإلى جانب الكنيسة عمود عال دوره أكثر من ثلاثة باعات ، وعلى رأسه فارس وفرس من نحاس ، وفى إحدى يديه حربة كبيرة ، وقد فتح أصابع يده الأخرى وهو مشير بها : قيل أن ذلك صورة (قسطنطين بانى المدينة» . انظر ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧٧ — ٣٧٨ . وانظر ما جاء فى وصفها فى المصادر التالية ابن حوقل ، صورة الارض ، القسم الأول الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٣٩ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ ، ابن الوردى ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، ص ٨٠ .

(1) Genesius, op. cit., Liber 11, p. 37; Theophanes Continuatus, p. 55.

(٢) تقع جزيرة لسبوس فى الطرف الشمالى الشرقى للبحر الأيجى فى مواجهة شواطىء ميسيا Mysia فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، وتعتبر لسبوس أكبر جزيرة فى البحر الايجى ، وأهم محاصيلها العنب الذى يستخدم فى صناعة النبيذ ، وكذلك القمح ، انظر عن ذلك :

La grande Encyclopedia : vol 22, p. 82; Encyclopedia Britannica; vol 13, p. 962

(3) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 55;

كيد رينوس ، نفس المصدر ، الجزء الثانى ، ص ٧٩ . باليونانية .

بعد ذلك تقدم توماس نحو العاصمة ، متناسيا أنه يترك وراءه فى آسيا الصغرى أتباعا مخلصين للامبراطور ميخائيل ، وهم كتاكيلاس وأوليبيانوس ونجح توماس فى احتلال مضيق الهللسبونت (الدردنيل)، واخضع ابيدوس(١) وعسكر بالقرب منها «بجيش لا حصر لعدده» على حد قول جنزيوس (٢). وقد أسند توماس مهمة الدفاع عن آسيا الصغرى ومؤخرة جيشه إلى أبنــــه المتبنى قسطنطين ، الذى لم يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه حق قدرها، فتوهم أنه لن يلقى أية متاعب ، وترك رجاله فى حالة من الفوضى وعدم النظام وكانت هذه هى الفرصة المناسبة لاوليبيانوس الذى أعد كمينا لقسطنطين ورجاله ونجح فى اقتناصهم ، وسقط قسطنطين قتيلا ، وأرسلت رأسه إلى الامبراطــــور البيزنطى الذى أرسلها بدوره إلى توماس (٣). الذى سرعان ما تبنى ابنا آخراً كان راهبا سابقا يدعى أنستاسيوس « Anastas'us » ، وصفه جنزيوس بأنه سكير ذو منظر بشع وعقل مختل (٤) ، كما أسند قيادة الجيش إلى أحد

---

(١) ترجع أهمية أبيدوس إلى موقعها الجغرافى الممتاز على مضيق الهللسيونت ، وترتب على ذلك أن أصبحت ميناء لجمع الرسوم الجمركية على الواردات التى تدخل الاراضى البيزنطية . انظر : رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢٠٣ .

(2) Genesius, op. cit., p. 37.

(٤) Genesius, op. cit., p. 37; Theophanes Continuatus, Libei 11, p. 56.

(4) Genesius, op. cit., p. 39; Zonaras, op. cit., Tomus III, Liber XV, p. 342.

القادة المعادين للامبراطور ميخائيل الثانى ، ويدعى جريجوريوس بتروتوس « Gıegorius Pterotus » (١) .

أدرك الامبراطور ميخائيل الثانى أن توماس يستعد لعبور المضايق إلى تراقيا فوجه نداء إلى سكان تراقيا يطلب اليهم أن يظلوا على ولائهم له ، وأن يحبطوا مؤامرات هذا الثائر . ولكن عندما وصل اليهم توماس بجيشه سرعان ما انضموا إليه وخذلوا الامبراطور ، وفى ذلك الوقت أمر توماس أسطوله الرابض أمام جزيرة لسبوس بالانتقال إلى العاصمة لمحاصرتها ، فنفذ الاسطول هذا الأمر وذلك فى ٦ ديسمبر ٨٢١ م فى نفس الوقت الذى أحاط فيه توماس بجيوشه من جميع جهاتها. وهكذا أصبحت القسطنطينية محاصرة برا وبحرا(٢).
وقد ظن أن سكانها سيفزعون حين يرون جيوشه الجرارة تحاصرهم برا ، وقطع أسطوله العديدة تملأ مياه العاصمة ، وأنهم لن يلبثوا أن يستسلموا له .
ولكن حدث عكس ما توقع ، فقد ووجه بمقاومة عنيفة ، إذ أن الامبراطور ميخائيل كان قد استعد استعدادا كبيرا لملاقاة هذا الثائر ، بأن استقدم من آسيا الصغرى — بمساعدة كتاكيلاس وأولبيانوس — قوات كبيرة على درجة عالية من الكفاءة ، اضطلعت بعبء الدفاع عن العاصمة ، فأضطر توماس

---

(١) كان بتروتوس ابن أخت الامبراطور ليو الارمنى ، وظل على الوفاء لخاله بعد قيام ميخائيل العمورى بتنفيذ مؤامرة ضده انتهت بقتله ، وقد دعا ذلك الامبراطور ميخائيل لنفى بتروتوس إلى جزيرة سكيرو Skyro احدى جزر السيكلاديز ، انظر عن ذلك .
Theophanes Continuatus, Liber II, p. 57.

(2) Genesius, op. cit., pp. 38—39.

إلى التراجع بقواته البرية ، أما أسطوله ، فقد تعرض لعاصفة شديدة عرقلت نشاطه وأقصته عن مكانه أمام العاصمة ، وهكذا وجد توماس نفسه مضطرا للتقهقر بجيشه وأسطوله ، وعسكر فى تراقيا وتجاه سواحل آسيا الصغرى منتظرا أنتهاء فصل الشتاء (١) .

وفى ربيع عام ٨٢٢ م استؤنفت العمليات الحربية مرة أخرى وأعاد توماس حصار القسطنطينية برا وبحرا ، وكان الامبراطور ميخائيل الثانى قد استغل فرصة رفع الحصار فى شتاء ٨٢١ م وزاد فى تحصين المدينة ، كما عزز الحاميات المدافعة عنها وبذلك أصبح فى حالة تمكنه من الدفاع عن عاصمته بل والقيام بهجوم ضد الأعداء . ورغم ذلك فضل الوصول إلى حل سلمى معهم ، فأعتلى السور بنفسه ووجه نداء اليهم بترك التمرد والعصيان ووعد ببذل الأمان لهم والعفو عنهم (٢) . لكن المتمردين توهموا أن الامبراطور أقدم على ذلك لحرج مركزه ، وشعوره بالعجز عن ملاقاتهم ، فتقدموا فى فوضى واستهتار لمهاجمة الأسوار ، واشدة دهشتهم فوجئوا بمقاومة عنيفة ، وفتحت كثير من بوابات المدينة واندفع منها الجند الامبرطورى وأعملوا فيهم القتل ، فأنتابهم الفزع وتشتتوا سريعا دون أن يجدوا الوقت الكافى للتصرف . وفى نفس الوقت منى أسطول توماس بهزيمة مروعة إذ ما كاد يلتقى بالأسطول الامبراطورى حتى جنح فى فوضى نحو الشاطىء ورفض بحارته بدء القتال دون سبب واضح ، وانضم جزء منهم إلى الأسطول الامبراطورى أما بقية البحارة فقد سارعوا بالانضمام إلى معسكر توماس (٣) .

(1) Genesius. op. cit., pp. 39—40 ; Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 59—60.

(2) Theophancs Continuatus, p. 61.

(3) Gencsius, op. cit., p. 40.

وبعد هذه الهزائم التى تتابعت على توماس برا وبحرا ، جمع شتات جيشه واستمر فى محاصرة القسطنطينية ، وقد وجد أنه من الأهمية بمكان أن يحصل على أسطول جديد يعوض خسائره البحرية ، فأرسل إلى بلاد اليونان وجزر البحر الايجى برسائل ينبئهم فيها بأنتصارات مزعومة ، ثم طلب منهم أن يمدوه بأساطيلهم . فأرسلوا إليه بأسطول ضخم قدره صاحب صلة ثيوفان بثلاثمائة وخمسين قطعة من السفن الحربية وسفن النقل (١) .

وبعد وصول هذا الأسطول قام توماس بهجوم برى وبحرى عنيف على العاصمة ونشبت معركة بحرية بين الأسطول الامبراطورى وأسطول توماس فى خليج بريدن Byriden عند الشاطىء الشمالى (للبروبونتيز) (٢).بالقرب من تراقيا أحرز فيها الأسطول الامبراطورى النصر ، والتهمت النيران سفنا كثيرة من أسطول توماس ، كما أستولى الاسطول المنتصر على العديد منها ، أما القسم الضئيل الذى تبقى فقد جنح إلى الشاطىء والتحق بحارته بجيش توماس (٣) . والواقع أن هذه المعركة البحرية كانت ضربة مروعة أصيب بها

---

(1) «Constabat illa cum bello aptis biremikus tum onerarus trecentis quiquaginta navibus».

وترجمتها بالعربية «اشتمل على ٣٥٠ من كلا من السفن الحربية المجهزة بقاذفات اللهب وسفن النقل» انظـــر :

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64.

(٢) يعرف البروبونتيز فى الوقت الحالى باسم بحر مرمرة ، وهو بحر داخلى صغير يقع بين قارتى أوروبا وآسيا ، ويربط البحر الأسود بالبحر المتوسط عن طريق مضيق البسفور والدردنيل ، انظـــر :

La grand Encyclopedia : vol 23, p. 205.

(3) Genesius, op. cit., Liber 11. p. 41; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64.

توماس ، وأن كانت فى الحقيقة قد أضرت ضررا بالغـا بالقـوة البحرية للامبراطورية البيزنطية بصفة عامة ، وبعد هذه الكارثة استمر توماس فى عملياته العسكرية حتى نهاية عام ٨٢٢ م واقتصرت هذه العمليات على المصادمات السريعة التى حدثت بين الطرفين المتنازعين وتبادل فيها الاثنان النصر والهزيمة وحرص الامبراطور ميخائيل الثانى على عدم الدخول فى معركة حاسمة لأن القوة العددية كانت لاتزال فى جانب المتمردين (١) .

وفى ذلك الوقت وقع حادث كان له أثر كبير فى التعجيل بإنهاء هـذه الحرب الأهلية ، وكان هذا الحادث هو تدخل البلغار فى تلك الحرب لصالح الامبراطور البيزنطى ، وقد اختلفت المصادر البيزنطية بشأن هذا التدخـل البلغارى ، فقد ذكر المؤرخ المعاصر موناخوس أن الامبراطور ميخائيل الثانى هو الذى أتجه إلى البلغار طالبا مساعدتهم (٢) . بينما ذكر المؤرخون المتأخرون نسبيا كصاحب ثيوفان ، وجينزيوس أن الملك البلغارى الذى يدعى مورتاجون Mortagon هو الذى عرض المساعدة على الامبراطور البيزنطى الذى اعتذر عن قبولها لأنه لا يرغب فى أن يراق الدم المسيحى بسيوف الوثنيين ، كما أوضح لمورتاجون أن وجود الجيش البلغارى فى تراقيا سيكون انتهاكا لهدنة الثلاثين عاما (٣) .

---

(1) Theophanes Continuatus, p. 64.

(2) Monachus, Vitae Recentiorum imperatorum, p. 788.

(3) Theophanes Continuatus; Liber 11, p. 64; Genesius, op. cit., pp. 41-42
وقد ابرمت هذه المعاهدة فى عام ٨١٤ م بين الامبراطور ليو الارمنى (٨١٣ — ٨٢٠ م) وبين ملك البلغار مورتاجون ، وحددت مدة سريانها بثلاثين عاما قابلة للتجديد وبشأن هـذه المعاهدة انظر :

Zonaras : Epitomae Historiarum, tomus III, Liber XV, pp. 344-345.

والأرجح هو ما ذكره موناخوس من أن الامبراطور ميخائيل هو الذى طلب مساعدة البلغار ، وحجتنا فى ذلك أن موناخوس قد عاصر هذه الأحداث بنفسه ، وكان شاهد عيان لها ، والباحث فى التاريخ البيزنطى يجد مواقف مشابهة تعرض لها أباطرة الدولة البيزنطية والتجأوا أثناءها إلى طلب المساعدة الخارجية من حلفائهم الأجانب (١) .

ويرجع المؤرخ الروسى الأصل فازيلييف Vasilliev ماردده كل من صاحب صلة ثيوفان وجنزيوس إلى أنه صدى لتفاخرهما القومى ، إذ كانا يعتقدان أن من العار أن يطلب الامبراطور البيزنطى المعونة من أعجمى ، أو أن يكون تدخله سببا فى نصر حاسم جنته الجيوش البيزنطية (٢) . أما المؤرخ الانجليزى بيورى Bury فقد أكد أن الامبراطور ميخائيل الثانى لم يعقد معاهدة تحالف بينه وبين البلغار ضد توماس ، وأن كان أوضح لمورتا جون أثناء المحادثات السرية التى جرت بينهما ، أن هجومه على توماس وجيشه لن

---

(١) لعل أقرب مثال لذلك ما حدث أثناء ثورة بارداس سكليروس Bardas Sclerus التى استغرقت الفترة الزمنية الواقعة بين سنوات ٩٧٦ — ٩٨٩ م فى عهد الامبراطور باسيل الثانى المقدونى (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) فحين أصبح مركز باسيل الثانى حرجا بعد الانتصارات التى أحرزها سكليروس ، لجأ الامبراطور البيزنطى إلى الروس طالبا مساعدتهم العسكرية ، وبعد أن عقد زواجا سياسيا بين شقيقته الأميرة آن Anna وأمير كييف المدعو فلاديمير Vladimir أمده هذا الأمير الروسى بستة آلاف مقاتل من الروس ، استطاع باسيل الثانى بمساعدتهم الانتصار على خصمه والقضاء على هذه الثورة . وبشأن تفاصيل ثورة سكليروس ومساعدة الروس للامبراطور باسيل الثانى أنظر :

Zonaras, Epitomac Histoıiarum, Liber XVIII, pp. 539—557. ; Psellos, Chronographia, tome I, pp. 14—20.

راجع كذلك :

Schlumberger : L'epopée Byzantine vol I pp. 338—400 ; Ostrogoıosky : History of Byzantine State p. 269 C.M H vol IV pp. 83—88.

(٢) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٤٥ حاشية رقم (١).

يعتبر انتهاكا لهدنة الثلاثين عاما (١). وهكذا يمكن القول بأن تدخل البلغار فى هذه الحرب الأهلية البيزنطية إنما تم بإيعاز من الامبراطور ميخائيل حتى يتسنى له القضاء على خصمه توماس الذى سبب له متاعب لا حصر لها .

تقدم مورتاجون بجيشه للهجوم على توماس الذى كان يرابط بقواته أمام العاصمة وحين علم توماس بأقتراب البلغار . رفع الحصار وتوجه للقائهم ، وعند سهل كيدوكتس — شرقى هرقليه — التقى الطرفان فى معركة عنيفة ، أنزل فيها البلغار بتوماس هزيمة ساحقة وقضوا على عدد كبير من جيشه ، كما أصابوا غنائم هائلة ثم انسحبوا قانعين بما حققوه من نصر ، وما استولوا عليه من غنائم (٢) . ورغم سرعة هذه العملية العسكرية التى قام بها البلغار إلا أنها كانت ذات أثر كبير فى أرهاق المتمردين والحط من روحهم المعنوية ، وبعد هذه الهزيمة جمع توماس شتات جيشه وعسكر بهم عند سهل ديابازيز على بعد ٢٠ ميلا غربى القسطنطينية — وقد حالفه التوفيق فى اختياره لهذا المكان الذى أمتاز بوفرة الأعشاب اللازمة للخيل ، كما مكن توماس من الحصول على المؤن اللازمة للجيش بسهولة من القرى المجاورة (٣) .

وقد رأى الامبراطور ميخائيل ضرورة وضع حد لهذه الحرب الأهلية ، فخرج من العاصمة مصحوبا بقوات كبيرة ، كما صحبه أيضا قائديه كتاكيلاس والبيانوس ، وتوجه الجميع لمهاجمة توماس . وكان هذا الثائر لايزال مفعما بالأمل فى النصر ، كما كان مفعما بالثقة فى جيشه فوضع خطة للايقاع بالجيش

(1) Bury : A History of the Eastern Roman Empire pp. 100—101.

(2) Genesius p. 42; Zonaras op. cit. tomus III Liber XV, p. 345.

(3) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 66;

انظر كذلك ، كيدرينوس : ، ص ٨٧ ، باليونانية .

الامبراطورى قامت على أساس تظاهر أتباعه بالهروب حتى يتشتت شمل الجيش الامبراطورى أثناء مطاردتهم وفى تلك الحال يقع فريسة سهلة لقوات توماس (١) لكن هذا الثائر لم يدرك الروح التى تفشت فى جيشه ، فقد ثبطت عزائمهم وضعفت روحهم المعنوية نتيجة للهزائم التى لاقوها ، وخاصة أمام البلغار ، كما أخذ يراودهم الحنين لحياة الاستقرار العائلى ، بعد ما قاسوه من متاعب أثناء هذه الحرب ، التى بدت لهم بلا طائل . ويضيف صاحب صلة ثيوفان إلى ذلك قوله أنهم بدأوا يشعرون بالاشمئزاز من اراقة الدم المسيحى دون أن يحرز المسيحيون من وراء ذلك أى كسب (٢) . يضاف لذلك تذمر حزب عبادة الصور المقدسة الذى كون جزءا كبيرا من جيش توماس ، حين رأوا تحالفه مع المسلمين ، ووجود أعداد كبيرة منهم بينهم ، فأخذ يراودهم الشك فيما أدعاه توماس من أنه نصير وحامى هذه العبادة .

وهكذا ، فحين بدأت المعركة (٣) بينهم وبين قوات الامبراطور ، وصدرت اليهم أوامر توماس بالهروب الزائف ، تطور الأمر بأن أصبح هروبهم حقيقيا . ذلك أن تقدير توماس قد خاب ، فلم يتبعثر الجيش الامبراطورى ويطاردهم فى فوضى واضطراب ، وإنما تبعهم فى نظام وحذر ، وعندما رأوا ذلك ، أخذوا يلقون سلاحهم ويفرون ، أو يسلموا أنفسهم للامبراطور (٤) .

(1) Theophanes Continuatus, Liber 11, pp 66—67.

(2) Theophanes Continuatus, Libei 11, p. 67.

(٣) لم تحدد المصادر تاريخ هذه المعركة ، وأن كان المرجح أنها حدثت خلال النصف الأول من شهر مايو ٨٢٣ م وذلك إستنادا إلى أن توماس بعد هزيمته التجأ إلى مدينة اركاديوبوليس وظل محاصرا بها لمدة خمسة شهور . وتم تسليمه إلى الامبراطور ميخائيل الثانى فى منتصف أكتوبر ٨٢٣ .

(4) Theophanes Continuatus; p. 67; Zonaras, op. cit., pp. 346

وقد كانت معركة ديابازيز هي الحد الفاصل فى هذه الحرب الأهلية ، وانسحب توماس على أثرها مصحوبا بقليل من أتباعه ، وآوى إلى مدينة اركاديوبوليس Arcadiopolis فى أقليم تراقيا وتحصن بها ، فتبعه الامبراطور وحاصر المدينة لمدة خمسة شهور ، ذاق فيها الأهالى الأمرين من قلة المؤن حتى أكلوا الخيول الميتة وجلود الحيوانات ، وأخيرا قامت فتنة فى المدينة وسلم الأهالى توماس إلى الامبراطور حوالى منتصف شهر أكتوبر ٨٢٢م فأمر بتعذيبه ثم قتله (١) .

وهكذا فشلت هذه الثورة ، فلم تحقق لمن انحاز اليها من الناس أغراضهم ولم تتحسن أحوالهم الاقتصادية ، كما أنها لم تحقق مطالب جماعة عبادة الصور المقدسة وقد كان لهذه الحرب الأهلية نتائج أخطر من ذلك ، إذ أدت إلى تخريب معظم أقاليم الامبراطورية البيزنطية ، وعلى الأخص أقليم تراقيا الذى كان مسرحا للمعارك الحربية التى دارت بين الفريقين المتنازعين ، وكذلك آسيا الصغرى ، كما شمل الخراب أيضا بلاد اليونان والجزر اليونانية التى حرمت من حامياتها التى خرجت لمساعدة توماس وسارت معه بحرا إلى القسطنطينية . وذلك على حد تعبير صاحب صلة ثيوفان . (٢)

ومن أخطر نتائج هذه الثورة كذلك ، تلك التى تتعلق بالناحية البحرية ، إذ فقدت الامبراطورية البيزنطية معظم أساطيل الولايات ، عندما انضمت هذه الاساطيل إلى توماس واشتبكت مع الأسطول الامبراطورى أكثر من مرة وانتهى الأمر بتدمير الجانب الأعظم من أسطول توماس الذى هو فى واقع الأمر أسطول الولايات البحرية البيزنطية . وقد أحسن المؤرخ أرشيبالد

(1) Monachus : op. cit., p. 788; Genesius, op. cit., pp. 43—45; Theophanes Continuatus, Libei 11, p. 70;

(2) Theophanes Continuatus : Liber 11, p. 74.

لويس فى بيان أثر هذه الثورة على البحرية البيزنطية حين ذكر «ويمكن القول من وجهة النظر البحرية ، أن بيزنطة خرجت عرجاء تماما من هذه المأساة ، فقد تشتت شمل أساطيل الولايات وأتت عليها الحرب الأهلية ، حين اشتدت الحاجة اليها لمؤازرة أسطول القسطنطينية ، فى الوقت الذى كانت فيه أساطيل سورية وشمال أفريقية وسائر أساطيل الأعداءالآخرين تجمع قوتها »(١) .

وإن كنا قد تحدثنا عن ثورة توماس فى شيء من التفصيل مع بيان النتائج التى ترتبت عليها ، فأن ذلك يرتبط بشكل ولو غير مباشر بموضوع استيلاء المسلمين على الجزيرة الكريتية فى ظل هذه الظروف المواتية التى تمت فيها عملية الفتح . فعندما نزل الفاتحون المسلمون بكريت لم تكن امكانيات الجزيرة الحربية تسمح لها بمقاومتهم كما لم تكن بيزنطة نفسها فى حالة تسمح لها بالدفاع عن هذه الجزيرة نتيجة للظروف العصيبة التى عانت منها ، ويمكن القول أن الفتح الاسلامى لكريت كان أحد النتائج الخطيرة التى ترتبت على ثورة توماس .

وحين اطمأن المسلمون إلى عدم وجود مقاومة من جانب سكان الجزيرة أخذوا فى غزو باقى أجزاءها . ولم يرد فى المصادر العربية أو البيزنطية تفاصيل هذا الغزو . وقد ذكر كل من فازيلييف وبيورى أن المسلمين استولوا فى وقت قصير على ٢٩مدينة لم تحفظ أسماؤها(٢) وأخذ أبو حفص ومن معه يواصلون تقدمهم وفتوحاتهم فى الجزيرة حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وأخرب حصونهم (٣) . والراجح أن المسلمين أتموا فتح الجزيرة كلها فى

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ١٦٩ .

(٢) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٥٨ ، راجع كذلك :

Bury, A. History of the Eastern Roman Empire, p. 289.

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٥ .

عام ٢٣٠ هـ (١) (١٨ سبتمبر ٨٤٤ — ٦ سبتمبر ٨٤٥ م) .

ووجد الفاتحون المسلمون ضرورة التماس الأمان فى الانتماء إلى الخلافة العباسية التى كانت تسيطر على الشرق الأدنى كله ، فدانوا لها بالولاء السياسى واعتنقوا المذهب السنى ، على أنهم كانوا يتمتعون باستقلال داخلى ، ولم يكن للخليفة العباسى الحق فى تعيين الولاة على الجزيرة وإنما كان الحكم فيهـا وراثيا (٢) . وكانت كريت فى التقسيم الادارى للدولة العباسية تتبع اقليم مصر (٣) .

وبعد الفتح الاسلامى لكريت بدأت هذه الجزيرة تأخذ دورها فى الصراع مع الدولة البيزنطية ، هذا الدور الذى كان فى واقع الأمر مظهرا من مظاهر الكفاح العنيف الذى اشتعل بين المسلمين والبيزنطيين على امتداد الجزء الأكبر من العصور الوسطى . وهكذا لحقت كريت بالركب الاسلامى المجاهد، وقامت بدورها فى الجهاد ضد العدو البيزنطى وذلك على النحو الذى سنعرضه فى الفصول التالية

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ص ٣٢٧ .

(2) Genesius, Basileiai, p. 47.

النعمان : المجالس والمسايرات لوحة ٤١٦ (مخطوط مصور) .

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ، لوحة ٤١٦ .

والجدير بالذكر أن الأستاذ الدكتور نبيه عاقل يذكر فى كتابه «الامبراطورية البيزنطية أن كريت بعد الفتح الاسلامى لها أصبحت تدين بالولاء السياسى للدولة الأموية فى الأندلس ، ويقول فى هذا الشأن : «أنه بالرغم من أن الخلافة الاسلامية التى ساعدت توماس فى ثورته لم تتمكن من استغلال هذه الثورة لتوجه ضربة من جانبها ضد بيزنطة ، وذلك بسبب مشاكلها الداخلية الدامية فأن حملات عربية جاءت من الأندلس وتمكنت من أن تستخلص كريت من بيزنطة وتخضعها لسيادة الدولة العربية الاندلسية «لكن الثابت من الأندلسيين فاتحى كريت لم يأتوا من الأندلس إلى كريت مباشرة ، بل أنهم قضوا عدة سنوات بمدينة الاسكندرية بالقطر المصرى مشاركين فى احداثها السياسية ثم خرجوا منها إلى كريت على النحو الذى تم توضيحه فى هذا الفصل من البحث . والثابت كذلك أنهم كانوا يدينون بالسيادة للدولة العباسية وليس للدولة الأموية التى أشتد العداء بينهم وبينها انظر ، نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٩ ص ١٩٣ . راجع كذلك الملحق رقم (٢) من هذا البحث .

الفصل الثاني



الاسرة العمورية ومحاولات استعادة كريت

(٨٢٠ – ٨٦٧ م)

– الحملات البيزنطية على كريت فى عهد الامبراطور ميخائيل الثانى وأسباب فشلها .

– العوامل التى ادت الى انصراف الامبراطور ثيوفيل عن محاولة استرداد كريت .

– الصراع بين كريت وبيزنطة فى عهد الامبراطور ميخائيل الثالث .

....

عرضنا فى الفصل السابق للفتح الاسلامى لكريت مع الاهتمام بتحليل العوامل السياسية الخاصة بالجانب البيزنطى ، التى مهدت لهذا الفتح وساعدت على نجاحه . وكان من الطبيعى ان يقوم الصراع بين الفاتحين المسلمين والدولة البيزنطية صاحبة السيادة السابقة على هذه الجزيرة . وقد شهد عصر الامبراطور ميخائيل الثانى العمورى (٨٢٠ –٨٢٩م) بداية هذا الصراع العنيف الذى دام لفترة طويلة من الزمن . فلاشك ان هذا الامبراطور قد ادرك مدى الخطر الذى سيلحق بالممتلكات البيزنطية نتيجة لاستيلاء المسلمين على جزيرة كريت . فان موقعها الاستراتيجى الهام كان مما يتيح لهم التحكم فى مداخل البحر الأيجى ، كما يهيئ لهم السيطرة على جزر وسواحل هذا البحر وتهديد سواحل آسيا الصغرى وبلاد اليونان هذا الى جانب الخسارة الاقتصادية التى تتعرض لها الدولة البيزنطية بفقدها مثل هذه الجزيرة الغنية بمواردها الطبيعية ، فضلا عن تهديد المسلمين بكريت

لتجارة بيزنطة مع عالم البحر المتوسط. يضاف لذلك ان كريت كانت فيما مضى من الممتلكات البيزنطية ، ومن ثمة فان تفكير الامبراطور ميخائيل الثانى فى استردادها يعتبر امرا طبيعيــا ، خاصة وان احــوال بيزنطة الداخليــة والخارجية آنذاك كانت تسمح بالقيام بمحاولات فى هــذا المجال . ففــى الداخل تم اخماد الفتن الدينية، وتوقف اضطهاد عباد الصور المقدسة . كذلك نجح ميخائيل الثانى فى توطيد سلطته بالقضاء على الاضطرابات الداخلية التى هددت عرشه ، والتى تمثلت فى الحركة السياسية الاجتماعية الدينية المعروفة بثورة توماس الصقلبي . اما فى الخارج فقد كان السلام هو الطابع المميز لعلاقات بيزنطة بجيرانها على الحدود المختلفة، فارتبطت مع مملكة بلغاريا بهدنة الثلاثين عاما ، التى عقدت فى عام ٨١٤م ، والتى كانت لاتزال سارية المفعول حتى ذلك الوقت ، وبناء عليها فقد سادت العلاقات الودية بينهما وبين مورتاجون ملك البلغار ، وكان من مظاهر هذا الود تعاونه مع الامبراطور ميخائيل الثانى ضد الثائر البيزنطى توماس(١) أما الروس فى الشمال، فحتى عام ٨٦٠م لم يسببوا متاعب تذكر للامبراطورية البيزنطية(٢) كمـــا سيطر الهدوء ايضا عـــلى الجبهة الشرقية للامبراطورية ، رغم عدم وجود معاهدات سلام بينها وبين العباسيين ، وذلك نظرا لانشغال الخليفة العباسى المأمون بقمع الفتن والثورات التى قامت فى دولته ، والتى كان من

(١) انظر الفصل الأول من هذا البحث ص ٨٦ وما بعدها .

(2) Bury, History of Eastern Roman Empire, p. 419; Ostrogorsky, History of Byzantine State, p. 202.

أبرزها فتنة بابك الخرمى (١) ، فى اذربيجان وارمينيه .

وهكذا كانت الظروف مهيأة لميخائيل الثانى للقيام باكثر من محاولة ، بقصد استرداد كريت من يد فاتحيها المسلمين . وقام هذا الامبراطور بثلاث محاولات تمثلت فى ثلاث حملات ارسلها على كريت . وللاسف ، فان المادة التاريخية التى اوردتها المصادر البيزنطية عن هذه الحملات الثلاث ضئيلة للغاية لاتزيد عن الاشارات السريعة العابرة ، والمرجح ان السبب فى ذلك يرجع إلى ان تاريخ الاسرة العمورية قد دونه المؤرخون فى عهد الاسرة المقدونية التى قامت على انقاضها وحرصت على طمس معالم هذه الحقبة من التاريخ البيزنطى لاسباب سياسية . وكانت اولى هذه المحاولات ، تلك الحملة البحرية التى اسندت قيادتها الى القائد البيزنطى فوتيناس Photinas حاكم ثيم الاناضـــول ، وهو ممن ينتمون الىاعرق الاسرات البيزنطية، وقـــد اشار الى هـــذه الحملة عدد من المؤرخين البيزنطين المتأخرين نسبيا ، مثل صاحب صلة ثيوفان، وكيدرينوس ، وزوناراس .

---

(١) بابك الخرمى هو زعيم طائفة الخرمية فى أذربيجان ، واسم الخرمية مشتق من كلمة «خرم» ، التى يفسرها ابن خلدون بمعنى «فرح» وهذه الطائفة ذات مبادىء دينية تدعو إلى الالحاد والتمتع بمسرات الحياة إلى أقصى درجة حتى قيل أنهم لا يعرفون دينا غير اللذة . وكانوا يعتقدون فى مذاهب المجوس ، وكان لهذه الطائفة أهدافا سياسية معينة ، وكانت بداية فتنة بابك فى عام ٢٠١ هـ (٨١٦ – ٨١٧ م) فى عهد الخليفة العباسى المأمون ، واستمرت حتى عهد الخليفة المعتصم ، الذى تم له اخمادها فى عام ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) على يد قائده القدير الأفشين ،وقبض على بابك وتم تشهيره على فيل فى مدينة سامراء العاصمة العباسية فى ذلك الوقت، ثم أمـر الخليفة المعتصم بقتله وأرسلت رأسه إلى اذربيجان ، أما جسده فقد صلب فى سامراء .
انظر : تفاصيل هذه الفتنة فى المصدرين التاليين ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣١٧ – ٣٣٢ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ .

ولم يحدد هؤلاء المؤرخون تاريخ وصول هذه الحملة الى كريت ، وتبعا لذلك فقد اختلف المؤرخون المحدثون حول هذا الامر ، فذكر المؤرخ الروسى الاصل فازيلييف ان تاريخها لايجاوز كثيرا عام ٨٢٨ م / ٢١٢ — ٢١٣ هـ(١) على حين رجح المؤرخ الانجليزى بيورى أنها حدثت فى عام ٨٢٥م/ ٢١٠هـ، او عام ٨٢٦م / ٢١٠ — ٢١١هـ (٢) . وطبيعى ان ترجيح بيورى لايصح الاخذ به ، بعدما اصبح من المسلم به ان الفتح الاسلامى لكريت تم فى يونيه عام٨٢٧ م / ربيع الاول ٢١٢ هـ(٣) .

والواقع ان المؤرخين البيزنطين لم يغفلوا تحديد تاريخ هذه الحملة فقط ، بل اغفلوا كذلك كل مايتعلق باستعداداتها، سواء عدد سفنها اونوع هذه السفن اوعدد البحارة والجنود المشتركين فيها ، وغير هذا وذاك من التفاصيل الخاصة بها . ولكن يبدوا انها كانت حملة صغيرة ذات استعدادات محدوده ، والدليل على ذلك انه بعد وصول فوتيناس باسطوله بالقرب من كريت ، ادرك ان مالديه من قوات لن يتيح له سهولة غزوها ، نظرا لما تتمتع به من حماية طبيعية ، وما اضافه لها المسلمون من تحصينات منيعة . وقد اوضح ذلك كله فى تقرير رفعه الى الامبراطور ميخائيل الثانى ، ولم توضح المصادر تفاصيل هذا التقرير ، اوتاريخ ارساله الى الامبراطور ، وانما اكتفت بالاشارة الى انه تضمن طلب فوتيناس امداده بقوات اضافية جديدة . وقد سارع الامبراطور بارسال تعزيزات اليه ، وكانت هذه التعزيزات بقيادة البروسباطير داميان ، Damianum المشرف على الاصطبلات الامبراطورية Suiequibis Conitenac وبعد وصول هذه الامدادات

---

(١) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٦٠ .

(2) Bury : History of the Eastern Roman Empire, p. 289.

(٣) انظر الفصل الأول من هذا البحث ، ص٦٦.

تقابل الطرفان البيزنطي والكريتي في معركة لم تمدنا المصادر بتفاصيلها ، انتهت بانتصار الفاتحين المسلمين انتصار حاسما ، وقتل داميان ، اما فوتيناس فقد استطاع بمشقة ، الفرار الى جزيرة ديا Dia — الى الشمال من مدينة الخندق — ومن هناك عاد الى القسطنطينية حاملا نبأ اول هزيمة اوقعها مسلمو كريت بالقوات البيزنطية ، في اول محاولة لاسترداد كريت بعد فتح المسلمين لها بوقت قصير (١) .

على ان الامبراطورية البيزنطية لم تلبث ان تلقت هزيمة جديدة اشد واعنف من سابقتها ، وذلك حين ارسل الامبراطور ميخائيل حملته الثانية على كريت وكانت هذه المرة بقيادة القائد كراتيروس Duce Cratero Cibyraeotaru praefecto حاكم ثيم كبير هايوت على الساحل الجنوبي لاسيا الصغرى — الذي يعد من اكبر الثيمات البحرية البيزنطية ،ولم ترد في المصادر البيزنطية اية اشارة لتحديد تاريخ هذه الحملة كذلك (٢)، وقد دفع ذلك بعض المؤرخين المحدثين الى اغفال ذكر تاريخها رغم تعرضهم لها واذكر منهم على سبيل المثال المؤرخ فنلاى Finlay (٣) ، اما فازيلييف (٤) فقد اوضح ان هذه الحملة حدثت بعد الحملة الاولى بقليل اى خلال عام ٨٢٨ م . وكانت تتألف من سبعين سفينة حربيـة جمعت مـن موانى آسيا الصغرى التى اشتهرت بشجاعة بحارتها وجودة تدريباتهم . وانطلق

---

(1) Theophanes Cotinuatus, Liber 11, pp. 67—77; Zonaras, Liber XV, p. 399.

كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ص ٩٣ — ٩٤ ، باليونانية .

(2) Symeon Magistri, pp. 621—623; genesius, pp. 48—49; Theophanes Continuatus, pp. 79—80; Zonaras, p. 350.

(3) Finaly, History of Greece, vol 11, pp. 136—137.

(٤) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٦٠ .

كراتيروس بهذا الاسطول فى اتجاه كريت وتمكن من النزول على ارض الجزيرة ، ولم تحدد المصادر مكان نزول الحملة تحديدا دقيقا ، وقد اشتبك الطرفان المتصارعان فى معركة استمرت من شروق الشمس حتى غروبها . وتجمع المصادر البيزنطية على ان النصر فيها كان حليف البيزنطيين الذين استولوا على كثير من الاسلحة،ووقع كثيرمن المسلمين اسرى فى قبضتهم . وعندما هبط الظلام انسحب المسلمون الى داخل الجزيرة ، ولم يتعقبهم البيزنطيون ظنا منهم انهم انزلوا بهم هزيمة منكرة لن يقووا بعدها على منازلتهم . ويلقى المؤرخ البيزنطى جينيزيوس مسئولية هذا التصرف على عاتق كراتيروس ، ويصفه بالجبن والتكاسل ، ويوضح انه امر رجاله بعدم مطاردة المسلمين وتأجيل ذلك حتى صباح اليوم التالى (١) . وقضى البيزنطيون ليلتهم فى الاحتفال بهذا الانتصار ، ولم يعبأوا بتحصين معسكرهم ، بل تبعثروا وتباعدوا ، واسرفوا فى تناول الخمر ، ثم راحوا فى نوم عميق بفعل الشراب والاجهاد الذى لقيوه طوال اليوم . وعند منتصف الليل تقريبا عاد المسلمون بعد ان لموا شملهم ونظموا صفوفهم الى المعسكر البيزنطى ووقع كل من فيه فريسة سهلة لسيوفهم ، ويقال انهم ابادوا رجال الحملة عن اخرهم . اما القائد كراتيروس فقد تمكن من الفرار على ظهر سفينة تجارية الى جزيرة كوس (٢) Cos ، وحين تنبه المسلمون لذلك سارعوا باللحاق به وادركوا هناك واعادوه الى كريت حيث تم اعدامه شنقا (٣) .

---

(1) Genesius, p. 49.

(٢) هى احدى جزر البحر الايجى ، وتقع بالقرب من الساحل الجنوبى الغربى لآسيا الصغرى ، انظر عن ذلك

Encyclopdia Britannica; vol 6, p. 482.

(2) Symeon Magistri, pp. 621—623; Genesius, pp. 48—49; Theophanes Continuatus, pp. 79—80, Zonaras, p. 350.

كيدريوس ، موجز التاريخ ، ص ص ٩٥ — ٩٦ . باليونانية .

ورغم هذه الهزائم الشديدة المتلاحقة التى منيت بها القوات البيزنطية ، الا ان ذلك لم يثن من عزم الامبراطور ميخائيل الثانى عن استرداد كريت ، فنظم حملة ثالثة ، عهد بقيادتها الى قائد يدعى اوريفاس Oryphas والمعلومات التاريخية التى وصلتنا عن هذه الحملة وقائدها ، اقل مما امدتنا به المصادر البيزنطية عن الحملتين السابقتين . ولما كان المؤرخون البيزنطيون لم يحددوا تاريخها ، فقد افترض فازيلييف (١) وقوعها فى فترة ما خلال عامى ٨٢٨ ، ٨٢٩ م (٢١٣ — ٢١٤ ﻫ) ، بينما افترض بيورى (٢) انها حدثت فى وقت ما خلال اعوام ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ م . (٢١٢ — ٢١٤ ﻫ) ولا نستطيع ان نجزم برأى قاطع بشأن تاريخ هذه الحملة ، اذ ليس هناك ادنى دليل نستند اليه فى ذلك، وان كنا نميل الى الاخذ بافتراض فازيلييف لانه اقرب الى تسلسل الاحداث التاريخية . وقد اجزل الامبراطور ميخائيل العطاء للمشتركين فى الحملة كوسيلة لرفع معنوياتهم التى لابد وان تكون قد تأثرت نتيجة لما اصاب الحملتين السابقتين من فشل ذريع ، فتذكر المصادر البيزنطية انه امر بصرف اربعين قطعة ذهبية لكل فرد اشترك فى هذه الحملة (٣) . وبعد وصول هذه القوات امام كريت ، وقع جزء من الاسطول فى كمين اعده المسلمون اما الجزء الباقى فقد اشترك معهم فى معركة بحرية دمر خلالها (٤) .

---

(١) فازيلييف ، العرب والروم ، ص ٦١ .

(2) Bury, op. cit., p. 290.

(٣) ونص العبارة باللغة اللاتينية هو :

«in Singulos quadraginta aureos distribuit»

وترجمتها بالعربية «وزع أربعون قطعة ذهبية على الفرد الواحد» انظر عن ذلك :

Symeon Magistri, p. 624

وقد أشار الى ذلك أيضا كيدرينوس فى كتابه موجز التاريخ ، ص ٩٧ ، باليونانية .

(4) Symeon Magistri, pp. 623—624 Genesius, p. 50; Theophanes Continuatus, p. 81,

كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٩٧ . باليونانية .

وهكذا فشلت محاولات الامبراطور ميخائيل الثانى العمورى لاسترداد كريت ، ومن اهم النتائج التى ترتبت على فشل هذه الحملات الثلاث ، تأكيد سيطرة المسلمين على كريت ، ومواصلة فتوحاتهم بها ، ثم غزوهم للسواحل والجزر البيزنطية المجاورة . ولاشك ان الهزائم المتتالية التى لقيتها القوات البيزنطية على يد الفاتحين المسلمين تدعو للتساؤل عن العوامل والاسباب الحقيقة التى ادت الى اخفاق هذه الحملات ، رغم ان الفتح الاسلامى للجزيرة كان لايزال فى مرحلتة المبكرة ، ولم يكن المسلمون قد ثبتوا اقدامهم بعد فى هذه الجزيرة ، فكيف استطاعوا ان يحرزوا مثل هذه الانتصارات على البيزنطين وان يلحقوا بحملاتهم الهزيمة تلو الاخرى ؟

ان الباحث المدقق لا يخفى عليه ان من اهم العوامل التى ساعدت على احراز فاتحى كريت المسلمين هذه الانتصارات على الدولة البيزنطية ، هى الروح الحماسية للجهاد (١) فى سبيل الله ، ذلك ان الدين الاسلامى قد فرض الجهاد على المسلمين فقال الله تعالى : «كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » (٢) وقد ثبتت فرضية الجهاد بالسنة عن ابى هريره رضي الله عنه قال : «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول والذى نفسى بيده ، لولا ان رجالا من المؤمنين لا تطيب انفسهم ان يتخلفوا عنى ، ولا اجد ما احملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغدوا فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده لوددت ان اقتل فى سبيل الله ، ثم احيا ، ثم اقتل ، ثم

(١) الجهاد كما فسره أئمة الدين الاسلامى ، أصله لغة المشقة ، يقال جهدت جهادا ، أى بلغت المشقة ، وشرعا بذل الجهد فى قتال الكفار ، ومجاهدة الكفار تقع باليد والمال واللسان والقلب . انظر ، الشافعى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، جـ ٦ ، ص ٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٦ .

احيا ، ثم اقتل ، ثم احيا ثم اقتل »(١) ويزخر القرآن الكريم بالآيات التى تحث المسلمين على الجهاد ، وعلى سبيل المثال قوله تعالى : «انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون» (٢) وهناك آيات عديدة تبين للمجاهدين ما اعده الله لهم من الثواب فى الاخرة . مثل قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله باموالكم وانفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم» (٣)

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم «ان فى الجنة مائة درجة اعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين ، كما بين السماء والارض ، فاذا سألتم الله فاسألوا الفردوس ، فانه اوسط الجنه ، واعلى الجنة اراه وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر انهار الجنة .»(٤)

هذا ، وقد بين القرآن الكريم ان من يقتل اثناء جهاده فى سبيل الله يعتبر شهيدا ، يغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ويدخله الجنة خالدا فيها فى نعيم مقيم ، قال تعالى «ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٥) .

---

(١) الشافعى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ج ١ ، ص ١٢ — ١٣ .
(٢) سورة التوبة ، أية ٤١ .
(٣) سورة الصف ، الآيات ١٠ — ١٢ .
(٤) عن ابى هريرة ، أنظر ، الشافعى ، فتح البارى ، ج ٦ ص ٩ — ١٠ .
(٥) سورة آل عمران ، الآيات ١٦٩ — ١٧٠ .

ومن الاحاديث النبوية الشريفة فى هذا الصدد ، قوله‌صلى الله عليه وسلم : «الشهداء على بارق : نهر بباب الجنة ، فى قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا» . (١) وقال ايضا «ما احد يدخل الجنة يحب ان يرجع الى الدنيا وله ما على الارض من شئ ، الا الشهيد ، يتمنى ان يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة» (٢) .

لهذا كله ، فقد اصبح الجهاد فى سبيل الله ، عقيدة لها اثرها الفعال فى نفوس المسلمين ، دفعتهم الى قتال اعدائهم من الكفار لاعلاء كلمة الله ، ومن الوثائق التاريخية الهامة التى توضح مدى تمكن روح الجهاد من نفوس المسلمين ،تلك الفقرة التى وردت فى كتاب حاكم بيزنطى فى القرن السابع الميلادى ، ارسل اليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ، فرد عليه الحاكم المسيحى قائلا : «انهم اقل منا عددا ، ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا ، ذلك انهم لا يطمعون فى شئ من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لانه افضل طريق يوصلهم الى الجنة ، فى حين نتعلق نحن بأهداب الحياه ، ونخشى الموت ، ياسيدى الامبراطور » (٣) لذلك فان بعض المؤرخين يؤكدون ان الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت الى نجاح المسلمين فى حركتهم التوسعية(٤) .

وهكذا يصبح من الممكن القول ان الجهاد فى سبيل الله هو احد العوامل الرئيسية التى ادت الى الانتصارات التى احرزها مسلمو كريت على الدولة

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القسم الثانى الطبعة الثانية ، جـ ٣ ، ص ١١٩ .

(٢) عن أنس بن مالك ، أنظر السيرة النبوية ، جـ ٣ ص ١٢٠ .

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ﺟ ١ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ ، ص ١٤٦ .

(4) Pirenne, A History of Europe, p. 47.

البيزنطية خلال هذه المرحلة المبكرة من فتحهم للجزيرة ، خاصة اذا علمنا ان روح الجهاد قد تمكنت من نفوسهم الى درجة كبيرة . مما دفع الرحالة المعاصر ابن حوقل الى القول أنهم في غاية الجهاد (١) .

وهناك ايضا الرغبة الاكيدة لهؤلاء الفاتحين فى المحافظة على هذا الكسب الجديد والاستماته فى الدفاع عنه . هذا الى جانب عوامل اخرى ، منها ان الفتح الاسلامى لكريت تم فى الوقت الذى خرجت فيه الامبراطورية البيزنطية من حرب اهلية انهكتها وعادت عليها بأسوأ النتائج سواء من الناحية العسكرية او من الناحية الاقتصادية (٢) ، وكانت لاتزال تخطوا الخطوات الاولى فى سبيل اعادة بناء قوتها البحرية ولم تكن قطعت شوطا كبيرا فى هذا المضمار ، حين تعرضت كريت للفتح الاسلامى ، ورغم ذلك فقد اضطر الامبراطور ميخائيل الثانى للقيام بمحاولاته هذه حرصا على استرداد كريت قبل ان يوطد المسلمون نفوذهم بها . يضاف لذلك كله أنه ، فى الوقت الذى تم فيه الفتح لاسلامى لكريت فى يونيه ٨٢٧م / ربيع الاول ٢١٢ هـ ، تعرضت جزيرة صقلية للغزو من جانب مسلمى شمال افريقية ، وبذلك فتحت جبهة ثانية للقتال امام الامبراطور ميخائيل الثانى تحتم عليه مواجهتها وكان لها اثرها الواضح فى تشتيت جهوده العسكرية وعدم تركيزها على كريت وحدها . ولذلك يجدر بنا الاشارة السريعة الى الفتح الاسلامى لصقلية ، مع بيان خطورته على الامبراطورية البيزنطية ، وماترتب عليه من نتائج ساعدت على نجاح الفتح الاسلامى لكريت ، واخفاق المحاولات التى قام بها البيزنطيون فى سبيل استردادها .

---

(١) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الثانى ، ص ٢٠٤ .
(٢) انظر الفصل الأول من البحث ص ٧٤-٩١ .

فى يونيه عام ٨٢٧ م (ربيع الاول ٢١٢هـ) ارسل امير شمال افريقيه زيادة الله ابن الاغلب (٢٠١ – ٢٢٣ هـ / ٨١٧ – ٨٣٨ هـ) حملة بقيادة اسد بن الفرات(١) لغزو صقلية . وقد نزلت الحملة بمدينة مازر – الى الجنوب على الساحل الغربى لجزيرة صقلية – فاستولى المسلمون عليها(٢) . ثم اتخذا الجيش الاسلامى طريقة الى مدينة سرقوسه – على الساحل الشرقى لجزيرة صقلية – وافتتح المسلمون حولها مواقع عديدة، ثم حاصروها برا وبحرا . وفى تلك الاثناء وصلت للمسلمين الامدادات العسكرية من افريقيه والاندلس وكريت ، فى الوقت الذى ارسل فيه الامبراطور ميخائيل الثانى اسطولا كبيرا الى صقليه ، كما اقنع دوق البندقية المستقل جستنيانوس Justin'anus ان يرسل الى صقلية اسطولا للتعاون مع القوات البيزنطية فى انقاذ سرقوسه . وبعد ان اجتمع الاسطول البيزنطى بأسطول البندقية ، نشبت المعركة بين الاسطولين المتحالفين والقوات الاسلامية تحت اسوار سرقوسه ، حقق فيها المسلمون انتصارا كبيرا وواصلوا حصارهم للمدينة (٣) . ولكن المعسكر الاسلامى المرابط امام سرقوسه تعرض لوباء

---

(١) هو ابو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان ، أصله من نيسابور بخراسان ، وولد بمدينة حران سنة ١٤٢ هـ (بدأت فى ٤ مايو ٧٥٩ م) ويستطرد المؤرخ المالكى فى ترجمته لحياة أسد بن الفرات قائلا : «ثم ولاه زيادة الله ابن ابراهيم ابن الأغلب قضاء افريقية سنة ثلاث ومائتين (٨١٨ – ٨١٩ م) فأقام قاضيا عليها يقضى بين أهلها بالكتاب والسنة حتى خرج لغزو صقلية فجاهد بها الروم وقاتلهم قتالا عظيما ، وكانت له آثار مشهورة ومقامات مذكورة وافتتح منها مواضع كثيرة ، ثم توفى رحمه الله تعالى من جراحات اصابته وهو محاصر لموضع» . انظر المالكى : رياض النفوس ، ص ١٧٢ – ١٧٣ .

(٢) المالكى : رياض النفوس ، ص ١٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٨٨ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٠٢ – ١٠٣ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٨٧ ، راجع كذلك فازيلييف : العرب والروم ، ص ٧٨ .

الطاعون الذى تفشى بين الجنود بشكل خطير ، وادى الى وفاة اعداد كبيرة منهم ، كان من بينهم اسد بن الفرات نفسه وذلك فى ١٣ رجب ٢١٣ هـ / أكتوبر ٨٢٨ م . فاختار الجنود خليفة له محمد بن ابى الجوارى ، وفى ذلك الوقت جاءت امدادات جديدة من القسطنطينية والبندقية لانقاذ سرقوسه ، فتحرج موقف المسلمين وارادوا رفع الحصار ، فأصلحوا سفنهم وتهيأوا للخروج ، ولكنهم ادركوا استحالة ذلك لوجود اسطول البيزنطيين والبنادقة امام مخرج ميناء سرقوسه ، فاشعل المسلمون النيران فى سفنهم حتى لاتقع فى ايدى الأعداء ، وتوغلوا فى داخل البلاد ، واتجهوا نحو الشمال الغربى لصقلية ، وحاصروا ميناو ، وبعد ثلاثة ايام استسلمت لهم ، ثم ملكوا مدينة جرجنت (كيركنت) (١) .

وقد رفعت هذه الانتصارت من معنويات المسلمين ، وخفت حدة الوباء ، ثم ساروا الى مدينة قصريانه(٢) .

---

(١) تعتبر مدينة جرجنت من المدن العريقة بصقلية ، وامتازت بحسن التنسيق وإزدهارها الحركة التجارية بها ، ومما جاء فى وصف الادريسى لها قوله : «وجرجنت مدينة متحضرة منأشرف الحواضر ، عامرة بالوارد والصادر ، وقلعتها حصينة سامية ومدينتها زاهية قديمة العمران ، مشهورة فى جميع البلدان ، بل هى من أعظم الحصون منعة ، وأجل البلاد رقعة ، يسعى اليها من ساير الآفاق ، وتجتمع بها السفن والرفاق ، ديارها سامية فى الدبار ، ومحلاتها تفتن الأنظار ، وبها أسواق جامعة لأصناف الصنائع ، وضروب المتاجر والمبايع ، وبها حدائق وجنات رايقة ، وأصناف كثيرة من الثمرات أزلية أدلية ، تدل آثارها على سلطنة علية ، ويحمل على كل ما وصل اليها من عظام السفن وما يتجاوز أوساقها فى الأيام القلائل ... وبها جنات وفلات مشهورات ، وهى على ثلاث أميال من البحر .» انظر : الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢١ — ٣٢ .

(٢) ذكرها الادريسى بأسم قصريانى ، ووصفها بقوله : «هى مدينة جليلة فى أعلى جبل ذات حصن حصين ومعقل متين ، قطرها واسع وفناؤها شاسع ، ولها أسواق حميلة الترتيب ، وديار متقنة التركيب ، وصنائع وبضائع ، وصناع ومتاجر وأمتاع . ولها عمل واسع المجال وأقاليم واسعة الحال ، مزارعها زعية ، وغلاتها مرضية ، وهوآها بارد ، ومرافقها تشق الصادر والوارد ، وبالجملة أنها امتع بلاد الله مكانا ، وأوثقها بنيانا ، ولها مع حصانتها فى جبلها مزارع ومياه جارية .» انظر : الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ٤٢ — ٤٣ .

واثناء حصار المسلمين لقصريانه ، ارسل الامبراطور ميخائيل الثانى حملة كبيرة على صقلية ،لوقف الزحف الاسلامى بها ،والعمل على اجلاء المسلمين عما افتتحوه من بلاد . وكانت هذه الحملة بقيادة احد القادة الممتازين فى الامبراطورية البيزنطية ويدعى تيودوت Theodotus ، وقد نازل هذا القائد المسلمين تحت اسوار قصريانه ولكنه هزم ، وقتل المسلمون اعداد كبيرة من جيشه ، كما اسروا اعدادا اخرى ، كان من بينهم تسعون بطريقا اما تيودوت فقد لجأ بمن تبقى معه الى داخل قصريانه . واستمر المسلمون محاصرين للمدينة ووقع بينهم وبين البيزنطيين عدة اشتباكات تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة . وعلى اثر احدى الهزائم التى الحقها تيودوت بالمسلمين ، انسحبوا الى ميناو ، فتبعهم اليها وحاصرهم بها . وحين علمت الحامية الموجودة بمدينة جرجنت بما حدث لاخوانهم المحاصرين بميناو ، قامت بتخريب جرجنت وسارعت بالخروج منها لاغاثتهم ، ولما ادركت استحالة ذلك ، انسحبت الى مدينة مازر . وفى عام ٢١٤ هـ وصلت الى المسلمين بصقلية امدادات كثيرة من افريقية والاندلس ، بلغت ثلاثمائة سفينة محملة بالرجال ، فتقووا بها واضطر تيودوت الى الانسحاب من امام ميناو (١) . وفى ذلك الوقت من خريف عام ٨٢٩ م ، توفى الامبراطور ميخائيل الثانى (اكتوبر ٨٢٩ / شعبان ٢١٤ هـ) (٣) ،وبوفاته وضعت

---

(١) ابن خلدون : أخبار دولة بنى الاغلب ، ص ٤٣ — ٤٤ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٨٧ — ١٨٨ ، راجع كذلك ، فازيلييف : العرب والروم ، ص ٨٣ — ٨٤ .

(٢) والجدير بالذكر أن الصراع استمر قائما أمدا طويلا ، بين خلفاء هذا الامبراطور والمسلمين فى صقلية ، وقد أخذ المسلمون يواصلون فتوحاتهم بها حتى أجلوا البيزنطيين عنها . انظر : ابن خلدون : أخبار دولة بنى الاغلب ، ص ٤٥ وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٥ ، ص ١٨٨ وما بعدها . راجع أيضا ، بيورى : تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ص ٣٠٤ وما بعدها ، فنلاى : تاريخ اليونان ، حـ ٢ ، ص ١٣٨ وما بعدها .

الخاتمة لحياة هذا الامبراطور الذى شاهد عصره انهيار سيطرة بيزنطة فى البحر المتوسط ، والبحر الادريانى نتيجة للغزو الاسلامى لجزيرتى كريت وصقلية ، وان كان هو لم يدخر جهدا فى سبيل استخلاصهما من قبضة المسلمين .

على ان السياسة النشطة التى انتهجها ميخائيل الثانى والخاصة بمحاولاته المستمرة لاسترداد كريت ، لم تلبث ان اصيبت بنكسة فى عصر خليفته ثيوفيل (١) (٨٢٩ — ٨٤٢) ، اذا لم يرد فى المصادر المعاصره او المتأخره أية اشارة لأية حملة ارسلها ضد كريت ، هذا رغم الغارات العنيفة التى قام بها مسلمو كريت على الممتلكات البيزنطية ، وبخاصه فى الايام الاولى من عصر هذا الامبراطور . فبمجرد ان تولى ثيوفيل العرش فى اكتوبر ٨٢٩ م (شعبان ٢١٤ هـ) خرجت من كريت حملة بحرية قدر المؤرخ البيزنطى موناخوس عدد سفنها بخمسين سفينة حربية ، حيث هاجمت شواطئ أيونيا Ion'a ، وكاريا Caira — على الساحل الجنوبى الغربى لاسيـــا الصغرى كما هاجمت اديرة الرهبان فى جبل اتوس

(١) امتاز الامبراطور ثيوفيل بسعة الأفق وشدة اهتمامه بالعلوم والفنون البيزنطية والاسلامية على السواء ، كما كان من أشد المناهضين لعبادة الصور المقدسة ، وقد شهد عصره الموجه الأخيرة للحركة اللا ايقونية . ومن الأمور المشهورة عن هذا الامبراطور حرصه على نشر العدل فى أرجاء الامبراطورية ، فأخذ فى تقليد الخليفة العباسى هارون الرشيد فيما اشتهر به من العداله ، فيقال انه كان يطوف بأنحاء عاصمته القسطنطينية ليلا ، ويتحدث إلى الفقراء والمساكين ويستمع إلى شكواهم ، وينزل أشد العقاب بمن أوقع بهم الظلم من الموظفين مهما ارتقت مكانتهم ومن الخصائص المميزة لعصره ، حروبه مع المسلمين على الجبهة الشرقية للامبراطورية البيزنطية انظر عن ذلك :

Bury, op. cit., pp. 121—122; Ostrogorsky, History of the Byzantine State, pp. 183—184.

راجع كذلك ، نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٤ .

Atus (١) ، وقد ترتب على هذه الهجمات ان هجر الرهبـــان صوامعهم وفروا طالبين السلامة لأنفسهم (٢) . وفى نفس عام ٨٢٩ م / ٢١٤ هـ ، ابحر اسطول من كريت ، وهاجم سواحل تراقيا ، واستـــولى المسلمون منها على غنائم وفيرة ، وعلى العديد من الاسرى . وفى طريق عودتهم فاجأهم حاكم ولاية تراقيا ويدعى قسطنطين كونتوميتس Constantinus Contomytes ، واشتبك معهم فى معركة بحرية ، لم تحدد المصادر مكانها على وجه الدقة ، وكما يذكر صاحب صلة ثيوفان ، فان الاسطول الكريتى دمر تماما وابيد من فيه من المسلمين (٣) . ولكن البيزنطيين لم يهنأوا بهـــذا الانتصار طويلا ، اذ بعد وقت قصير من المعركة ، واثناء احدى غارات الكريتيين على جزر السيكلاديز (٤) ، تقابل الاسطول الكريتى فى طريـــق العودة ، مع اسطول بيزنطى عند جزيرة تاسوس Thasos — احدى

---

(١) يقع جبل آتوس فى شبه جزيرة خلقيديه ، ويبلغ ارتفاعه نحو ستة آلاف وثلاثمائة قـدم . وكان المسيحيون يعتبرونه أثرا دينيا وبنوافيه الكثير من الكنائس والأديرة ، ومن أشهرها دير لور Laure ، الذى أسسه القديس اثناسيوس فى القرن العاشر الميلادى . انظر : الخانجى : منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان ، جـ ٩ ، ص ١٨ راجع أيضا :

Ostrogorsky, op. cit., p. 253.

(2) Monachus, op. cit., pp. 791—792; Theophanes Continuatus, p. 137.

(3) Theophanes Continuatus, P 137.

(٤) تقع جزر السيكلاديز فى الطرف الجنوبى الغربى للبحر الايجى ، وهى تشمل الجزر التالية : لمنوس Lemous ، سكيروس Scyrus ، ميلوس Melus ، امولجوس Amolgus ، ثيرا Thera ، ثيراسيا Therasia ، ربنيا Rhenea ، ديلوس Delus ناكوس Naxus . انظر .

Constantin Porphyrogenetus, De Thematibus, Liber 1, p. 43.

جزر البحر الايجى – واوقع المسلمون بالاسطول البيزنطى هزيمة مروعة وانزلوا به التدمير(١).

ورغم هذه الغارات التى قام بها مسلمو كريت على الممتلكات البيزنطية الا ان الامبراطور ثيوفيل لم يبذل أية محاولة عسكرية بقصد استرداد كريت وامتدادا لسياسة والده ميخائيل الثانى فى هذا الشأن والباحث فى هذا الموضوع يدرك ان السبب فى ذلك يرجع الى انشغاله بالحروب مع المسلمين على الجبهة الشرقية للامبراطورية ، تلك الحروب التى استحوذت على جانب كبير من اهتمامه ونشاطه العسكرى طوال عهده . لذلك فمن الضرورى الاشارة الى هذه الحروب لبيان الاسباب التى أدت الى انصراف ثيوفيل عن محاولة استرداد كريت ، واستكمالا للنظرة الموضوعية الشامله لمسرح الاحداث وقتذاك .

لقد استغل الامبراطور ثيوفيل الظروف العصيبة التى كانت تمر بها الدولة العباسية وقتذاك والخاصة بفتنة بابك ، ومحاولات الاستقلال من جانب ولاة مصر ، واشعل الحرب معها محاولا كسب فتوحات بيزنطية فى المشرق الاسلامى . لكن هذه الحروب تطورت بشكل ادى الى تفوق العباسيين واحرازهم العديد من الانتصارات التى كللت بفتح مدينة عمورية .

وقد بدأ الامبراطور ثيوفيل حربه مع العباسيين فى ربيع عام ٨٣٠ م / ٢١٥ هـ ، فنزل على مدينة زبطره (٢) ، واستولى عليها ، وانزل بها الخراب والدمار ، وقتل اعدادا كبيرة من سكانها . وما كاد الخليفة المأمون

---

(1) Theophames Continuatus, p. 137.

(٢) تقع مدينة زبطرة فى أقليم أعالى الجزيرة ، بين مدينتى ملطية وسميساط . أنظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ٣٧٤ .

يعلم بنبأ هذه الغارة حتى صمم على الثأر ، فخرج من بغداد يوم السبت ٢٧ المحرم ٢١٥ هـ (٢٦ مارس ٨٣٠ م) ، ووصل الى مدينة الموصل – فى اعالى الجزيرة – ثم نزل الى شمال الشام ومر بمدن منبج ودابق وانطاكية ، التى رحل منها الى المصيصة ثم الى طرسوس ، وخرج منها فى ١٥ جمادى اولى ٢١٥ هـ (يوليه ٨٣٠ م) غازيا فى الممتلكات البيزنطية فى قبادوقيا ، ففتح حصون بها مثل حصنى ماجده وقرة ، ونجح بعض قادته فى فتح حصنى سندس وسنان ، ثم عاد الخليفة الى بلاده بعد ان انتقم لما انزله الامبراطور ثيوفيل من تخريب بمدينة زبطره (١) .

وفى العام التالى (٢١٦ هـ / ٨٣١ م) قام الامبراطور ثيوفيل بغارة علـى مدينتى المصيصة وطرسوس ، وقتل من اهليهما الفا وستمائة نفس ، فخرج المأمون فى ١٩ جمادى الاول ٢١٦ هـ (٢ يوليه ٨٣١ م) للرد على هذا الهجوم وحين وصل الى مدينةأدنه– فىاقليم قيليقية–جاءته رسل ثيوفيل تعرض عليه ان تعقد بينهما الهدنةلمدة خمس سنوات مقابل ان يدفع له الامبراطور مائة الف دينار (٢) ، وان يطلق سراح الاسرى المسلمين الموجودون بالبلادالبيزنطية على ان يرد اليه الخليفة المأمون ما أفتتحه من المدن والحصون البيزنطية (٣) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٠ .

(٢) الدينار عملة ذهبية استخدمها المسلمون ، وهو يساوى عشرون قيراطا من الذهب . وكان ببغداد نوعين من الدنانير ، أحدهما يسمى «العوال» ويساوى أثنا عشر درهما ، والآخر يدعى «المرسل» ، ويساوى عشرة دراهم ، وكان الأخير أكثر شيوعا واستخداما فى بغداد ، واستعمله الأهالى فى أغلب مبايعاتهم ومعاملات تجارهم . انظر ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ٤٢٢ .

(٣) اليعقوبى : التاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٩٢ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٣ .

لكن الخليفة المأمون رفض قبول هذا العرض ، وتقدم الى مدينة هرقلة (١) ، التى استسلمت له دون قتال ، ووجه اخاه ابا اسحاق (٢) ، فافتتح ثلاثين حصنا بيزنطيا لم تذكر المصادر اسماءها ، كما استطاع احد قادته ويدعى يحى بن اكثم ان يغير على مواقع عديدة للبيزنطيين «فأغار وقتل وحرق واصاب سبيا ورجع الى العسكر» (٣) . وبعد ذلك رحل الخليفة المأمون بجيشه الى دمشق ، ومنها الى مصر ليقضى على فتنة نشبت بها ، وظل بمصر من فبراير الى ابريل ٨٣٢ م ، ثم عاد لاستئناف القتال مع البيزنطيين وكان هدفه هذه المرة قلعة لؤلؤه التى تشرف على درب قيليقية وتتحكم فيه ، ونزل عليها محاصرا ، واستمر محاصرا لها لمدة مائة يوم دون جدوى . فرحل عنها وترك امامها قائده عجيف وامره بالاستمرار فى الحصار حتى تسقط المدينة ، ولكن الاهالى احتالوا على هذا القائد حتى اسروه ، فى الوقت الذى خرج فيه الامبراطور ثيوفيل فاحدق بالجيش الاسلامى المرابط امام القلعة ، ولما علم الخليفة بذلك ارسل قواته لمنازلة الامبراطور ، الذى فضل ان يرحل قبل وصول هذه القوات ، وحين علم اهالى لؤلؤه برحيل الامبراطور اطلقوا سراح عجيفا وسلموا له القلعة (٤) .

عزم الخليفة المأمون على فتح مدينة عمورية ، والمعروف ان هذه المدينة تقع فى وسط آسيا الصغرى ، وكان الاستيلاء عليها يعتبر خطوة فى سبيل

---

(١) تقع مدينة هرقلة فى أقليم قيليقية ، ووصفها القلقشندى بقوله : «وهى فى شرق نهر ينزل من جبل العلايا إلى نحو سنوب ، وهرقلة عليه فى غرب البحر ، وفى شرقها جبل الكهف» انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٥٠ .

(٢) هو الذى تولى الخلافة بعد المأمون وعرف بأسم المعتصم بالله ابو اسحق محمد بن الرشيد ، انظر السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، ص ١٣٣ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .

الوصول الى القسطنطينية ذاتها (١) . كما انها تعتبر من امنع وأحصن البلاد البيزنطية ، ويذكر المؤرخ الطبرى ان عمورية «هى عين النصرانية وهى اشرف عندهم من القسطنطينية» (٢) يضاف لذلك ان هذه المدينة هى مسقط رأس الاسرة العمورية الحاكمة التى ينتمى اليها الامبراطور ثيوفيل ، وكان استيلاء المسلمين عليها يعد ضربة قاصمة تذل الامبراطور وتقضى على هيبته وقد اخذ المأمون فى الاستعداد لحملته على عمورية ، وحين علم ثيوفيل بذلك بعث اليه برسالة عاود فيها طلب الهدنة الذى سبق ان تقدم بها فى عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م) (٣) .لكن رد الخليفة المأمون (٤) عليه كان مليئا بالوعيد واالتهديد واشترط لقبول الهدنة ، اعتناق الامبراطور وشعبه للدين الاسلامى الحنيف او دفع الجزية السنوية للخليفة العباسى ، شأنه فى ذلك شأن اهل الذمة من المسيحين واليهود الموجودين بالبلاد الخاضعة لسلطة الخليفة المسلم . وفى حالة قبول الامبراطور لهذا الشرط يكون ذلك بطبيعة الحال اعتراف ضمنى منه بالمأمون كسيد اعلى له .

ويبدو ان الامبراطور ثيوفيل رفض شروط الخليفة المأمون ، الذى واصل استعداداتة العسكرية الخاصة بحملته على عمورية ، وخرج على رأس جيوشه فى عام ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) متخذا طريقه فى آسيا الصغرى ، وحين وصل الى موضع يسمى البدندون بين لؤلؤه وطرسوس ، حلت به حمى

---

(1) Bury, op. cit., p. 262.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣٣٥ .

(٣) انظر نص خطاب الامبراطور ثيوفيل إلى الخليفة المأمون فى المصدر التالى .
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٣ .

(٤) انظر نص رسالة الأمبراطور ثيوفيل إلى الخليفة المأمون ، ورد المأمون عليها فى الملحق رقم ١

شديدة أدت الى وفاته فى ١٣ رجب ٢١٨ ﻫ (٧ اغسطس ٨٣٣ م) (١) . وهكذا لم يمتد الاجل بالخليفة المأمون ليتم هذا المشروع الذى بدأه ، فتوفى تاركا لخليفته المعتصم (رجب ٢١٨ ﻫ — ربيع الاول ٢٢٧ ﻫ / اغسطس ٨٣٣—يناير ٨٤٢ م)(٢) مهمة تحقيق هذا النصر الخاص بفتح مدينة عمورية.

وترجع اسباب هذا الفتح الى ان بابك الخرمى حين شعر بالتضييق عليه من جانب الافشين قائد الخليفة المعتصم ، ووجد انه اضعف من ان يقف فى وجهه « كتب الى ملك الروم ثيوفيل بن ميخائيل بن جورجس يعلمه ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتليه اليه ، حتى وجه خياطه يعنى جعفر بن دينار وطباخه يعنى ايتاخ ، ولم يبق احد على بابه ، فان اردت الخروج اليه ، فاعلم انه ليس فى وجهك احد يمنعك»(٣) وكان بابك يرمى من وراء ذلك بطبيعة الحال ، ان يفتح الامبراطور ثيوفيل جبهة قتال ثانية امام العباسيين ، يكون لها اثرها فى تشتيت جهودهم العسكرية ، وبالتالى تخف وطأة قتالهم له . وقد استجاب له الامبراطور ، وقام فى عام ٢٢٣ ﻫ(ديسمبر ٨٣٧ — نوفمبر ٨٣٨ م) بهجوم كبير على مدينة زبطره فخربها وأسر كثيرا من اهلها ، ثم نزل على ملطية ، فأغار عليها وعلى بعض الحصون الاسلامية المجاورة لها ، وقد مثل الامبراطور بمن وقع فى يده من الاسرى ، فأمر بسمل عيونهم وقطع أذانهم وانوفهم(٤)

(١) اليعقوبى : التاريخ ، ج٢ ، ص ١٩٦ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٩٣ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، ص ١٣٣ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٤ .

(٤) تقع مدينة ملطية فى أقليم الجزيرة إلى الشمال من مدينة حلب فى شمال الشام ، وهى تمتاز بموقعها الاستراتيجى الهام عند أحد الممرات المؤدية من أراضى الدولة البيزنطية إلى أقليم الجزيرة ،=

وحين وصلت أنباء هذه الغارة الى الخليفة المعتصم ، وان امرأة هاشمية صاحت وهى فى ايدى البيزنطيين «وامعتصماه »، استعظم ذلك وصمم على الثأر ، وبعد أن انتهى من القضاء على بابك الخرمى فى عام ٢٢٣ هـ (٨٣٨م) اخذ يستعد لتنفيذ مشروع الخليفة المأمون ، الخاص بفتح مدينة عمورية . وفى يوم الخميس ٦ جمادى الاول ٢٢٣هـ (اول ابريل ٨٣٨م) ، غادر المعتصم عاصمته سامراء على رأس جيش كبير ، قدره المؤرخ المسعودى مابين المائتـــى والخمسمائة الف (١)، وتشير المصادر البيزنطية التى عرضت لهذه الحملة(٢) الى ان المعتصم امر ان يكتب على الالوية والتروس اسم عمورية التى اتخذ الجيش طريقه اليها،وتوقف هذا الجيش على نهر اللامس(٣) وقرر المعتصم ان يغزو البلاد البيزنطية من عدة جهات ، فأرسل جزءا من الجيش على رأسه القائد الافشين نحو مدينة سروج ، وامره ان يدخل من ناحيتها الى الاراضى البيزنطية عن طريق درب الحدث . كما ارسل جزءاً أخرا من الجيش بقيادة القائد اشناس وكان عليه ان يدخل الى مدينة الصفصاف عن طريق درب طرسوس وحدد الخليفة للقائدين يوما معينا يجمعان فيه مع

= وجاء فى وصفها أنها «بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار وهى مسورة ، ولها قنى تدخلها وتجرى فى دورها ، إلا أنها شديدة البرد» . انظر ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ ، القلقشندى صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٣١ .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣٣٤ ، المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ١٦٩ ، ابو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ٣٦ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٩٥ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٣) يقع نهر اللامس فى سلوقيه وبينه وبين طرسوس مسيرة يوم واحد ، انظر ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣٣٥ .

باقى الجيش امام مدينة انقره(١)، التى سار اليها الخليفة مع باقى قواته(٢) ولما وصلت انباء هذه الحملة الى الامبراطور ثيوفيل ، خرج من القسطنطينية على رأس جيشه لمنازلة المسلمين . وتوقف عند دوريليوم Dorylaiom (٣) وهناك وصلته الانباء عن ضخامة الجيش الاسلامى وعظم استعداداته ، وقد دفع ذلك فريقا من القادة البيزنطيين الى نصحه باخلاء عمورية من سكانها صونا للدم المسيحى ، ولكن الامبراطور رفض الاستماع لهذه النصيحة ، وفضل ان يزيد من تحصينات عمورية ، وان يعهد بالدفاع عنها الى قائد قدير يدعى ايتيوس Aetius وهو المعروف لدى المؤرخين المسلمين باسم ياطس (٤) وكان يشغل وقتذاك منصب حاكم ثيم الاناضول . كما ارسل الامبراطور الى عموريه تعزيزات ضخمة بقيادة تيودور كراتيروس Theodore Krateros ، وقسطنطين بايوتريكوس Constantin Baiotrikos (٥) اما الامبراطور ثيوفيل فقد عسكر وراء نهر الهليس منتظرا مرور الخليفـــه المعتصم بجيشه لينقض عليهم ، ، وظل معسكرا فى هذا الموضع ما يقرب من الشهر ، وحين بلغه ان جيش الافشين دخل الى الاراضى البيزنطية من

---

(١) تقع مدينة انقرة فى وسط آسيا الصغرى ، ويذكر القلقشندى أنها «بلدة لها قلعة على تل عال وهى بين الجبال ، وليس بها بساتين ولا ماء ، يشرب أهلها من الآبار» . انظر ، القلقشندى صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٥٤ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ ، المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٩٦ .

(٣) دوريليوم هى احدى المدن بآسيا الصغرى ، وتقع إلى الغرب من مدينة عمورية وبينهما مسيرة ثلاثة أيام ، انظر ، فازيلييف : العرب والروم ، ص ١٣٢ .

(٤) اليعقوبى : التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٩ .

(5) Monachus, p. 805; Theophanes Continuatus, p. 26; Symeon Magistri, pp. 638—639; Zonaras, p. 416.

ناحية ثيم الارمنياق ، ذهب على رأس قواته لمنازلته ، والتقى الطرفان فى معركة صباح يوم الخميس ٢٥ شعبان ٢٢٣ هـ (٢٢ يوليه ٨٣٨ م) عند مدينة دازيمون Damo. (١) ، واحرز البيزنطيون الانتصار فى بادئ الامر ، ولكن الموقف تغير عند الظهر حين وصل الفرسان المسلمون فانقضوا بشدة على قوات الامبراطور وشتتوها فلاذ معظمها بالفرار . وتتفق المصادر العربية (٢) والبيزنطية على ان الامبراطور نفسه لم ينج الا بصعوبه ، ونذكر على سبيل المثال قول الماجستر سيميون : «وانشب الامبراطور القتال ، فانهزم وهرب وعاد بالخزى ولم ينج الا بصعوبة»(٣) .

وبعد هذه الهزيمة عاد الامبراطور الى معسكره السابق عند نهر الهليس حيث اجتمع بفلول جيشه ، وارسل الى المدن والحصون يأمر من بها بالقبض على الجنود الهاربين وجلدهم وارسالهم لحرب المسلمين ، اما هو فاتخذ طريقه الى مدينة نيقية ومنها الى دوريليوم ، وأقام هناك فى انتظار ما سوف يحل بعمورية على يد الخليفة المعتصم (٤) . اما الافشين فبعد انتصاره على الامبراطور ، واصل طريقه الى انقره ، وامامها اجتمع بجيش الخليفة المعتصم وجيش اشناس ودخل الجميع الى مدينة انقرة ، التى هجرها اهلها ، فاستولى

(١) تعرف حاليا بأسم توكات ، انظر فازيلييف ، العرب والروم ، ص ٢٠٣ . ،

(٢) انظر على سبيل المثال الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣٣٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ص ١٩٧ – ١٩٨ ، المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦

(3) Symeon Magistri, p. 638.

أنظر كذلك :

Monachus, p. 803; Genesius, p. 68; Theophanes Continuatus, p. 127.

(4) Genesius, pp. 68—69; Theophanes Continuatus, pp. 128—129; Zonaras, pp. 416—417.

انظر كذلك ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .

عليها المسلمون وخربوها (١) . وقد كان لتخريب هذه المدينة وللهزيمة التى لقيتها القوات البيزنطية على يد اشناس ، اسوأ الاثر فى نفس الامبراطور ثيوفيل ، فقام بآخر محاولة لانقاذ مدينة عمورية من مصيرها المحتوم ، وتذكرا المصادر العربية والبيزنطية على السواء ، ان الامبراطور ثيوفيل ارسل الى الخليفة المعتصم سفاره اوضحت له ان قادة الجيش البيزنطى قد تجاوزو اوامره اثناء حملته على زبطرة عام ٨٣٧ م (٢٢٣ ﻫ) ، وان الامبراطور يعد بتسليم كل من قام بعمل تخريبى ضد هذه المدينة ، كما أوضحت هذه السفارة استعداد الامبراطور لاعادة بناء زبطره على نفقة الخاصة وأن يعيد اليه جميع من اسرهم منها مضافا اليهم جميع الاسرى المسلمين الموجودين بالبلاد البيزنطية (٢) . لكن الخليفة المعتصم لم يستمع الى هذه الوعود المذله وسخر من رسل الامبراطور واتهم البيزنطيين بالجبن واحتجز الرسل(٣)

اتخذ الجيش الاسلامى بعد ذلك طريقه الى عمورية ، ووصل امامها يوم الجمعة ٦ رمضان ٥٢٣ﻫ (اول اغسطس ٨٣٩م)(٤)، وعلى الفور بدأ المسلمون الحصار ، وقد هاجموا السور — الذى كان على جانب كبير من الحصانه وكان يشتمل على ٤٤ برجا — هجمات متتالية بشجاعة ومثابرة ، غير ان هجومهم لم يكلل بالنجاح نظرا لاستماتة اهل عمورية فى الدفاع عنها

---

(١) الطبرى : نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ٣٣٨ .

(٢) قال المؤرخ اليعقوبى عند تعرضه لهذه السفارة : «فأوفد طاغية الروم من قبله وفد إلى المعتصم يقول أن الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمرى وأنا ابنيها بمالى ورجالى وأرد من أخذ من أهلها واخلى جملة من فى بلد الروم من الاسارى وأبعث اليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة» . انظر اليعقوبى : التاريخ ، ج ٢ ص ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

(٣) وقد سيرهم الخليفة إلى بلدهم بعد فتحه مدينة عمورية ، أنظر عن ذلك المصادر التالية :—
Genesius, op. cit., pp. 64—65; Theophanes Continuatus, pp. 129—130

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٤٣ .

ويذكر الماجستر سيميون فى هذا العدد «وصل أمير المؤمنين بقوة كبيرة ، وحاصر عمورية وشن عليها هجمات كثيرة ، فلم يقو على تخريبها ، لان اهلها حاربوا فى كرامةوثبات».(١)اما كيدرينوس فيقول«وهاجم السراقنه(٢) المدافعين عـــن اسوار المدينة ، ولكن الروم الذين كانوا فيها كانوا معتزين بقوتهم يحاربون بشجاعة ويردون عن مدينتهم آلات الحصار»(٣). ونستكمل الوصف من صاحب صلة ثيوفان الذى يقول : « ومات من الطرفين رجال كثيرون من المحصورين والمحاصرين ،ولم ينل المسلمون شيئا زمنا طويلا ، واحسوا بفداحة الخطر لقتل الكثيرين منهم . ويستطرد قائلا ان عدد القتلى من الجانبين بلغ سبعين الفا»(٤) وهذا الرقم وان كان مبالغا فيه الا انه يدل على مدى الخسارة فى الارواح التى لحقت بالطرفين .

وقد انتهى حصار المسلمين لعمورية باستسلام المدينة فى اغسطس ٨٣٩م (١٨ رمضان ٢٢٣ هـ) ، فاستباحها المسلمون ووقعت بين ايديهم اعداد كبيرة من السبايا والاسرى، كان من بينهم عدد كبير من البطارقة واهل الشرف ، وامر الخليفة المعتصم بهدم اسوار عمورية وابوابها ، ثم انصرف عائدا الى بلاده(٥) .

---

(1) Symeon Magistri, op. cit., p. 638.

ويذكر المؤرخ موناخوس نفس المعنى ، أنظر :

Monachus, op. cit., p. 806.

(٢) الأصل اليونانى للكلمة كما ذكرها كيدرينوس هى (ساراقينوس) ومعناها بالعربية «عبيد سارة» . وهى احدى التسميات التى أطلقها البيزنطيون على المسلمين ، ويفسر المؤرخ المسعودى أصل هذه التسمية بأنها طعنا من الروم على السيدة هاجر وأبنها اسماعيل ، حيث أنها كانت أمة للسيدة سارة انظر المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ١٦٨ .

(٣) كيدرينوس ، ص ١٣٥ باليونانية .

(4) Theophanes Continuatus, p. 130.

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣٤٢ . انظر كذلك المصادر البيزنطية التالية :=

وتشير المصادر البيزنطية الى سفارة ارسلها الامبراطور ثيوفيل الى الخليفة المعتصم بعد فتح عمورية ، عرض فيها ان يدفع للخليفة مائتى قنطار ذهبا فداء لاسرى عمورية ، وعلى الاخص بعض اتباعه المقربين ، لكن الخليفة رفض هذا العرض موضحا ان نفقات الجيش فقط فى حملته على عمورية بلغت الف قنطار من الذهب(١) .

كان ذلك هو الصراع الذى اشتعل بين العباسيين والدولة البيزنطية فى عهد ثيوفيل ، والذى يتصل اتصالا وثيقا بالصراع الكريتى البيزنطى ، أذ ان هذه الحروب المتواصلة مع العباسيين لم تمكن الامبراطور ثيوفيل من معالجة مشاكله مع جزيرة كريت ، والعمل على اخراجها من ايدى فاتحيها المسلمين ، ويلاحظ ان المصادر لم تمدنا بشئ عن طبيعة العلاقات بين جزيرة كريت والدولة البيزنطية خلال فترة الصراع البيزنطى العباسى ، ومن الجائز ان يكون مسلمو كريت قد واصلوا غاراتهم على الاراضى البيزنطية خلال هذه المرحلة ، ولكن لم تصلنا اخبار هذه الغارات . او لعلهم نعموا بفترة من الهدوء والاستقرار اثناء انشغال البيزنطيين عنهم . وان كان المرجح ان يكونوا قد استغلوا الظروف التى مرت بها الدولة البيزنطية وقتذاك ، وعملوا على مواصلة فتوحاتهم فى الجزيرة محاولين استخلاصها لانفسهم والقضاء على النفوذ البيزنطى فيها ، فثمة اشارة اوردها المؤرخ ابن تغرى بردى (٢) يفهم منها ان المسلمين قد اتموا فتح جزيرة كريت فى ٢٣٠ هـ)١٨ سبتمبر ٨٤٤ — ٦ سبتمبر ٨٤٥ م)، والجزء الاخير من مرحلة الفتح هذه يغطى كل عصر

= Monachus, p. 805; Genesius, p. 65; Symeon Magistri, p. 639; Zonaras, p. 417.

(١) Genesius, p. 66; Theophanes Continuatus, p. 131.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ .

الامبراطور ثيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢ م) ، وهذا يدعوا للتساؤل عما اذا كان هناك اتفاق مثلا ، تم بين امارة كريت والخلافة العباسية ببغداد ، بقصد ان تفتح هذه جبهة ثانية للقتال مع الدولة البيزنطية فى المشرق ، حتى يتفرغ الفاتحون المسلمون لمواصلة فتوحاتهم فى ارجاء الجزيرة الكريتية وطرد النفوذ البيزنطى منها . والواقع اننا لانستطيع ان نؤكد عقد مثل هذا الاتفاق بينهما اذ لاتشير المصادر من عربية وبيزنطية الى اى اتفاق من هذا النوع فضلا عن ان الجانب البيزنطى هو الذى بدأ هذه الحروب مستغلا الظروف السياسية الحرجة التى تعرضت لها الدولة العباسية انذاك ، لذلك فان الامر على مايبدو لا يعدو أن يكون مجرد ظروف سياسية طارئة ظهرت على مسرح الحوادث فى هذه الفترة من الزمن ، وهيأتها احداث معينة خاصة بالدولتين العباسية والبيزنطية واستغلها مسلمو كريت لصالحهم .

وقد كان للهزائم التى انزلها مسلمو كريت بالدولة البيزنطية منذ بداية فتحهم للجزيرة وحتى ذلك الوقت ، اسوأ الاثر فى نفس الامبراطور ثيوفيل ، وزاد من شعوره بالمرارة الضربات العنيفة التى انزلها به العباسيون فى آسيا الصغرى ، وادرك هذا الامبراطور حينئذ انه لاقبل له بمواجهة المسلمين ، فأخذ فى طلب المساعدة العسكرية من الخارج . وقد اشار المؤرخ المغربى المقرى الى سفارة ارسلها الامبراطور ثيوفيل الى الخليفة الاموى عبد الرحمن الثانى (٨٢٢ — ٨٥٢ م / ٢٠٧ — ٢٨٣ هـ) وذلك فى عام ٢٢٥ هـ (٨٣٩ — ٨٤٠ م) . ولم يعرض المقرى لتفاصيل هذه السفاره ، وانما اشار اليها فى عبارات سريعة مقتضبة ، فقال ان الامبراطور ثيوفيل — الذى ذكره باسم توفلس — ارسل للامير عبد الرحمن «يطلب مواصلته ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق» . (١) ولم تمدنا المصادر الاخرى بأيه تفاصيل عن

(١) المقريزى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، جـ ١ ، ص ٣٢٤ .

هذه السفارة ، او مضمون رسالة الامبراطور الى الامير الاموى . ولكن ، لحسن الحظ ، وصلنا رد الامير عبد الرحمن على رسالة ثيوفيل . فقد عثر المؤرخ الفرنسى ليفى بروفنسال Levi Provensal فى مكتبه جامع القرويين بمدينة فاس ، على مخطوط يدعى «المقتبس» للمؤرخ الاندلسى ابى مروان ابن حيان ، الذى عاش فى القرن التاسع الميلادى . وقد اورد ابن حيان فى مخطوطه نص الرسالة التى رد بها الامير عبد الرحمن على خطاب الامبراطور البيزنطى ثيوفيل ، وقام بروفنسال بنشرها (١) . ومنها يتضح ان الامير عبد الرحمن تناول الاجابة فقره فقره على ر سالة ثيوفيل . ويفهم من هذا الرد ان الامبراطور البيزنطى ارسل اليه يطلب منه التعاون معا فى عمل عسكرى مشترك ضد العباسيين فى المشرق ، وضد جزيرة كريت ايضا ، بحيث يؤول ملك العباسيين الى الامير الاموى ، اما كريت فلم يوضح ماذا سيتم بشأنها ، ومن المرجح انه طلب ان تعود الى الدولة البيزنطية ، او على الاقل يمنع المسلمون بها من الاغارة على الممتلكات البيزنطية ، ويبدو ان الامبراطور ثيوفيل اوضح للامير الاموى عجزه عن الوقوف وحده فى وجه مسلمى كريت ، وطلب منه التدخل لوضع حد لغاراتهم على الاراض البيزنطية . فقد اخذ الامير الاموى — فى لهجة لاتخلو من التهكم يبدى تعجبه من عجز الامبراطور البيزنطى من حفظ ممتلكاته والضرب على ايدى هذه الفئه القليلة ، فقال موجها كلامه الى ثيوفيل : واماما ذكرت من امر ابى حفص الاندلسى (٢) ومن صار معه من أهل بلدنا فى خضوعهم لابن مارده ، (٣)

---

(١) نشرها بروفنسال فى المجلد الثانى عشر من المجلة البيزنطية ، أنظر

Byzantion, vol. 12, Paris, 1937, pp. 17—20.

انظر نص الرسالة مع التعليق عليها فى الملحق رقم ٢ .

(٢) هو حاكم امارة كريت آنذاك .

(٣) يقصد الأمير عبد الرحمن الأموى بأبن الخليفة مارده العباسى المعتصم بالله ، لأن أمه كانت=

فأنه لم ينزع اليه منهم الاسفلتهم وسوادهم ، وفسقتهم وأباقهم ، وليسوا فى بلدنا و لا بر تبتنا فتغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وانما اضطروا الى الدخول فى طاعة ابن مارده لأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ولا تصعب عن نكايتهم ، ولا تتوقف عن اخراجهم عما تطرقوه من بلدك . »

وهكذا لم يشأ الامير الاموى ان يعد الامبراطور بالتدخل السريع والعمل الحازم ضد كريت الاسلامية ، غير انه وعده بالتدخل الفعلى فى حالة نجاح حلفهم المقبل ، واستعادة الامير الاموى للملك اسلافه فى المشرق فقال : وان الله بحوله وقوته ، وفضله ومنته ، رد الينا سلطاننا بالمشرق وما كان تحت ايدى آبائنا منه ، نظرنا فى ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامة لطاعتنا وطاعتك وعرفنا الذى يكون من معونتك على مادعوت اليه ، وحضضت عليه ، بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته والواقع ان الامير عبد الرحمن لم يكن باستطاعته ان يعجل بارسال مساعدة للامبراطور البيزنطى نظرا للظروف التى صادفته وقتذاك. فقد كان اهل البلاد الاصليين دائمى الثورة والتمرد ، وكان العداء بينهم وبين المسلمين مما يقلق بال الامير الاندلسى ، فغالبا ما قامت بينهما المعارك لاتفه الاسباب (١) ، كما أن حكام بلاد جليقيه (٢) كانوا يجاهدون جهادا حارا من اجل الاستقلال ، وكان

= تدعى ماردة ، وهى جارية أم ولد للخليفة هارون الرشيد وقد ذكر الأمير عبد الرحمن ذلك على سبيل التحقير للخليفة المعتصم . انظر اليعقوبى ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(1) Dozy, History of Musulman of Espain, vol 11, pp. 96—101.

(٢) تقع بلاد جليقية فى شمال الأندلس وهى تضم مدينتا طليطلة وبرشلونة والجهات المجاورة ، ويسمى سكانها بالجلالقة ، ويصفهم ابن الوردى بقوله : «والغالب على أهلها الجهل والحمق ومن زيهم أنهم لا يغسلون ثيابهم أبدا ، بل يلبسونها وسخة إلى أن تبلى ، ويدخل أحدهم بيت الآخر بغير أذنه ، وهم مهملون فى أديانهم كالبهائم بل أضل» . أما القلقشندى فيذكر أنه يطلق على ملوك هذه البلاد اسم — «أدفونش» ويسميه العامة «الفنش» . انظر عن ذلك ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، ص ٧٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٨٤ .

ذلك يستلزم جهودا عسكرية من جانب الامير عبد الرحمن لقمع حركات التمرد التى قام بها هؤلاء الحكام . ويشير ابن الاثير الى قيام الامير عبد الرحمن بغزو هذه البلاد فى نفس تلك السنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) فيقول : «سار عبد الرحمن صاحب الاندلس فى جيش كبير الى بلاد المشركين فى شعبان(١) فدخل بلاد جليقية فافتتح منها عدة حصون ، وجال فى ارضهم يخرب ويغنم ويقتل ويسبي ، واطال المقام فى هذه الغزاه ثم عاد الى قرطبة».(٢) لذلك فقد فضل الامير الاموى ان يترك باب المفاوضات مفتوحا على امل ان تتحسن ظروفه فى المستقبل بشكل يمكنه من التعاون مع الامبراطور البيزنطى فى عمل عسكرى مشترك كما دعاه ثيوفيل الى ذلك .

وقد اختتم الامير عبد الرحمن رسالته الى الامبراطور ثيوفيل مؤكدا له استعداده لعقد مثل هذا التحالف معه ، ولتأكيد ذلك ارسل اليه سفارة على رأسها رسولين من خاصته ، احدهما هو الشاعر يحى الغزال وهو من الشخصيات البارزة فى الاندلس ، والثانى يدعى يحى بن حبيب ويعرف بصاحب المنيقله (٣) وجاء فى هذه الفقرة الاخيرة من رسالة الامير عبد الرحمن الى الامبراطور ثيوفيل مايلى : «وقد ادخلنا رسولك قرطيوس علينا وكشفناه على الذى أوصيت به الينا ، وعن كل مايجب لصديق ان يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا اليك بكتابنا هذا رسولين من صالحى من قبلنا ،

(١) شعبان من عام ٢٢٥ هـ يقابل يونيه من عام ٨٤٠ م .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢١٢ . وانظر كذلك ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٢ ، لوحة ٢٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ (بيروت) .

(٣) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣٢٤ .

ويرجع بروفنسال أصل هذه التسمية إلى ابتكار هذا الشخص لنوع من الساعات أنظر ، بروفنسال الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١٠٠ ، راجع أيضا ، عنان : دولة الأسلام فى الأندلس ، ص ٢٦٥

فاكتب الينا معهما بالذى أنت عليه من الامر الذى كتبت به الينا ، والذى يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك ، لننظر فيا يتصرفان به على حسب مايأتينا به من عندك ان شاء الله ».

وقد غادرت سفارة الامير عبد الرحمن الاندلسى مصحوبة بالرسول البيزنطى قرطيوس ، ووصلت الى القسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة ، وهناك قوبلت السفارة بترحيب بالغ ، وأدى يحى الغزال سفارته خير أداء وعمل على توثيق الصلة والمودة بين الطرفين ،أو كما قال المقرى«فاحكم بينهما الوصله»(١)

والواقع ان مشروع هذا التحالف لابد وان يثير بعض التساؤلات عن الدوافع التى حدت بالامبراطور ثيوفيل الى التقدم به الى الامير الاموى عبد الرحمن دون غيره من الحكام المعاصرين . والباحث فى هذا الموضوع لابد وان يدرك ان هناك عدة عوامل كانت وراء اختيار الامبراطور ثيوفيل للامير عبد الرحمن بالذات ، ومن اهم هذه العوامل، ان تباعد الحدود بين الخلافة الاموية فى الاندلس،والدولة البيزنطية،وبالتالى عدم وجود مشاكل سياسية بين الطرفين،ادى لارتباطهما بعلاقات تقليدية قائمة على اساس الود والصداقة المتبادلتين . وان تاريخ العلاقات بين الدولتين يؤكد هذه الحقيقة . يضاف الى ذلك ادراك الامبراطور البيزنطى ثيوفيل لطبيعة العداء المستحكم بين الأمويين فى الاندلس والعباسيين فى المشرق ، الذين اسقطوا الخلافة الاموية هناك فى عام ١٣٢ هـ (٧٤٨ — ٧٤٩ م) (٢) واسسوا خلافتهم على

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

انقاضها . لذلك فقد نظر اليهم الامويون بالاندلس دائما على انهم مغتصبون لحقهم الشرعي فى امتلاك المشرق الاسلامى. كذلك تفهم الامبراطور ثيوفيل للحزازات الموجودة بين اموى الاندلس ومسلمى كريت ، حيث ان هؤلاء الاخرين كانوا فيما مضى من رعايا الامويين ، ثم شقوا عصا الطاعة عليهم وخرجوا مطرودين من موطنهم الاصلى فى الاندلس . اذن فهم من وجهة النظر الاموية ، رعايا متمردين وثوار خونة ، يحق لهم عقابهم والنيل منهم اذا واتتهم الفرصة لذلك .

واخيرا فلعل النهضة التى بلغتها دولة الاندلس فى شتى المجالات ، فى عهد الامير عبد الرحمن الثانى (١) ، قد شجعت الامبراطور ثيوفيل على التوجه اليه طالبا قيام مثل هذا التحالف بينهما .

وعلى ايه حال فان مشروع هذا التحالف لم يخرج الى حيز التنفيذ ، اذ تطورت الاحداث فى الاندلس بشكل ادى الى انصراف الامير عبد الرحمن عن هذا المشروع . فقد تعرضت البلاد لغارة كبيرة من جانب المغامرين

---

(١) انظر عن ذلك ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص‌ص ١٣٥ — ١٣٦ .
ومما ذكره هذا المؤرخ عن الامير عبد الرحمن الثانى فى عصره . قوله : «.... وكان شاعرا اديبا ذا همة عالية ، وكانت له غزوات كثيرة وفتوحات فى دار العدو شهيرة ، يخرج اليها فى العدد الجم ، والعسكر الضخم . يخرب ديارهم ويعفى آثارهم ، ويقفل ظافر الاعتلاء ، قاهر الأعداء . لم يلق المسلمون معه بؤسا ، ولم يروا فى مدته يوما عبوسا . وهو أول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة ابهة الجلالة ، فشيد القصور وجلب اليها المياه ، وبنى الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالاندلس وعمل السقاية على الرصيف . أحدث الطرز واستنبط عملها واتخذ السكة بقرطبة وفخم ملكه ... وفى أيامه دخل الاندلس نفيس الوطا وغرائب الأشياء وسيق ذلك إليه من بغداد وغيرها ....» .

الفكنج Vikings (١) ، الذين اطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم المجوس (٢) ، او الاردمانيين (٣) . وقد جاؤا فى نحو ثمانين سفينة ، ونزلوا على الساحل الغربى لبلاد الاندلس ، وكان اول

---

(١) الفيكنج هم العناصر الشمالية (سويديون ونرويجيون ودانيون «سكان الدانمرك») التى سكنت شبه جزيرة سكندناوه وشبه جزيرة الدانمرك . وهم ينتمون من الناحية العنصرية إلى الأصل التيتونى أو الجرمانى . واسم الفيكنج بمعنى سكان الفيوردات أو الخلجان ، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا ونظرا لطبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات ، لم يكن أمامهم مجالا للعيش سوى السهول الساحلية ، وهى لاتعدو فى معظم الأحيان أشرطة ضيقة من الأرض ، وهكذا دفعت الطبيعة الفيكنج نحو البحر ، فبرعوا فى بناء السفن الصغيرة المكشوفة التى أتصفت بطولها وقلة عرضها ، وسارت بالمجداف أو الشراع ، وجابوا بها شواطئ أوروبا من البحر البلطى حتى البحر المتوسط ، بل قاموا برحلات بعيدة فى المحيط الاطلنطى حتى أصبحوا من أعظم الشعوب البحرية التى عرفتها أوروبا العصور الوسطى .

وقد عرف عن الفيكنج مهارتهم فى القتال وقوة تسلحهم ، فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحربه طويلة ، ودرع واق ، وخوذة من الحديد . وقد لعبوا دورا كبيرا فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى لما قاموا به من حركة توسعية هائلة أغاروا خلالها على عديد من البلاد الأوروبية ، مثل ممتلكات الأمبراطورية الكارولنجية ، وانجلترا ، وايرلندا ، والجزر الشمالية (ايسلانده وجرينلانده(، وبعض بلاد حوض البحر المتوسط .

وبشأن كل مايتعلق بالفيكنج وتاريخهم وحضارتهم ونشاطهم الحربى فى العصور الوسطى أنظر سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول (التاريخ السياسى) الطبعة الرابعة ١٩٦٦ ، الباب العاشر ، صص ٢١٨ - ٢٤٧ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، صص ٨٧ - ٨٨ ، القرطبى : تاريخ افتتاح الاندلس صص ٨٤ - ٨٦ ، ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ٣٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٦ ، النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب ، ج٢٢ ، لوحة ٢٣ ، ولوحة ٢٤ .

ويرجح الاستاذ الدكتور سعيد عاشور أن المسلمين أطلقوا اسم «المجوس» على الفيكنج نتيجة لحرائق التى كانوا يشعلونها فى البلاد التى يستولون عليها ، أو لما أعتاده الفيكنج من أشعال النار ليلا للاستئناس والتدفئة ، الامر الذى جعل المسلمين يعتقدون أن هؤلاء القوم من عبدة النار أى «المجوس» . أنظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ، حاشية رقم (٤) .

(٣) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٤٩ .

نزولهم بمدينة لشبونة (١) ، فى ذى الحجة ٢٢٩ هـ ، (اغسطس — سبتمبر ٨٤٤ م) وظلوا فى اشتباكات مستمرة مع سكانها ، ثم تركوها الى قادس (٢) فشذونه (٣) ، ثم ساروا يريدون اشبيليه (٤) ، ونزلوا بموضع يعرف باسم

---

(١) وردت هذه المدينة فى المصادر العربية باسم «اشبونة» ، وتقع إلى الشمال الغربى من مدينة اشبيلية ، واشتهرت لشبونة بكثرة بساتينها وثمارها ، وقال الجغرافى الحميرى فى وصفها : «وهى مدينة قديمة على سيف البحر ، تنكسر أمواجه على سورها ، وسورها رائق البنيان ، بديع الشأن ، وبابها الغربى قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام ، وهو أكبر أبوابها ، ولها باب غربى أيضا يعرف بباب الخوخة مشرف على سرح فسيح يشقه جدولا ماء يصبان فى البحر ، ولها باب قبلى يسمى باب البحر تدخل أمواج البحر فيه عند مده ، وترتفع فى سوره ثلاث قيم ، وباب شرقى يعرف بباب الحمة ، والحمة على مقربه منه ومن البحر ديماس ماء حار وماء بارد ، فإذا مد البحر واراهما ، وباب شرقى أيضا يعرف بباب المقبرة . والمدينة فى ذاتها حسنة ممتدة مع النهر لها سور وقصبة ، منيعة » أنظر الحميرى : صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، نشرها وصححها وعلق حواشيها ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦ . أنظر كذلك ، القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٢١٩ ، ص ٢٢٢ .

(٢) قادس جزيرة صغيرة على الساحل الغربى للاندلس «وطول جزيرة قادس من القبلة إلى الجوف اثنا عشر ميلا وعرضها فى أوسع المواضع ميل ، ولها مزارع كثيرة الريع وأكثر مواشيها المعز ، وبها آثار للأول كثيرة » أنظر الحميرى : نفس المصدر ، ص ١٤٥ .

(٣) تعتبر شذونه من المدن الصغيرة بالاندلس ، وأشتهرت بوفرة مياهها وكثرة خيراتها البرية والبحرية على السواء ، وأمتازت تربتها بالجودة وبانتاج أجود أنواع العنبر ،أنظر الحميرى نفس المصدر ، ص ١٠٠ .

(٤) يقال أن أصل أسمها هو «اشبالى» بمعنى «المدينة المنبسطة» وهى تقع إلى الجنوب على الساحل الغربى للاندلس ، وبينها وبين مدينة قرطبة ثمانون ميلا . واشبيلية من المدن القديمة الأزلية فى الاندلس ، وقال ابن حوقل أنها اشتهرت بكثرة الفواكه والكروم والتين بصفة خاصة ، أما الحميرى فوصفها بقوله : «وهى كبيرة عامرة ، لها أسوار حصينة وأسواقها عامرة ، وخلقها كثير وأهلها مياسير ، وجل تجارتهم الزيت يتجهزون به منها إلى المشرق والمغرب برا وبحرا ، فيجتمع هذا الزيت من الشرف (جبل يقع غرب اشبيلية) وهو مسافة أربعين ميلا كلها فى ظل شجر الزيتون والتين ، أوله مدينة أشبيلية وأخره مدينة لبله ، وسعته اثنا عشر ميلا ، وفيه ثمانية الاف قرية عامرة بالحمامات والمديار الحسنة .... وكان سور ،=

قودره – على بعد اثنى عشر ميلا من اشبيلية – فخرج اليهم كثير من المسلمين والتقوا بهم فى ١٢ المحرم ٢٣٠ هـ (٣٠ سبتمبر ٨٤٤ م) ، فانهزم المسلمون ، وواصل الفيكنج تقدمهم حتى وصلوا الى طليـــاطة – على بعد ميلين مــــن اشبيليه – وقاتلوا اهلها فى ١٤ المحرم ٢٣٠ هـ (اكتوبر ٨٤٤ م) وحلت بالمسلمين الهزيمة ، وكثر القتل والاسر بينهم ، ولم يرفع هؤلاء المغامرون السيف عن أحد ولا عن دابة (١) . واخيرا وصلوا الى اشبيليه «فاحتلوا بها احتلالا ، ونازلوها نزالا ، الى ان دخلوها قسرا ، واستأصلوا اهلها قتـلا واسرا . وبقوا بها سبعة ايام ، يسقون أهلها كأس الحمام» ، وذلك على حد تعبير المؤرخ ابن عذارى (٢) .

وقد ارسل االيهم الامير عبد الرحمن جيشا فقاتلهم والحق بهم الهزيمة ، ثم ارسل اليهم جيشا اخر اوقع بهم ، واخذ فى مطاردتهم ، وجاءت الامدادات من كل مكان بالاندلس لمحاربة هؤلاء المغامرين، واخذوا يلحقون بهم الهزيمة تلو الاخرى، فانسحب الفيكنج عائدين الى لشبونه، وفى طريقهم

= أشبيلية من بناء عبد الرحمن بن الحكم ، بناه بعد غلبة المجوس عليها بالحجر وأحكم بناءها وكذلك جامعها من بنائه وهو عجيب البنيان وجليله وصومعته بديعة الصناعة ، غريبة العمل أركانها الاربعة عمود فوق عمود إلى أعلاها ، فى كل ركن ثلاثة أعمدة . وباشبيلية آثار للاول كثيرة وبها أساطين عظام تدل على هياكل كانت بها .... وكل ماأستودع أرض أشبيلية نمى وزكى وجل ، والقطن يجود بأرضها فيعم بلاد الاندلس ويتجهز به التجار إلى أفريقية وسجلماسه و ماوالاها .... أنظر الحميرى : نفس المصدر ، ص‌ص ١٨ – ٢١ ، أنظر أيضا ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الاول ، الطبعة الثانية ، ص١١٥ القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٢٥ .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص‌ص ٨٧ – ٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، خـ٢ ، ص ٨٧ ، انظرى كذلك ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص٦ .

اليها التقوا مع جيوش المسلمين فى معركة عند طلياطة فى يوم الثلاثاء ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ (اول اكتوبر ٨٤٤ م) فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم اعدادا كبيرة كما احرقوا لهم ثلاثين مركبا (١) . فاكمل الفيكنج انسحابهم حتى وصلوا الى مدينة لبله (٢) واصابوا منها سبيا ، ثم رحلوا الى شذونه فغنموا وسبوا منها ومن غيرها من المدن المجاورة مثل باكشونيه وباجه ، حتى وصلوا الى مدينة لشبونة فرحلوا منها الى بلادهم (٣) .

وقد تسبب هذا الهجوم فى انزال خسائر مادية وبشرية كبيرة بالبلاد الواقعة غربى الاندلس ، وبعد رحيل هؤلاء الغزاة ، قام الامير عبد الرحمن بأصلاح ما خربوه من البلاد وزاد فى عدد الحاميات الموجودة بها (٤) . وتذكر المصادر ان مفاوضات قد جرت بين الامير عبد الرحمن وزعيم الفيكنج ، وان الامير الاموى ارسل اليه سفارة على رأسها يحى الغزال ، بعد

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٦ .

(٢) تقع لبله فى غرب الاندلس وبينها وبين البحر ستة أميال وهى مدينة قديمة بها ثلاث عيون احداها عين تسهشر وهى اغزرها ، والثانية عين تنبعث بالشب ، والثالثة عين تنبعث بالزاج وتعرف لبله بالحمراء ، وفيها آثار للاول كثيرة ، وسور لبله قد عقد على اربعة تماثيل ، ويخيل إلى الناظر أن ذلك البنيان موضوع على اعناقهم ، وانفردت بهذه البنيه من بين سائر المدن . ولبله مدينة حسنه ازلية ، متوسطة القدر ، لها سور منيع ، ونهر هايأتيها من ناحية الجبل ، ويجاز عليه فى قنطرة إلى لبله ، وبها اسواق وتجارات . . . . . . وكور لبله كثيرة الزيتون ، والشجر ، وضروب الثمار ، يكون فيها القرنفل الفاضل ، وهى سهلية جبلية » انظر الحميرى : صفة جزيرة الاندلس ، ص‌ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٣) انظر اخبار هذه الغارة بالتفصيل فى المصادر التالية ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٦ ، القرطبى : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص‌ص ٨٤ - ٨٦ . وهناك مصادر اخرى تعرضت لها باختصار شديد ، انظر على سبيل المثال المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص‌ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٤٩ ، ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ٢ ، ص ٣٨ .

(٤) المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ .

عودته من بيزنطة ، فذهب الى شمال اوروبا بعد رحلة بحرية عبر فيها المحيط الاطلنطى ، وادى هذه السفارة ثم عاد الى بلاده بعد عشرين شهر (١) .

وهكذا شغل الامير عبد الرحمن بهذه الظروف الجديدة عن مشروع التحالف المقترح من جانب الامبراطور البيزنطى ثيوفيل ، بتأليف جبهة قوية واسعة ضد العدو المشترك لكليهما .

وفى نفس الوقت كانت الظروف قد تغيرت فى الدولة البيزنطية ، فقد توفى الامبراطور ثيوفيل فى ٢٠ يناير ٨٤٢ م(٢٩ ربيع الاول ٢٢٧ هـ) بعد ان اشتد به المرض ، اثر الهزائم التى انزلها به المسلمون ، اذ اصابته حمى شديدة حتى كان يحسب الثلج دافئا على حد تعبير المؤرخ البيزنطى جينيزيوس ، ولما اسرف فى تناول الماء المثلج اصابه مرض الدوسنتاريا الذى قضى عليه (٢) و بعد وفاته قضى على هذا المشروع بصفة نهائية .

توفى الامبراطور ثيوفيل وترك ستة ابناء ، خمس بنات وولد واحد ، وقد انتقل العرش الى ابنه ميخائيل Michael الذى عرف فى التاريخ باسم ميخائيل الثالث . ولما كان هذا الامبراطور الجديد لم يتجاوز السادسة من عمره وقتذاك ، فقد تولت الوصاية عليه والدته الامبراطورة ثيودورا Theodora وتألف مجلس لمساعدتها فى تصريف شئون الامبراطورية ، تكون من شقيقها برداس Bardas ، وبتروناس Petronas ، وخالها سرجيوس نكتياتيس Sergius Nicetiates وصديقها

---

(١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٤٩ ، راجع ايضا : بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١١٢ .

(2) Genesius, op. cit., p. 70; Theophanes Continuatus, p. 131;
كيدريوس : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، باليونانيه

اللغيثيت(١) تيو كتيستوس The Logothete Theoctistos

الذى استغل مكانته عند ثيودورا واستحوذ على السلطة ، واصبح هو المتصرف الوحيد فى شئون الحكم طوال فترة وصايتها التى استمرت ١٤ عاما (٨٤٢ — ٨٥٦ ٢٢٧ — ٢٤١ ﻫ) . وقد اشتهر تيو كتيستوس باهتمامه الكبير بنشر الثقافة والتعليم فى الامبراطورية ، كما عرف بنشاطه الجم فى النواحى المالية ، وترتب على ذلك وجود فائض كبير من الذهب فى الخزينة الامبراطورية .

ولعل اهم الاحداث التى وقعت اثناء فترة وصاية ثيودورا ، هى العودة الى الارثوذكسية الصحيحة اذا تم عزل بطريرك القسطنطينية حنا النحوى المعروف بعدائه للايقونيه ، وحل محله بطريركا ارثوذكسيا يدعى ميثوديوس Methodius وقد تلا ذلك عقد مجمع دينى فى القسطنطينية تقرر فيه اعادة عبادة الصور المقدسة ، وتم الاحتفال بذلك ، فأقيم قداس بكنيسة سانت صوفيا . St. Sophia فى اول احد من الصيام الكبير (١١ مارس ٨٤٣م) وحضرت الامبراطورة الى الكنيسة ، يصحبها الامبراطور الطفل ميخائيل الثالث والبطريرك ، ورجال الدين ، والوزراء وأعضاء السناتو ، وكانوا يحملون فى أيديهم الصلبان والايقونات والشموع . ومنذ ذلك الحين والكنيسة

---

(١) اللغيثيت هو الوزير الذى له اوثق الصلات بالامبراطور ، فكان يقابله كل يوم تقريبا ، ومن واجبات اللغيثيت تقديم الوزراء والضباط للامبراطور لكى يقلدهم [و]ظائفهم وكذلك عمل الترتيبات اللازمة لاستقبال السفراء الاجانب ، وتجهيز البعثات السياسية الامبراطورية إلى البلاد الاجنبية واختيار افراد هذه البعثات ، ومن واجباته ايضا الاشراف على الاحتفالات الرسمية التى يظهر فيها الامبراطور للشعب .

انظر

Bury, The Imperial System, p. 92.

راجع كذلك ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٨٤ .

الارثوذكسية تحتفل فى نفس الموعد بهذه الذكرى التى تعتبر عيد الارثوذكسية اليونانية (١) .

نخلص مما سبق ان هذه المشاغل الداخلية التى حلت بالدولة البيزنطية ، قد صرفتها عن التفكير الجدى فى القيام بحملة جديدة ضد كريت . ولكن بعد أن استتبت الامور واستقرت الاحوال بعودة بيزنطة الى الخط القويم للارثوذكسية ، قرر المسؤلون بها القيام بحملة على كريت بقصد استردادها من قبضة المسلمين . ويرجع الفضل فى امدادنا بالمعلومات التاريخية المتعلقة بهذه الحملة ، الى المؤرخ البيزنطى المعاصر موناخوس ، الذى ذكرها بشئ من التفصيل وان لم يكن سرده لها بصورة كافية تسمح بالاحاطة بكافة الدقائق والتفاصيل التى تتعلق بها (٢) . وقد تحرى موناخوس الدقة فى تحديد تاريخ هذه الحملة ، فذكر انها ابحرت الى كريت فى اول احد بعد عودة الارثوذكيسه الصحيحة ، وتبعا لذلك يكون تاريخ ابحارها هو يوم الاحد

---

(1) Monachus, op. cit., p. 810.

انظر كذلك المراجع التالية :

Brehier, Vie et Mort de Byzance, pp. 114—115; Ostrogorsky, op. cit., pp. 186, p. 195; Bury, op. cit., pp. 148—150; Vasiliev, op. cit., p. 359.

(2) Monachus, op. cit., pp. 814—815.

وقد اشار إلى هذه الحملة ايضا كل من الماجستر سيميون وصاحب صلة ثيوفان ولكن فى عبارات سريعة موجزة للغاية ، انظر :

Symeon Magistri, op. cit., p. 654; Theophanes Continuatus, Liber IV, p. 203.

١٨ مارس ٨٤٣ م (١) (جمادى الثانى ٢٢٨ هـ). ولم يذكر موناخوس عدد السفن المشتركة فيها او نوعها او اى شئ عن استعداداتها ، وانما اكتفى بقوله انها اشتملت على قوات كثيره وسفن عـديدة (٢) وقـد تولى اللغثيت تيوكتيستوس قيادة هذه الحملة البحرية . ويرجع احد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو ارشيبالد لويس ان هذه الحملة لم تصل الى كريت ويقول فى هذا الشأن « ويبدو ان مؤامرات اهل كريت كانت ناجحة لدرجة انهـا عاقت هذا الاسطول حتى عن الابحار من موانيه (٣) .» على ان الثابت ان ثيوكتيستوس قد تقدم بسفنه وقواته الى كريت ، ونزل على ارض الجزيرة بالفعل (٤) ، حيث قاتل بشجاعة ، واحرز الانتصار على المسلمين الذين لم يكونوا على علم سابق بهذه الحملة ، كما كان اسطولهم غائبا يقوم بالاغارة على جزر البحر الايجى . وحين رأى المسلمون بكريت ضعف امكانياتهم العسكرية عن صد هذا الهجوم البيزنطى ، لجأوا الى الاساليب التى هى اشبه ما تكون بالحرب النفسية المعروفة فى العصر الحديث واثبتوا بذلك تفوقا فكريا عظيما ، كما اثبتوا درايتهم التامة بالاحوال الداخلية فى الدولة البيزنطية

---

(1) Monachus, op, cit., p. 814.

وقد ذكر الماجستر سيميون انها حدثت فى السنة الثانية من وصاية ثيودورا أى خلال عام ٨٤٣م ، (٢٢٨ هـ) وعلى ذلك فهو يتفق مع موناخوس فى تحديد السنة التى قامت فيها الحملة . انظر :

Symeon Magistri, op. cit., p. 654.

(٣) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٢٢٣ .

(4) Monachus, op. cit., pp. 814—815.

هذا ولم يحدد موناخوس مكان نزول هذه الحملة على كريت تحديدا دقيقا ولم نجد فى المصادر الاخرى والمراجع الحديثة مايفيد فى هذا الشأن .

ذلك انهم رشوا احد الضباط فى الجيش البيزنطى واوعزوا اليه بأن يشيع فى معسكره ان الامبراطورة ثيودورا عزلت تيوكتيستوس عن مجلس الوصاية ، وانها اختارت احد منافسيه ليحل محله (١) . وسرعان ما انتشرت هذه الاشاعة فى المعسكر البيزنطى حتى وصلت الى تيوكتيستوس نفسه ، الذى خشى على منصبه فترك جيشه واسطوله بكريت ، وسارع بالعودة الى القسطنطينية ليستطلع حقيقة الامر . وهكذا شاعت الفوضى والاضطراب بين الجيش البيزنطى الذى اصبح بدون قائد ، فتشتت وتبعثرت قواه ، وعندئذ اوسعه المسلمون تقتيلا واسرا ، كما دمروا الاسطول البيزنطى تدميرا تاما (٢) .

والواقع ان مسئولية فشل هذه الحملة تقع بكاملها على تيوكتيستوس ، فهو كقائد للحملة كان عليه أن يقوم بالواجب الذى كلف به فى كريت اولا خاصة وان الموقف كان فى صالح البيزنطين وكان من المحتمل ان تحقق الحملة هدفها ، غير ان عدم تقدير تيوكتيستوس للمسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقه وتفضيله لمصالحه الشخصية ، اضاع على بيزنطة هذه الفرصة ، وكان سببا فى اخفاق هذه الحملة وتكبيد الدولة خسائر مادية وبشرية كبيرة . ولكن رغم ذلك كله فان تيو كتيستوس لم يفقد حظوته لدى الامبراطورة ثيودورا ، واستمر فى منصبه يباشر سلطاته فى الحكم (٣) .

---

(1) Monachus, op. cit., pp. 814—815.

(2) Ibid, p. 815.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 196

راجع ايضا فازيلييف : العرب والروم ، ص ص ١٧٢ — ١٧٤ .

وبعد هذه الحملة الفاشلة ، قرر تيو كتيستوس وثيودورا الانتقام لما انزله المسلمون بها من هزيمة ، ولكن انتقامهم لم يكن موجها هذه المرة الى كريت وانما الى دلتا وادى النيل ، نظر للرابطة التى كانت موجودة بين اهالى كريت المسلمين وحكام مصر . فقد سبقت الاشارة(١) الى ان كريت كانت من الناحية الادارية تتبع اقليم مصر ، وقد ارتبط مسلمو كريت مع اهالى مصر وولاتها بروابط الود والصداقة ، فكانوا يرسلون بخيرات كريت ومنتجاتها الى مصر ، وقال المؤرخ النعمان فى ذلك «ومراكبهم (٢) بخيرات بلدهم واطعمتهم تمير اهل مصر ، وهداياهم تصل الى عمالها (٣) اما النويرى السكندرى فقال انه كان يحمل من كريت العسل والنحل والجبن الكثير لمصر اما مصر فكانت تمد كريت بكل ماتحتاجه من اسلحة(٥) ، حتى غدت دار الصناعة لقراصنة كريت على حد تعبير المؤرخ فازيلييف(٦) .

وفى ذلك الوقت من عام ٨٥٣م(٢٣٨هـ) ، نما الى علم المسئولين فى بيزنطة ان هناك شحنة من الاسلحة موجودة بمدينة دمياط(٧) فى طريقها

(١) انظر الفصل الأول من هذا البحث ، ص ٩٢ .

(٢) المقصود مراكب مسلمى كريت .

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، ورقة ٤١٦ (مخطوط) .

(٤) النويرى السكندرى : الالمام بما جرت به الاحكام ، ورقة ١٢٣ أ (مخطوط) .

(٥) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ .

(٦) فازيلييف : العرب والروم ، ص ١٨٧ .

(٧) تقع دمياط على الجانب الايمن للفرع الشرقى للنيل عند اتصاله بالبحر المتوسط ، وكانت المدينة فى القرن التاسع اقرب الى هذا البحر مما هى عليه الآن ، وهى احدى المدن المصرية العريقة فى القدم ، ويرجع تأسيسها إلى ماقبل الفتح العربى . ويذكر ياقوت انها كانت تشتهر بصناعة الثياب الموشاه وصيد السمك ، والطير والحيتان . وقد تهدمت دمياط القديمة فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، هدمها السلطان المملوكى بيبرس وبنى المدينة فى موضعها الحالى . انظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ٨ ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ . انظر كذلك ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ، ص ٩٠ .

الى كريت (١)فأرادوا بهذه الحملة الحيلولة دون وصول هذه الاسلحة اليها .

وقد ذكر هذه الغارة عدد من المؤرخين المسلمين مثل الكندى (٢) ، وابن الاثير (٣) ، وابن خلدون (٥) ، على ان اكثر ماجاء عنها من تفاصيل هو ماأورده المؤرخ المعاصر الطبرى (٦). اما المؤرخون البيزنطيون فقد اغفلوا ذكرها اغفالا تاما ، ومن المستغرب ان يحدث ذلك خاصة وان الحملة قد انتهت بنجاح الغرض الذى ارسلت من اجله . وذلك فى الواقع يثبت ان تاريخ الاسرة العمورية قد تعرض للتشوية واخفاء كثير من الانتصارات التى حققها اباطرة هذه الاسرة . لذلك فاننا ندين بالفضل للمؤرخين المسلمين فى امدادنا بتفاصيل هذه الحملة البحرية الكبيرة .

على اية حال ، كان الاسطول البيزنطى الذى خرج للهجوم على دمياط يتكون من ثلاثمائة سفينة حربية (شلندية) ، على كل مائة منها قائد . غير انه لم يهاجم دمياط سوى مائة سفينة كانت بقيادة احد امراء البحر البيزنطيين ، الذى ذكره الطبرى باسم (ابن قطونا) (٧) ، اماباقى السفن فلم توضح المصادر

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ .
(٢) الكندى : ولاة مصر ، ص ٢٢٧ .
(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٦ .
(٤) ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٢٧٧ .
(٥) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٤٦ .
(٦) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص٤٨ .
(٧) يفترض كل من المؤرخ الفرنسى جريجوار ، والمؤرخ فازيلييف ان ابن قطونا هو قائد بيزنطى يدعى نكيتياتيس بعد ان حرف فازيلييف الاسم إلى ابن نقطونا حتى يتمشى مع الاسم الذى افترضه ، ويفترض بيورى انه كونتوميتيس ، والواقع ان هذه كلها افتراضات ليس لها مايؤيدها اذا لم يعرض احد من المؤرخين البيزنطيين لهذه الحملة ، ولا تخرج هذه الافتراضات عن كونها مجرد اجتهاد شخصى لهؤلاء المؤرخين . انظر :
Gregoire: Etudessur Leneuvieme Siecle dansla Revuede Byzan Tion, tome VIII, Bruscelles, 1933, p. 525.
فازيلييف : العرب والروم ، ص ١٨٩ ، حاشية رقم (١) .

الدور الذى قامت به اثناء هذا الهجوم ، وان كان المرجح انها اضطلعت بحماية ظهر الاسطول البيزنطى الذىهاجم دمياط . وقدوقع هذا الهجوم على مدينة دمياط يوم ١٠ ذى الحجة ٢٣٨هـ (٢٢ مايو ٨٥٣م) ، وكان هذا هو يوم وقفة عيد الاضحى ، وكانت المدينة خالية تماما من حاميتها التى استدعاها الى الفساط والى مصر وقتذاك عنبسه بن اسحاق الضبى ليتجمل بهم فى العيد(١) وقد نزل البيزنطيون الذين كان عددهم يزيد على خمسة الاف مقاتل الى المدينة ، ففزع الاهالى ، وفر فريق منهم فى المراكب الى الفساط ، ونزل فريق اخر الى بحيرة تفصل دمياط عن الشاطئ المقابل لها وهوالمعروف باسم البر الشرقى اوجيزة دمياط اوجزيرة دمياط فغرق عدد كبير منهم ، وقتل البيزنطيون اعدادا كثيرة من الاهالى ، كما اسروا اعدادا اخرى ، ويقال ان عدد السبايا بلغ ستمائة امرأة منهن مائة وخمس وعشرون من المسلمات ، والباقيات من نساء القبط (٢) كما انتهبوا المدينة واحتملوا سلاحا كان فيها ارادوا(٣) حملة الى ابى حفص صاحب اقريطش ، نحوا من الف قناة وآلتها(٤) واشعلوا النيران فى اماكن متعددة ، ولم يفرقوا بين المساجد والكنائس فتعرضت كلها للاحراق والتخريب(٥) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم ، جـ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٦ ، ابن خالدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٢٧٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، خـ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ٧ ، ص٢٦ الكندى : ولاة مصر ، ص ٢٢٧ .

(٣) المقصود أراد اهالى دمياط حملة إلى ابى حفص .

(٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ .

(٥) المصدر السابق : جـ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص٢٦ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٢٧٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ .

ورغم ظروف هذه الغارة المفاجئة ، الا أن فريقا من اهالى دمياط قد ابدوا بطولة نادرة ، فخرجوا لقتال المعتدين البيزنطيين ، وقتلوا جماعة منهم (١) . وانسحب البيزنطيون بعد ان ملأوا سفنهم بالمتاع والأموال والسبايا واتجهوا الى اشتوم تنيس (٢) ، فخربوه وانتزعوا بابيه المصنوعين من الحديد وحملوهما معهم ، ثم رحلوا الى بلادهم بما غنموا (٣) .

وهكذا انتقم تيوكتيستوس للهزيمة التى الحقها مسلمو كريت بحملته فى عام ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ . على ان الاجل لم يمتد به لكى يقوم بمزيد من المحاولات العسكرية اثناء صراعه مع كريت اذ لم تلبث الظروف أن تغيرت . فبعد أربعة عشر عاما من وصاية ثيودورا ، بلغ الامبراطور ميخائيل الثالث سن الرشد ، وبدأ يضيق بوالدته ، التى حرمته من ممارسة شئون الحكم ، ولم تكتف بذلك ، بل اخذت تتدخل فى حياته الشخصية . وقد ازداد ضيقه نتيجة لتحريض خاله بارداس ، الذى رغب هو الاخر فى التخلص من منافسة ثيوكتيستوس بعد أن انفرد بالسلطة وحده . اضف الى ذلك ان الامبراطور ميخائيل الثالث لم ينجب وريثا ، ومن ثمة فقد طمع بارداس فى

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢) الاشتوم هو موضع فى شمال دلتا النيل يطل على البحر المتوسط ، ويعرفه ياقوت بقوله : ومن شمال دمياط يصب ماء النيل إلى البحر الملح فى موضع يقال له الاشتوم عرض النيل هناك مائة ذراع « ويمين هذا الموضع تنيسل ستة فراسخ ، وكان له سور وبابان من الحديد كان الخليفة المعتصم قد امر بصنعهما .

انظر ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ٨ ، طبعة بيروت ، ص ٤٧٣ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٦ .

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٤٦ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٦ .

ان يرث العرش الامبراطورى . وهكذا قربت الظروف بين ميخائيل وخاله بارداس وجعلتهما حليفان طبيعيان يسعيان معا للتخلص من سيطرة ثيودورا وتيوكتيستوس . وقد تم تنفيذ المؤامرة ضد هذا الاخير ، حين هاجمه جماعة من اتباع الامبراطور ، واغتالوه بالقصر الامبراطورى فى ٨٥٦ م (٢٤٢ هـ) ثم اعلن السناتو ميخائيل امبراطورا وحيدا ، وكان اول عمل قام به هوادخال والدته الدير (١)

والصورة التى وصلتنا عن ميخائيل الثالث تظهره فى مظهر الشخص المنغمس فى اللهو ، المدمن على الخمر ،حتى اطلقت عليه المصادر البيزنطيه لقب «السكير» . ولكن يجب ان ننظر بعين الحذر الى ما جاء فى هذه المصادر ، اذ حرص اباطرة الاسرة المقدونية على تلطيخ سيرة الاباطرة العموريين واظهارهم فى مظهر سئ ومنفر .على ان المؤكد ـ كما يذكر المؤرخ اوستروجورسكى ـ ان الامبراطور ميخائيل لم يجنح الى الفضيلة فى حياته ، وان شخصيته جمعت المتناقضات ، فبينما نجده لا يدخر جهدا فى الدفاع عن الممتلكات البيزنطية ضد الاعداء ، ويقود الجيوش بنفسه فى ساحة القتال الا انه فى نفس الوقت ، كان ذا شخصية ضعيفة ، يسيرها الاخرون ، متبعا لنزواته ومحبا للهو (٢) .

(1) Monachus op. cit. p. 823; Symeon Magistri op. cit. p. 658;heopTh a-nes Continuatus p. 203.

انظر كذلك المرجعين التاليين :

Ostrogorsky, History of the Byzantine State,
p. 197.; Vasiliev op. cit., p. 359.

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 198.

وهكذا فقد اتيحت الفرصة للقيصر بارداس للسيطرة على الحكم وتصريف شئون الامبراطورية بشكل يكـــاد يكـــون تاما لمدة عشر سنوات (٨٥٦ — ٨٦٦ م / ٢٤٢ — ٢٥٢ هـ) اظهر خلال هذه المدة كفاءة ممتازة ، فعمل على اصلاح دائرة القضاء ، وقوم بعض العيوب الموجوده فى الجيش ، واهتم بنشر التعليم ، وابدى تفهما واضحا لشئون الكنيسة ، وحرص على ملـــئ الخزينة الامبراطورية بالاموال ، كما دافع عن الدولة ضد الاعداء المتربصين بها من كل جانـــب (١) .

وجدير بالذكر انه خلال هذه المرحلة من مراحل الصراع بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الاسلامية ، اظهر المسلمون بكريت تفوقا عسكريا عظيما على الدولة البيزنطية ، فقد اخذوا يذرعون البحر الايجى جيئة وذهابا دون ان يعرض لهم احد . وقد انتهزوا فرصة هجوم الروس على القسطنطينية فى عام ٨٦٠ م (٢٤٥ — ٢٤٦ هـ) ، وقاموا بغارة كبيرة على جزر السيكلاديز ويذكر صاحب صلة ثيوفان ان الاسطول الكريتى الذى قام بهذه الغارة كان يتكون من سبع وعشرين سفينة حربية ، وبهذا الاسطول هاجم المسلمون جزر السيكلاديز واستباحوها ، كما هاجموا شواطئ آسيا الصغرى واستولوا على غنائم وفيرة وعلى العديد من الاسرى (٢). ثم عاود الكريتيون الاغارة عـــلى جزر البحر الايجى واستولوا على جزيرتى لسبوس Lesbus (٣)

---

(1) Finlay, History of Greece, vol 11, p. 191, Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, vol 1, pp. 359—360.

(2) Theophanes Continuatus, Liber IV, p. 196.

وقد اشار إلى هذه الغارة ايضا المؤرخ البيزنطى المتأخر نسبيا زوناراس ولكن بايجاز شديد ، انظر :

Zonaras, op. cit., Tomus III, p. 404.

(٣) بشان جغرافية هذه الجزيرة انظر الفصل الاول من البحث.

وميتلين Mıtylen (١) ، وبقيت هاتان الجزيرتان تدينان بالتبعية لكريت الاسلامية لفترة طويلة من الزمن . وفى عام ٨٦٢ م (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) ، قام مسلمو كريت بالاغارة على دير جبل آتوس ، فروع رهبانه ولاذوا بالفرار . وفى عام ٨٦٦ م (٢٥٢ هـ) اغاروا على جزيرة صغيرة تدعى نيون Neon بالقرب من آتوس واسروا بعض سكانها ، ثم عاودوا الاغارة عليها مرة اخرى بعد فترة وجيزة (٢) .

وهكذا وجدت الامبراطورية البيزنطية نفسها امام عدو قوى ، روع البحر الايجى والسواحل المطلة عليه بغاراته ، واصبح من الضرورى القيام بعمل ايجابى لوضع حد لهذه الغارات المتكرره على ممتلكاتها . ولتحقيق ذلك اخذ القيصر بارداس فى أعداد حملة على كريت تولى الاشراف عليها بنفسه ، وقد اشتركت فى هذه الحملة اساطيل الولايات البحرية الآسيوية وخيرة رجال الامبراطورية من البحارة والعسكريين. ولكن ظروفا استجدت على مسرح الاحداث عرقلت تحرك هذه الحملة وانتهى امرها بالفشل مثلما فشلت حملات سابقة بيزنطية على كريت ، وكانت هذه الظروف خاصة بالمؤامرة التى تزعمها باسيل المقدونى ، والتى انتهت باغتيال القيصر بارداس. وعلى هذا فمن الاهمية بمكان الاشارة الى باسيل ومؤامراته والآثار المترتبة عليها والتى

---

(١) تقع جزيرة ميتيلين إلى الجنوب من لسبوس وهى تمتاز بكثرة تعاريج سواحلها مما هيألها وجود مجموعة من المرافىء الطبيعية على جوانبها المختلفة ، والجدير بالذكر ان الجزيرة قدخصصت فى العصر الحديث إلى جزيرة لسبوس . واصبحت اهم مدنها ، ويوجد بها بعض الآثار التى ترجع إلى العصور الوسطى . من بينها ١٤ جامعا و ٧ كنائس . انظر :

Encyclopdia Britannica, vol 13, p. 962.

(2) Theophanes Continuatus, Liber IV, p. 197.

وراجع كذلك ، فازيلييف : العرب والروم ، ص ٢٢٦ .

كان اهمها فشل المحاولة العسكرية ضد كريت ، والاطاحة بالاسرة العمورية وتأسيس اسرة جديده هى الاسرة المقدونية تربعت على العرش البيزنطى ما يقرب من القرنين من الزمان وان كان فى عهدها قد تم توجيه اخر حملة كبيرة ضد كريت انتهت بالاستيلاء عليها .

ولد باسيل فى عام ٨١٢ م (١٩٦ — ١٩٧ هـ) ، واستقرت اسرته فى مدينه ادرنه ، وقد تعرضت هذه المدينة لهجمات البلغار فى عهد الملك البلغارى كروم (٨٠٨ — ٨١٤ م) (١) ووقع باسيل واسرته اسرى فى ايديهم ، فحملوهم معهم ، وانتهى بهم المطاف الى الاستقرار مرة اخرى فى اقليم مقدونيا . وحينما بلغ باسيل الخامسه والعشرين من عمره التحق بخدمة الحاكم البيزنطى لاقليم مقدونيا ، ولكنه رأى ان الولايات اضيق من ان تحقق طموحه فصمم على ان يجرب حظه فى القسطنطينية ذاتها ، فشد رحاله اليها ، وحين نزل بها التحق بالخدمة فى احد الأديرة وهناك رآه احد رجال الحاشية ويدعى ثيوفيلتزيس Theophilitzes وكان يمت بصلة القرابة للامبراطور ميخائيل الثالث ، فأعجب بقوته الجسمانية وألحقه بخدمته . وحدث ان اهدى الى الامبراطور ميخائيل احد الخيول الاصيلة ، ولكنه كان فرسا شرسا لم ينجح احدا فى ترويضه فاقترح ثيوفيلتزيس على الامبراطور ان يقوم خادمه باسيل بمحاولة ترويض هذا الفرس ، وادى باسيل المهمة فى سهولة ويسر ، فاعجب به الامبراطور والحقه بالخدمة فى القصر الامبراطورى فى وظيفة قائد الحرس الاجنبى ، وخلال فترة وجيزة تنقل باسيل من منصب الى اخر

(1) Encyclopedia Britannica, vol 13, p. 498.

حتى وصل الى منصب كبير الحجاب مع حمله لقب بطريق Patrician (١)

وهكذا توطدت الصداقة بين باسيل والامبراطور ميخائيل (٢) ، ثم بدأت الغيرة تدب فى قلب باسيل نتيجة لاستيلاء القيصر بارداس على شئون الحكم فى الامبراطورية فأخذ فى تحريض الامبراطور ضد خاله القيصر . ولكن ميخائيل لم يستمع الى هذه الوشايات ، اذ كان يدرك تماما ان الامبراطورية فى حاجة لمن يدبر شئونها وليس هناك من يقوم بهذه المهمة افضل من خاله بارداس . فلجأ باسيل الى حيلة بارعة بأن سعى لمصادقة زوج ابنة القيصر بارداس ويدعى سيمباتيوس Symbatius ووعده بأن يحل محل حماه القيصر فى حالة القضاء على هذا الاخير . وبناء على ذلك قام سيمباتيوس بابلاغ الامبراطور ميخائيل ان خاله يدبر مؤامرة للاطاحة به وقتله ، وهنا صرح الامبراطور لسيمباتيوس وباسيل بقتل خاله القيصر بارداس (٣) .

---

(1) Genesius, op. cit., p. 109; Theophanes Continuatus, p. 231.
وجدير بالذكر ان لقب بطريق كان اعلى لقب يمنح للاعيان فى بيزنطه حتى ذلك الوقت وهو لقب انشأه الامبراطور قسطنطين الأكبر خلال النصف الأول من القرن الرابع الميلادى ، وكان هذا اللقب يمنح فى بادىء الأمر فى نطاق محدود جداً ، وبمرور الزمن تزايدت اعداد من يحملون هذا اللقب حتى بدا وكأنه مباحا للجميع . انظر رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص٩٢ (الترجمة العربية) .

(٢) يقال ان باسيل تزوج فى هذه الفترة من مارية المقدونية ، ولكن الأمبراطور ميخائيل اعادها الىمقدونيا وزوجة من ايدوكيا انجرينا Eudocia Ingerina عشيقة الامبراطور الذى ظل على علاقته بها بعد زواجها ، ويقال ان الامبراطور انجب منها ولدين هما الاسكندر وليو (وهما اللذين توليا العرش الامبراطورى فيما بعد) واضطر باسيل للاعتراف بهما كابنين شرعيين له . انظر :
Bury, History of the Eastern Roman Empire, p. 169; Finlay, op. cit., vol 11, p. 192.

(3) Symeon Magistri, op. cit., pp. 675—676, Theophanes Continuatus, vol V, p. 236

وقد ادرك القيصر ان هناك مكيدة تدبر ضده ، بعد ان لاحظ تغيرا فى معاملة الامبراطور ميخائيل له ، فاظهر تردده فى الذهاب على رأس حملة كريت خوفا على حياته ، ولكن الامبراطور أكد له انه لاداعى للتردد او الخوف . وفى ٢٥ مارس ٨٦٦ م (٤ ربيع الاول ٢٥٢ هـ) و بعد الاحتفال باحد الاعياد الدينية فى كنيسة العذراء بالقسطنطينية ، اقسم الامبراطور وباسيل امام البطريرك على الآثار المقدسة انهما لايضمران شرا للقيصر وان عليه انيصحب الحملة دون خوف (١) .

وفى ٧ ابريل ٨٦٦ م (١٦ ربيع الاول ٢٥٢ هـ) وبعد الاحتفال بعيد الفصح ، سافر الامبراطور وباسيل والقيصر برداس الى مكان اجتماع الحملة المزمع ارسالها الى كريت ، وكانت تعسكر فى مكان يدعى كيبوس Cepos على فروع نهر الماندر فى اقليم التراقيسيون ، وطال انتظار باردس لأوامر الامبراطور بالرحيل الى كريت ، وحين نفذ صبره ، توجه الى خيمة الامبراطور ميخائيل فى يوم ٢١ ابريل ٨٦٦ م (٣٠ ربيع الاول ٢٥٢ هـ) وطلب اليه ان يعجل باصدار اوامره بتحرك الحمله ، وعندئذ هجم عليه باسيل وسيمباتيوس وباقى المتآمرين ، وقطعوه اربا على مرأى من الامبراطور وبمقتل القيصر بارداس قائد حملة كريت ، انتهى امر هذه الحملة بالفشل ، فتفرق شملها وعاد الامبراطور الى القسطنطينية (٣) .

---

(1) Symeon Magistri, op. cit., pp. 676—677.

(2) Monachus, op. cit., pp. 829—830; Symeon Magistri, pp. 678—679: Theophanes Continuatus, vol V, pp. 235—380; Genesius, op cit., p. 103.

(٣) وذكر المؤرخ البيزنطى المتأخر نسبياً زوناراس ذلك بقوله :

«Imprator Omissa Cretensi escpeditione Byzantium redu.»

وترجمتها باللغة العربية « اهمل الامبراطور حملة كريت وعاد إلى بيزنطه » وذكر المؤرخ كيدرينوس نفس هذا المعنى ، انظر :

كيدرينوس : حـ ٢ ، ص ١٨٠ . باليونانية.

وقد ادى مقتل القيصر برداس الى سخط عام بين جماهير العاصمة ، وعبر احد الرهبان عن هذا السخط حين رأى الامبراطور يعبر احد الطرق فصاح به قائلا : «حياك الله ايها الامبراطور تحية من حملتك المنتصرة ، لقد عدت وانت ملطخ بالدم ، وهذا شأنك وحدك» . وانتهى الامر بأن انقض عليه الحرس الامبراطورى والقوا القبض عليه ، ولكن الاهالى نجحوا فى تخليصه من ايديهم وحمايته (١)

وبعد مقتل القيصر بارداس ازدادت اواصر الصداقة بين الامبراطور ميخائيل وباسيل المقدونى ، فقام الامبراطور بتبنيه كما منحه لقب ماجستر Magistrus (٢) ثم قرر رفعه الى العرش الامبراطورى بأن يصبح شريكا له فى الحكم ، حيث كان نظام الحكم فى بيزنطة يسمح بتعدد الاباطرة الجالسين على العرش

فقد كان العرش البيزنطى فى المقام الاول انتخابيا وكان من لهم حق الانتخاب هم السناتو ، والجيش ، وشعب القسطنطينية ، فكان لزاما ان تنادى هذه الهيئات او واحدة منها بامبراطور ، ثم تمارس شعائر تتويجه ، حتى يصبح حكمه عندئذ مطلقا يستوجب رضاء الناس . على انه ان ظهر انه غير مقتدر جاز لاى واحده من هذه السلطات الثلاث الناخبة ان تعلن بدلا منه

(1) Symeon Magistri, op. cit., p. 677.

(2) Theophanes Continuatus, p. 238.

هذا ويعتبر لقب الماجستر أعلى لقب شرف يمنح لكبار القوم ، وبظهوره فى ذلك الوقت من عام ٨٦٦ م ، اصبح اعلى من لقب البطريق الذى سبقت الا شارة اليه . والجدير بالذكر ان المؤرخ رانسيمان يذكر أن لقب الماجستر ظهر فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن اتضح الا ن ان هذا اللقب ظهر فى أواسط القرن التاسع الميلادى . انظر رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ٩٢ .

امبراطورا جديدا . وفى الواقع ان مبدأ الانتخاب هذا كان يخضع لتعديل اساسى ، هو أن من صميم حقوق الامبراطور فى الولاية والسلطان ، انه يستطيع ان يضم اليه بحق الاختيار اباطرة آخرين ، حتى لا تتعرض الامبراطورية مطلقا لحدوث فترة شغور فى ولاية العرش . غير ان كان لابد لمن لهم حق الانتخاب ان يعلنوا موافقتهم الرسمية على هذا الاختيار بالهتاف لذلك فقد تعدد الاباطرة المتعاصرون وربما وصل عددهم فى بعض الاحيان الى خمسة . على ان امبراطورا واحدا فقط هو الذى يمارس السلطة الحقيقية ويميز بلقب اوتوقراطور باسيليوس اما الاخرون فهم شركاء بالاسم فقط او شركاء خاملون لا يتدخلون فى شئون الحكم . فاذا ما توفى الاوتوقراطور باسيليوس، خلفه فى ممارسة الحكم بصورة آليه من يليه فى الاسبقية والاقدمية. وتحقيقا لهذا المبدأ اراد الامبراطور ميخائيل الثالث ان يصبح باسيل المقدونى زميلا له على العرش . وفى يوم ٢٦ مايو ٨٦٦ م (٤ جمادى الاول ٢٥٢ هـ) واثناء احد الاحتفالات فى كنيسة سانت صوفيا اعلن باسيل المقدونى امبراطورا وقد اورد المؤرخ البيزنطى المعاصر موناخوس نص هذا الاعلان ، الذى قرأه على الجميع السكرتير الامبراطورى المدعو ليو كاستور Leo Castor وكان نصه كالاتى : «لقد تآمر على القيصر بارداس ليذبحنى ، ولهذا السبب اقنعنى بترك المدينة (القسطنطينية) . لو لم أبلغ بالمؤامرة بواسطة سيمباتيوس وباسيل ، لما كنت على قيد الحياة الآن . وقد مات القيصر نتيجة اثمه . هذه رغبتى ، مادام باسيل يخلص لى ، ويحمى سيادتى ، ومادام قد انقذنى من

---

(١) رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ص ٦٥ — ٦٧ .

اعدائى ، ويحمل لى الكثير من الود ، لذا يجب ان يكون حارسا وقيما على امبراطوريتى ، ويجب ان ينادى به الجميع امبراطورا» (١) .

وعقب ذلك سلم ميخائيل تاجه الى البطريرك ، الذى وضعه على المائدة المقدسة وأدى الصلاة فوقه ، ثم توج به الامبراطور ميخائيل ، الذى رفعه عن رأسه ووضعه على رأس باسيل المقدونى ، الذى اصبح منذ تلك اللحظة الامبراطور باسيل (٢) . وقد استمر الحكم المشترك لهما ما يقرب من عام ونصف العام ، كان باسيل خلال هذه الفترة هو المتصرف الوحيد فى شئون الحكم ، اما ميخائيل فقد زاد انغماسه فى اللهو والشراب (٣) . ولكن لم تلبث العلاقات بينهما ان ساءت ، فأثناء احدى سهرات الامبراطور وكان برفقته باسيل وزوجته ايدوكيا انجرينا وأحد أصدقائهم ويدعى البطريق باسيليكينوس Patrician Basilikinos وبعد أن اسرف ميخائيل فى الشراب كعادته ، طلب من البطريق باسيليكينوس ان يخلع الخف الاحمر (احد شارات الملك) من قدميه ويرتديها هو ، فتردد

---

(١) ونص الاعلان باللغة اللاتينية هو :

«Bardas Caesar Contra me coniuravit, ut neci me traderet eaque ratio est cur me eduxerit ex urbe. Ac nisi mihi a Symbatio et Basilio detectae essent insidiae non esset mihi iam vita superstes. Porro mortuus est Suo is scelere. Volo autem, Basilium ut qui fidelis sit meamque custodiat maiestatem, Ac qui ab hoste me liberaverit, multaque me prosequature amoris vi, mei esse imperii custodem, eiusque iura prospicere et ab omnibus salutari tanquam imperatorem,» Monachus

انظر : op. cit., p 832

وقد أورد هذا النص كذلك المؤرخ البيزنطى الماجستر سيميون ، انظر :

Symeon Magistri, op. cit., pp. 679—680.

(2) Monachus, op. cit., p. 833.

باسيليكينوس ونظر إلى باسيل ، الذى أشار إليه بألا يفعل . ولكن الامبراطور ميخائيل ، أصر على أن يقوم البطريق بكل ما أمره به ، ثم صاح بباسيل قائلا : «ان الخف الاحمر يليق به أكثر منك ، لقد توجتك امبراطورا ، وما تزال لدى السلطة لكى أتوج امبراطورا آخرا إن شئت» (١) . ثم أخذ يؤكد لهم أنه جاد تماما فى رغبته فى تتويج باسيليكينوس امبراطورا . ومنذ هذه اللحظة بدأ باسيل يفكر فى الخلاص من الامبراطور ميخائيل ، حتى تم له ذلك فى ليلة ٢٥ سبتمبر ٨٦٧ م (١٩ رمضان ٢٥٣ هـ) حين هجم هو وآخرين ممن اشتركوا معه فى المؤامرة ، على الامبراطور ميخائيل فى حجرة نومه واغتالوه وفى الصباح أعلن على الشعب نبأ وفاة ميخائيل الثالث آخر أباطرة الاسرة العمورية ، فلم تبد الجماهير اهتماما كبيرا بالنبأ . ثم أعلن باسيل المقدونى امبراطورا وحيدا على العرش البيزنطى (٢) . وكان ذلك بداية إنشاء أسرة جديدة فى التاريخ البيزنطى هى الاسرة المقدونية ، التى استمرت فى الحكم فترة طويلة من الزمن لعبت خلالها دورا هاما فى الصراع مع جريرة كريت الاسلامية ، حتى تم لها استعادتها من المسلمين ، وذلك على النحو الذى سيتضح فى الفصلين التاليين .

---

(1) Theophanes Continuatus, p. 249.

(2) Monachus, op. cit., pp. 836—838; Theophanes Continuatus; p. 242; Zonaras, op. cit., Tomus III, pp. 415—418.

الفصل الثالث



صراع القوى البحرية الاسلامية ضد بيزنطة

(٨٦٧ – ٩٤٦ م)

– اهمية عصر الاسرة المقدونية .

– تنظيم الاسطول الاسلامى ، السفن والأسلحة المستخدمة فى الحرب البحرية عند المسلمين .

– نظام البحرية البيزنطية ، رتب العاملين بالاسطول واعطياتهم ، انواع السفن والاسلحة بالاسطول البيزنطى .

– الصراع بين كريت وبيزنطة فى عهد الامبراطور باسيل الاول (٨٦٧ – ٨٨٦ م)

– هجوم أساطيل كريت ومصر والشام بقيادة ليون الطرابلسى على مدينة سالونيك عام ٩٠٤ م .

– حملة هيميريوس على كريت عام ٩١١م وفشلها ، ثم مهاجمة ليون الطرابلسى لها وقضاؤه عليها .

– الحملة البيزنطية عام ٩٤٩ م على كريت بقيادة قسطنطين جوجيل وهزيمتها .

استعرضنا فى الفصل السابق بداية الصراع بين جزيرة كريت الاسلامية والدولة البيزنطية فى عهد الاسرة العمورية ، والمحاولات التى قام بها أباطرة هذه الاسرة لاستعادة كريت ، والظروف السياسية التى عرضت لهم سواء فى صقلية أوفى آسيا الصغرى ، وانعكست آثارها على صراعهم مع كريت فى هذه المرحلة . ثم استعرضنا الظروف الداخلية فى بيزنطة ، تلك الظروف التى

لا بست حملة عام ٨٦٦ م على كريت ، وأدت إلى اغتيال القيصر بارداس ، وبذلك اتيحت الفرصة لأن يتوج باسيل المقدونى امبراطورا مشاركا للامبراطور ميخائيل الثالث آخر اباطرة الاسرة العمورية ، ثم المؤامرة التى اطاحت به ، وانفراد باسيل المقدونى بالعرش البيزنطى مؤسسا الاسرة المقدونية التى استمرت فى الحكم قرابة القرنين من الزمان (٨٦٧ — ١٠٥٦ م / ٢٥٣ — ٤٤٨ هـ) .

ورغم الطريق الشائك الملىء بالعنف الذى سلكه باسيل للوصول إلى العرش البيزنطى ، إلا أنه فى الواقع امتاز بصفات جعلته من أشهر وأقـدر أباطرة الدولة البيزنطية ، إذ كان جنديا ممتازا ، أولى عناية فائقة للجيش والاسطول البيزنطى ، وقاد جيوشه الظافرة حتى بلغ بها ضفاف نهر الفرات كما كان اداريا ماهرا ، أعاد تنظيم الادارة المالية بالدولة ، وقبض بيد من حديد على زمام الامور ، وأقام حكومة قوية ذات نظم واضحة . ولتعزيز النظام الادارى والسياسة الداخلية للدولة ، اصدر باسيل المجموعة القانونية الاولى التى ظهرت فى عهد الاسرة المقدونية ، وهى التى تعرف باسم Procheiros Nomos أى «القانون الميسر» . وخلاصة القول أن باسيل قد آل على نفسه النهوض بالامبراطورية البيزنطية عن طريق اصلاح شئونها فى الداخل وارجاع هيبتها فى الخارج بعد الهزائم المتلاحقة التى حلت بها فى فترات الضعف والانحلال (١)

وينقسم تاريخ الاسرة المقدونية الى قسمين يختلفان فى طول مدتهما ، كما يتباينان فى الاهمية . والقسم الاول يمتد من سنة ٨٦٧ — ١٠٢٥ م ، وقد

---

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، صص ٧ — ٨ ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٨٣ . انظر كذلك :

Gibbon, History of the Decline and full of the Roman Empire, pp. 348—349; C.M.H., Vol IV p. 51; Hüssey, the Byzantine world p. 34.,

تولى العرش البيزنطى خلاله الاباطرة ، باسيل الاول (٨٦٧ — ٨٨٦م) ، وليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢) ، وقسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٩م) ، ورومانوس الاول ليكابينوس — قسيما للعرش مع قسطنطين السابع — (٩١٩ — ٩٤٤م) ، ورومانوس الثانى (٩٥٩ — ٩٦٣م) ، ونقفور فوقاس - وصيا على الامبراطورين الصغرين باسيل الثانى وقسطنطين الثامن —(٩٦٣ -٩٦٩م) ويوحنا تزيمسكس — باعتباره هـو الاخر وصيا على الامبراطورين الشرعيين — (٩٦٩ — ٩٧٦) واخيرا باسيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥م) الذى امتد حكمه بمفرده نصف قرن .

وبصفة عامة ، فقد امتاز اباطرة هذه المرحلة بالكفاءة فى الحكم ، والخبرة الكبيرة فى الامور الديبلوماسية كما كانوا محاربين مرموقين ، واداريين ممتازين ، دأبوا على العمل من اجل زيادة ثروة البلاد ، وهدفوا الى جعل الامبراطور البيزنطية هى الدولة المسيطرة فى الجزء الشرقى من حوض البحر الابيض المتوسط . ونصيرة الحضارة الهللينستيه ، والعقيدة الاثوكسية ، ومحط انظار كل الشعوب المتحضرة ، وقد حققوا كثيرا من الانتصارات العسكرية على المسلمين والبلغار والروس ، واسهم فى تحقيق هذه الانتصارات عدد من القادة الاكفاء امثال يوحنا كوركواز ، ونقفور فوقاس ، ويوحنا تزيمكس وبلغت الانتصارات ذروتها فى عصر الامبراطور باسيل الثانى الذى تمتع بصفات جعلته من اشهر الاباطرة البيزنطيين . ويقول المؤرخ الفرنسى

---

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، صص ١٠٧ — ١١٠ ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، صص ٣٧٢ — ٣٧٤ . انظر ايضا :

Diehl, Histoire de l'empire Byzantine, pp. 90—96; Bailly, Byzance pp, 211—212; Hussey, op cit. pp. 33—34, p. 163.

شلومبرجيه Schlumberger ان الامبراطورية البيزنطية لم تبلغ منذ زمن جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م) وهرقل (٦١٠ – ٦٤١م) من القوة والسلطان مثلما بلغته فى مستهل عام ١٠١٩م بما احرزه باسيل الثانى من انتصارات باهرة

وبدأت المرحلة الثانية من تاريخ الاسرة المقدونية بعد وفاة باسيل الثانى فى ١٠٢٥ م ، وامتدت حتى عام ١٠٥٦ م . وخلال هذه المرحلة من التاريخ البيزنطى ، افتقرت الامبراطورية الى القيادات الصالحة ، كما كثرت بها الاضطرابات الداخلية والفتن . وقد اعتلى العرش خلال هذه المرحلة ، الاباطرة ، قسطنطين الثامن (١٠٢٥ – ١٠٢٨ م) ، ورومانوس الثالث أرجيروس – زوجا للامبراطورة الشرعية زوى المقدونية – (١٠٢٨ – ١٠٣٤ م) ، وميخائيل الرابع البفلاجونى – وهو الزوج الثانى لزوى – (١٠٣٤ – ١٠٤١ م) . وميخائيل الخامس الجلفاط – وهو ابن لها بالتبنى – (١٠٤١ – ١٠٤٢ م) ، ثم زوى وثيودورا (ابريل ١٠٤٢ – يونيو ١٠٤٢م) وبعد ذلك قسطنطين الثامن – وهو الزوج الثالث لزوى – (١٠٤٢ –١٠٥٥م) واخيرا ثيودورا – اخر افراد الاسرة المقدونية – (١٠٥٥ – ١٠٥٦ م) (٢) .

ويعقب المؤرخ الفرنسى ديل على هذه الفترة قائلا انه كان من سوء حظ الدولة البيزنطية ان وجدت فيها وقتذاك حكومات من النساء او من حكام غير اكفاء، فكان هذا هو نقطة البداية نحو ازمة جديدة فى التاريخ البيزنطى.

على ان اهم ما حققه اباطرة الاسرة المقدونية من انتصارات داخلية ، هو كسبهم لشعور الشعب وولائه بما حققوه له من امجاد ، فأخذت الجماهير

---

(1) Schlumberger L'éopée Byzantine, vol 11, p. 413.

(2) Hussey op. cit., p. 163.

(3) Diehl op. cit., p. 131.

تنظر الى افراد هذه الاسرة نظرة ملؤها الاحترام ، كما آمنت بأنهم أصحاب الحق الشرعى فى حكم البلاد . واذا كان بعض الاباطرة الدخلاء على هذه الاسرة امثال رومانوس ليكابينوس ، ويوحنا تزيمسكس ، ونقفور فوقاس ، قد اغتصبوا السلطة من البيت المقدونى ، الا انهم حكموا فى ظله ولم يقضوا على هذا البيت (١) . اما الفريق الاخر من هؤلاء الاباطرة الدخلاء الذين راودتهم نفوسهم بمحاولة القضاء على السيادة المقدونية ، فقد لقوا من الشعب شر الجزاء (٢) .

لم يكن من المتوقع ان يسود السلام بين كريت والدولة البيزنطية فى هذه المرحلة الجديدة من مراحل العلاقات السياسية بينهما ، نظرا لحرص اباطرة هذا العصر على حفظ الممتلكات البيزنطية ، واستعادة نفوذ بيزنطه فى شرقى

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، صص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) يروى التاريخ البيزنطى العديد من المواقف التى اثبت فيها الشعب تمسكه بأفراد الأسرة المقدونية وولاءه لها . وقد تجلى ذلك بشكل واضح فى عام ١٠٤٢م حين رغب الامبراطور ميخائيل البفلا جونى فى تأسيس أسرة جديدة يقضى بها على الأسرة المقدونية ، فقبض على الامبراطورة الشرعية زوى Zoé ابنة الامبراطور قسطنطين الثامن ، ونفاها إلى احدى الجزر المواجهه للقسطنطينية . ولما علمت الجماهير بنبأ نفى حاكمتهم سليلة البيت المقدونى ثارت ثورة عارمة واجبرت ميخائيل على اعادتها واظهارها للشعب ، الذى لم يكتف بذلك وانما اسرع افراده وانتزعوا شقيقتها ثيودورا Theodora من الدير الذى كانت تعيش فيه والتفوا حولها فى مظاهرة شعبية مهيبة حتى انتهوا إلى كنيسة القديسة صوفيا حيث اعلن السناتو ورجال الدين والشعب — صفوته ورعاعه — خضوعهم التام لها ونادوا بها امبراطوره وذلك فى ٢١ ابريل ١٠٤٢ م . اما ميخائيل البفلا جونى فقد تم تكحيله وابعاده عن العرش . وهناك مواقف اخرى مماثلة حدثت فى عهد الامبراطور قسطنطين مونوماخوس (١٠٤٣ — ١٠٥٤ م) . انظر :

Psellus chronographia Tomus I pp. 100--107; Zonaras Epitomae Historiarum Liber XVIII p. 611. Ramband Etudes sur l'histoire Byzantine p. 236; Diehl Figures Byzantines, p. 280; Foord the Byzantine Empire, p. 308.

البحر الابيض المتوسط . وفى نفس الوقت، كان المسلمون بكريت حريصين على الاحتفاظ بالجزيرة تحت سيادتهم ومواصلة النضال ضد الدولة البيزنطية . وقد امتازت هذه المرحلة من مراحل الصراع بين الطرفين بظاهرة هامـــة ، هى ان بيزنطة لم تعد تواجه كريت وحدها على النحو الذى حدث فى الفترة السابقة من الحكم الاسلامى للجزيرة ، فان الوضع اختلف منذا اواخر الستينات من القرن التاسع الميلادى — اى منذ بداية تأسيس الاسرة المقدونية فى بيزنطه بعد أن ظهرت روح جـــديدة من التعاون بين اسطول كريت والاساطيل الاسلامية الاخرى فى البحر المتوسط ، وعلى الاخص اسطول الشام ، وذلك فى مواجهة البحرية البيزنطية .

والواقع أن هذا التعاون فى المجال البحرى بين كريـــت وباقى القـــوى الاسلامية فى البحر المتوسط يكتنفه الغموض الشديد ، فان المصادر المعاصره والمتأخره ، العربية والبيزنطية لا تلقى أية أضواء على ماهية وكيفية ومدى هذا التعاون . فلم نعثر على وثائق او نصوص تؤكد تأكيدا قاطعا ان اتفاقيـــة او معاهدة مثلا ، تمت بين كريت وأى من الاساطيل الاسلامية بخصوص التعاون معاً فى عمل عسكرى مشترك ضد البيزنطيين . وعلى أية حال ، يمكن القول ان هذا التعاون البحرى بين المسلمين ، انما جاء نتيجة لما بلغته البحرية البيزنطية من ازدهار وتقدم ، وعلى الاخص فى اوائل عهد الاسرة المقدونية ، فكان رد الفعل عند المسلمين هو تعاونهم وتكتلهم ومساندتهم لاسطول كريت حتى يستطيع مواصلة جهوده العسكرية ضد الدولة البيزنطية ويرجع هذا التعاون ايضا الى نمو القوى البحرية الاسلامية فى شرقى البحر الابيض المتوسط وغربه

---

(١) لويس : القوى البحرية ، ص ٢٢٧ ، ومابعدها .

يضاف لذلك ، تلك الرابطة التى جمعت بين المسلمين ، سواء فى كريت او فى البلاد الاسلامية الاخرى ، وهى الرغبة الخالصة للجميع فى الجهاد فى سبيل الله ، خصوصا بعد ما شاع فى ارجاء الوطن الاسلامى ، الدور الكبير الذى اضطلعت به جزيرة كريت فى الجهاد ضد البيزنطيين ، والذى اكده احـد المعاصرين وهو ابن حوقل الذى قال ان كريت كانت بما فيها «من الرجال والعده والعتاد ، كالنار لهيبها لايفتر ، واوارها لايقصر ، وكان اهلها ينكون فى بلد النصرانية صباح مساء ، نكاية بينه ظاهره ، يوجبها لهم قربهم مـن مطالبهم ، ومجاورتهم للروم فى مساكنهم (١) » وأيد ابن حوقل فى ذلك أحد الجغرافيين المتأخرين نسبيا وهو ياقوت الذى ذكر ان كريت «كانت مـن اعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم (٢)» وقد هيأ لها هذا الدور الفرصه لان تتبوأ مكانا مرموقا فى طليعة القوى الاسلامية المواجهة للعدو المشترك ولهذا اصبحت معظم الاساطيل الاسلامية ترنو للاشتراك مـع اسطول كريت فى عملياته العسكرية ، دفاعا عن كيانها ، وردا لهجمات العدو المنتظره .

ونظرا للدور الكبير الذى لعبتة البحريه فى هذه المرحلـه من مراحـل الصراع بين كريت وبيزنطه ، يجدر بنا ان نلم بنبذه سريعه عن نظام البحريه عند كل من المسلمين والبيزنطيين ، استكمالا للمعالجة الشاملة للموضوع .

كان رجال الاسطول الاسلامى يتألفون من المقاتلين والملاحين ، وكان يرأس المقاتلين بكل سفينه حربيه «قائد» او «مقدم» يتولى تدريب الجند على القتال فى البحر . اما الملاحون فى السفينه فـكان لهم رئيسا يعرف باسـم «الاشتيام» (٣)

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ٢٠٣ انظر كذلك الفصل الثانى من هذا البحث ص‌ص١٠٢–١٠٥ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢٣٦ (طبعة بيروت) .

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٣٠٤ .

وكان طاقم المركب الحربى الكبير يشتمل على عشرة افراد هم : ريس ريح ، وماسك دفه ، وقبطان ، واربعة نجارين ، وطبيب ، وجراح ، وجلفاط (١)

وكان على الاسطول قائد عام يدعى «امير البحر» أو «والى البحر» أو «امير الماء» (٢) ومن واجباته المحافظة على المراكب وتقويتها وادخار آلاتها حتى اذا تلف شئ منها وجد ما يخلفه ، وان يختار القواد والرؤساء الذين لديهم خبره بمسالك البحر ومراسيه وعلامات الرياح والحركات البحرية الخاصة بالمد والجزر وغير ذلك من امور البحر . وعليه كذلك ان يشرف على شحن المراكب بالاسلحة الخاصة بالقتال وان يحذر الاماكن التى تكثر بها الشعاب وان كان القتال على مقربة من البر والسواحل والجزر ، فمن واجبه ان يجعل عيونه على قمم الجبال حتى لايفاجأ بخطر يأتيه من ناحيتها ، كما يجب عليه ان يكثر من شحن السفن بالمؤن والمياه بكميات مضاعفة (٣) . هذا وكانت تجرى الارزاق على رجال الاسطول كل بحسب رتبته (٤) .

اما عن السفن التى استخدمها المسلمون فى حروبهم البحريه فى هذه الحقبه من الزمن ، فمنها «الشوانى» ومفردها «شينى» ، وكانت من اهم القطع التى يتكون منها الاسطول الاسلامى لانها كانت من اكبر السفن حجما ومن اكثرها

---

(١) ابن المنكلى : الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر ، مخطوط مصور ، لوحة رقم ٢٠ .

(٢) الحسن بن عبد الله : آثار الأول واخبار الدول ، ص ١٩٥ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٢٨٢ ، راجع كذلك ، حسن إبراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسى . ج٣ ، ص ٢٨٨ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٢٧٢ .

(٣) الحسن بن عبدالله : نفس المصدر ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ، ج١١ ، ص ٣١٩ .

استعمالا لحمل المقاتلين . وكانت مزودة بالابراج والقلاع للدفاع والهجوم كما انها مزوده بقاذفات النار الاغريقية . وكان متوسطها تحمله الشيني الواحده مائه وخمسون رجلا ولها مائه مجداف ، وبعضها يسير بمائة واربعين مجدافا ويرى المؤرخ ارشيبالد لويس ان المسلمين اخذوا هذا النوع من السفن عن البيزنطيين ، الذين كانوا اول من بنى هذه الشوانى (٢) .و«المسطحات» وهى نوع من سفن البحر والنهر عرفت فى اواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ومن نص اورده الطبرى (٣) يفهم منه ان لهذه السفن اربعون مجدافا ، وكانت تستخدم فى القتال . و«الحراقات»وهى سفن حربيه مجهزه بآلات لقذف النيران على الأعداء ، ويذكر المؤرخ دوزى ان هذه السفن قد استخدمها المسلمون بصفة خاصة فى حالات الحصار البحرى لمدن الاعداء ومن السفن (٤) المقاتلة كذلك «الشذا» و«الشلنديه» وقد اخذ المسلمون هذا النوع الاخير عن البيزنطيين (٤) . اما السفن التابعة للاسطول والتى اقتصر استعمالها على النقل فمنها «العشاريات» وهى لنقل المقاتلين والعتاد وتسير بعشرين مجدافا (٥) . و«المعابر» وهى سفن صغيرة الحجم استخدمها رجال الاسطول للعبور من شاطئ لآخر فى وقت الحرب وكذلك لنقل الاسلحه (٦)

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ ، عبد الرحمن ذكى : السلاح فى الاسلام ، ص ٣٦ .

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٣٢٥ .

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، حوادث عام ٢٦٧ هـ .

(5) Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes, Tome premier Paris, 1881, p. 274

(٤) انظر التعريف بالشلنديه ص ١٤١ من هذا الفصل

(٥) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ١٩٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ، ص ١٩٩ .

(٦) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٣١٦ .

«والعزازى» وكان استعماله خاصا بنقل المؤن فقط (١) . «والمركوش» واقتصر على حمل الماء (٢) . «والطريده» وهى لنقل الخيل وكان اكثر ما يحمل فيها اربعون فرسا (٣) .

ومن النصوص التى أوردها المؤرخون البيزنطيون اثناء وصفهم لبعض المعارك التى جرت بين البيزنطيين ومسلمى كريت ، يأتى ذكر لبعض انواع السفن المستخدمة فى الاسطول الكريتى ، ومنها على سبيل المثال سفن تدعى كيمباريا Cumbaria ونوع آخر يدعى أنراريا Oneraria (٤) . وقد ذكر الامبراطور ليو السادس فى كتابه «فنون الحرب» Tactica نبذات مختصرة عن هذه السفن ، ومنها يتضح ان الكيمباريا من السفن المقاتله المحدودة الاتساع ولها ثلاثة صفوف من المجاديف ، وقد حرص الامبراطور ليو على ان يشير الى ان المسلمين — بصفة خاصة — قد استخدموها فى حروبهم البحرية (٥) . اما الانراريا فهى من السفن التى تستخدم فى النقل ولاتستخدم فى القتال ، وكان استعمالها مقتصرا على نقل الاسلحة الحربية والمؤن والالات التى تستخدم فى الحصار ، كما استخدمت كذلك لنقل الخيل (٦) .

والى جانب السفن الكبيرة كان الاسطول يشتمل كذلك على زوارق صغيرة سريعة الحركة تستخدم فى الأنهار الضيقة والخلجان التى لا تستطيع السفن الكبيرة الدخول اليها ، كذلك كانت تستخدم لاحراق سفن الاعداء

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .
(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .
(٣) ابن مماتى : نفس المصدر ، ص ٣٣٩ .

(4) Theophanes Continuatus vol. V p. 298.
(5) Leonis Philosophi, Tactica, parisina, 1863, p. 1011.
(6) Ibid, p. 994.

فتلتقى بها النيران وتهرب اولتقطع عليها الطريق ، فاذا هوجمت لاذت بالفرار الى الاماكن الضيقة فلا تستطيع السفن الكبيرة اللحاق بها (١) .

وفيما يتعلق بالاسلحة التى استخدمها المسلمون فى الحرب البحرية ، فمنها السهام والنشاب والرماح والقسى والخناجر والباسليقات وهى سلاسل بعصى فى رأسها رمانه من الحديد ، والمجانيق ، والعرادات وهى صورة من المجانيق . وقد استخدم المنجنيق لالقاء قوارير ما يسمى بدهن المنجنيق ، وهو خليط من النفط والكبريت وبعض المواد الدهنية ، وتقلب هذه المواد كلها على النار حتى تصبح شيئا واحدا يوضع فى قارورة من الجص وترمى بـه المجانيق على سفن الاعداء ، فاذا وقعت القاروره على مكان ما فى السفينة لطخته بالدهن ، ثم يعملون على القاء بعض المشاعل على نفس المكان فيشتعل كله ولا تطفأ النار حتى تصير السفينه كلها رمادا (٢) .ومن الاسلحة التى استخدموها ايضا «اللجام» وهو عباره عن قطعة طويلهمن الحديد محددة الرأس جدا ، واسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من اسفلها فى خشبة كالقناة بارزة فى مقدمة السفينه يقال لها «الاسطام» فيصبح اللجام وكأنه سنان رمح بارز من مقدمة السفينة ، ويحتالون فى طعن سفن الأعداء به ، فاذا اصاب جانب السفينة المعادية بقوة نقبه حتى يخشى غرقه ، وحينئذ يطلب العدو التسليم وكان بعض الملاحون ممن يجيدونالغوص ، يغوصون فى الماء حتى يصلوا الى سفن الاعداء فينقبونها حتى يتسرب اليها الماء وتغرق . وفى حالة اقتراب سفن المسلمين من سفن الاعداء كان المسلمون يطرحون بينهما الواحا من الخشب

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج١١ ، ص ٢٩٠ .
ابن المنكلى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٢١ .
(٢) ابن المنكلى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٢٨ .

كالجسر وينتقلون عن طريقها الى سفن الاعداء فيقاتلونهم وجها لوجه . كما كانوا يجعلون فى اعلى السفن صناديق مفتوحه.من اعلاها يسمونها «التوابيت» يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم الحجارة يرمون بها العدو مستورون بالصناديق ، او يرمونه بقوارير النفط وقدور الصابون اللين حتى تنزلق اقدامهم ، او قدور بها حيات وعقارب . على ان اكثر ما كان يخشاه المسلمون من البيزنطيين هو النار الاغريقية وذلك بسبب سرعة اشتعال القار الذى تطلى به السفن ، على انهم كانوا يتغلبون عليها بأن يعلقوا حول المراكب الجلود واللبود المبلولة بالخل والشب والنطرون لمقاومتها لهذه النيران (١) .

ومن أساليب القتال البحرى التى عرفها المسلمون ، تنظيمهم للاسطول على هيئة قلب وميمنه وميسره وساقه ، أو ان تصطف السفن صفا واحدا لمقابلة الأعداء ، تماما مثل التشكيلات التى استخدموها فى الجيش البرى . (٢) وقد أجاد المسلمون فنون الحصار البحرى ، واستخدموا فيه نفس الآلات التى استخدموها فى الحصار البرى من المعاول والفؤوس والمناشير ، إلى جانب السلالم لتسلق الأسوار ، والكلاليب المربوطه بالحبال يرمون بها أعلى السور ثم يتسلقون الحبال ، كما استخدموا الحطب والقار والكبريت المشتعل لاحراق الاسوار . وقد استخدم مسلمو كريت كل هذه الاساليب فى حروبهم مع الدولة البيزنطية . ومن الأمثلة لذلك ماحدث أثناء حصارهم البحرى لمدينة سالونيك البيزنطية فى عام ٩٠٤ (٣) .

---

(١) الحسن بن عبدالله : اثار الأول ، ص ١٩٦ — ١٩٧ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، حـ١١ ، ص ٢٨٥ ، ابن المنكلى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٨ ، لوحة ٢٧ .

(٢) ابن المنكلى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٢٠ .

(٣) انظر تفاصيل حصار المسلمين لسالونيك فى الفصل الثالث من هذا البحث ص١٨٣ ومابعدها

ومن هذا العرض لنظم الأسطول عند المسلمين يمكن القول انهم قد نهضوا بقوتهم البحرية نهضة مباركة كان لها أثر بعيد فيماقاموا به من فتوحات وما أحرزوه من انتصارات على المعتدين .

أما فيما يتعلق بالبحرية البيزنطية . فالمعروف أنها لعبت دورا هاما أثناء الصراع الذى اشتعل بين الدولة البيزنطية والمسلمين ، وخاصة فى عهد الامويين الذين حاصروا القسطنطينية برا وبحرا أكثر من مره ، وقد أبلى الأسطول البيزنطى بلاء حسنا أثناء عمليات الحصار ، واضطر السفن الإسلامية إلى رفع الحصار فى كثير من الحالات (١) . على أنه بسقوط الدولة الأموية فى ٧٥٠ م (١٣٢هـ) انتقلت قاعدة الخلافة الإسلامية من إقليمى البحر المتوسط وهما الشام ومصر ، إلى إقليم داخلى فى غربى آسيا ، اذ صارت بغداد العاصمة الجديدة للخلافة العباسية ، وهى بعد مدينة فارسية فى أفكارها وثقافتها ، وتتجه نحو وسط آسيا والمحيط الهندى ، لاصوب البحر المتوسط . وقد ترتب على ذلك أن الخلفاء العباسيين لم يواصلوا النشاط البحرى لاسلافهم الأمويين ، فخفت حدة البحرية الاصطدامات البحريه بين المسلمين والبيزنطيين ، وبالتالى بدأ الاباطرة البيزنطيون يوجهون اهتماما أقل إلى بحريتهم (٢) .

والواقع أنه منذ القرن الثامن الميلادى وجدت عوامل أخرى ساعدت على تزايد هذا الاهمال ، ومنها الصراع العنيف الذى قام فى الدولة البيزنطية حول عبادة الصور المقدسة . فالمعروف أن أهالى الثغور البحرية البيزنطية وخاصة فى الجزء الأوروبى من الإمبراطورية كانوا من الايقونيين ، وحين

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الا بيض المتوسط ، ص ٩٦ — ١٠٨ .
(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ١٥٧ .

قام أباطرة الأسرة الأيسورية (٧١٧ — ٨٢٠ م) بمناهضة هذه العبادة ، تعرضوا لسخط بحارة هذه الاساطيل ، وظهرت حركات التمرد بينهم على الحكم فى بيزنطه ، بل ونصبوا فى بعض الاحيان أباطرة جدد وتقدموا لمهاجمة القسطنطينية ، ونتيجة لذلك عمل أباطرة الأسرة الأيسورية على الحط من شأن الاسطول وبحارته حتى لاتقوى شوكتهم وتزداد تبعا لذلك حركات التمرد بينهم (١) . ثم جاءت ثورة توماس الصقلبى التى بلغت ذروتها فى عهد الأمبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩ م) لتقضى على البقية من أساطيل الولايات البيزنطية (٢) .

وقد ترتب على ذلك نتائج خطيرة للغاية ، إذ أن الأساطيل الإسلامية استطاعت أن تظهر مرة ثانية فى القرن التاسع الميلادى، واستولت على جزيرة كريت فى ٨٢٧ م / ٢١٢ هالتى تحولت منذ ذلك الوقت إلى قلعة إسلامية حصينة كانت مصدر إزعاج دائم لبيزنطة بما شنه المسلمون بها من غارات متكررة على جزر وسواحل البحر الأيجى . وفى نفس العام تم فتح صقلية، وأخذوا فى الأغارة على الممتلكات البيزنطية فى جنوب إيطاليا . وهكذا أصبح من الضرورى أن يعيد أباطرة الأسرة العمورية (٨٢٠ — ٨٦٧ م) بناء قوتهم البحرية ، ليتمكنوا من صد هذا الزحف البحرى الإسلامى والصمود أمامه وشجعهم على ذلك القضاء النهائى على المشكلة الدينية ، باعادة الارثوذكسية الصحيحة فى عام ٨٤٣ م (٣).

---

(١) رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٧٧ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) سبق التعرض لآثار هذه الثورة على البحرية البيزنطية فى الفصل الأول من البحث.

(٣) لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ٢٤٣ ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

وقد واصل الأباطرة المتقدمون من الأسرة المقدونية (٨٦٧ —١٠٢٥ م) إهتمامهم بالأسطول ، وبلغ هذا الأهتمام ذروته فى عصر الامبراطور رومانوس ليكابينوس (٩١٩ — ٩٤٤ م) ، فقد كان هذا الإمبراطور قائدا عاما للأساطيل البيزنطية قبل اغتصابه للعرش الأمبراطورى ، لذلك أولى إهتماما خاصا للبحرية ، فشرع فى بناء سفن أكثر ضخامه وأشد قوة عن ذى قبل ، وبذلك تكون الاسطول البيزنطى الذى أصبح أداة فعالة فى يد البيزنطيين استخدموه لاسترداد كريت فى أوائل الستينيات من القرن العاشر الميلادى(١)

ولقد وصلتنا معلومات قيمة عن نظام البحرية البيزنطية فى عصرها الذهبى هذا ، اذ أورد الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢ م) فصلا عن البحرية البيزنطية فى كتابه « فنون الحرب » Tacrica ، ولعل المصدر الأهم هو كتاب الأمبراطور قسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٩ م) المسمى « المراسيم الإمبراطورية وهو باليونانية إذ أورد فى هذا الكتاب تفاصيل الحملتين البحريتين اللتين أرسلتها الإمبراطورية البيزنطية لاستعادة كريت من المسلمين ، وقد تم أرسالها فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، وبالعودة لتفاصيل هاتين الحملتين البحريتين ، يمكن الالمام بصورة واضحة عن نظام البحرية البيزنطية فى تلك الحقبة من التاريخ .

كانت البحرية البيزنطية تتكون من :

أولا : الاسطول الامبراطورى وهو بمثابة العمود الفقرى فى البحرية البيزنطية ومقره الدائم عند القسطنطينية ، وكان بحارته من البيزنطيين ، وغالبا ما كان يضم اليهم أعداد قليلة من البحارة المرتزقة مثل الروس (٢) :

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ٢٤٥ .

(٢) انظر كتاب الامبراطور قسطنطين السابع « المراسيم الامبراطورية » ، الجزء الثانى ص ٦٥١ (باليونانية).

ثانيا : أساطل الولايات ، وقد تكونت من أساطيل الولايات البحرية البيزنطية وكانت فى ذلك الوقت تشمل : —

١ — إسطول ثيم كبير هايوت (٢) .

٢ — إسطول ثيم ساموس .

٣ — إسطول ثيم البحر الإيجى.

٤ — إسطول ثيم الهيلاس « بلاد اليونان».

هذا بالاضافة لبعض الوحدات البحرية التى كانت ترابط عند نيقوبوليس (٣) والبلوبونيز (٤) وكيفالونيا (٥)

وكان بحارة هذه الأساطيل الإقليمية يتكونون من رعايا الإمبراطورية ومن المتبربرين المستقرين فى الأراضى البيزنطية مثل المردة وقد (٦) احتفظ كل أسطول إقليمى . بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والبحاره

---

(١) بشان اساطيل الولايات البحرية البيزنطية ، انظر نفس المصدر السابق ، ص ٦٥٢ — ٦٥٣ .

(٢) تقع كبير هايوت على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى .

(٣) تقع نيقوبوليس على ساحل نهر الدانوب .

(٤) البلوبونيز هى شبه جزيرة الموره ، انظر أطلس اوكسفورد ص ٣٩ .

(٥) كيفالونيا هى جزيرة صغيرة فى البحر الادرياتى عند مدخل خليج كورنثه ، انظر اطلس اوكسفورد ، ص ٣٩ . وبشأن هذه الوحدات البحرية الثلاث انظر كتاب الامبراطور قسطنطين السابع ، ح٢ ، ص ٦٦٥ .

(٦) المرده هم جماعات جبلية كانت تسكن نواحى لبنان من قديم الزمن ، وكانت الدولة البيزنطية تستخدمهم فى الدفاع عن حدودها الشرقية ، وبعد فتح المسلمين للشام تراجع المرده إلى أسيا الصغرى وهناك قاموا يحاربون فى صفوف البيزنطيين حتى تم نقلهم فى عصر الامبراطور جستنيان الثانى (٦٨٥ — ٦٩٥ م) إلى الولايات الأوروبية التابعة للدولة البيزنطية ، انظر :

Schlumberger, un Empereur Byzantin, p. 50.

راجع كذلك بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٥٣ ، ص ١٩٣ ، حاشية رقم ١ .

ودور الصناعة واحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى . وذلك على نفقة الاقاليم التى ترابط فيها هذه الأساطيل (١) . وفى حالة القيام بحملة بحرية كان على هذه الولايات أن ترسل بعض القطع الحربية من أساطيلها بكل لوازمها واستعداداتها لتساهم مع الأسطول الإمبراطورى فى نشاطه العسكرى .(٢) .

وكانت رتب العاملين بالأسطول البيزنطى تتدرج فى شكل هرمى ، يبدأ من القاعدة بالكوميتيس Comites ، وهو الذى يتولى قيادة مجموعة صغيرة من السفن لاتقل عن ثلاث ولا تزيد عن خمس ، ويدين الكوميتيس بالولاء المباشر للقائد Dux ، الذى يتقدم عليه حامل الرمح Hestes وهذا يدين بالولاء للضابط Mandata ، الذى يخضع بدوره للدرنجار Diungarius ، الذى يتسلم الأوامر من الأمبراطور ذاته (٣) .

وكان جميع العاملين بالبحرية البيزنطية يتقاضون اعطيه مثل زملائهم العاملين بالجيش ، اما الاعطيه الأضافية التى كانوا يتقاضونها عند الاشتراك فى حملة بحرية فكانت تتحملها كلها الخزينة الإمبراطورية ، وقد اختلفت أعطية البحارة تبعا لاختلاف الأسطول الذى ينتمون إليه . ويفهم مما أورده الأمبراطور قسطنطين السابع أثناء عرضه لأعطية البحارة خلال حملة عام ٩١١ ضد كريت ، أن بحارة الأسطول الإمبراطورى كانوا يتقاضون عطاء أكبر من الذى يتقاضاه بحارة الأسطول الإقليمى (٤) .على أنه فى حالات قليلة كان

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارة ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٢) انظر كتاب الامبراطور قسطنطين السابع « المراسم الامبراطورية » ، جـ٢ ، ص ٦٥٢ — ٦٥٣ (باليونانية) .

(3) Leonis philosophi, Tactica, p,. 998.

(٤) قسطنطين السابع : المراسم الامبراطورية ، جـ٢ ، ص ٦٥٤ — ٦٥٥ (باليونانية) .

لأباطرة يجذلون العطاء للقادة والبحارة المشتركين فى بعض الحملات ليكون ذلك دافعا لهم على بذل اقصى جهدهم من أجل احراز النصر (١) .

اما عن السفن التى استخدمت فى الأسطول البيزنطى فأنها أختلفت باختلاف العدو الذى تحاربه بيزنطه ، فقد قال الامبراطور ليو البسادس مخاطبا قائد الأسطول : أن حجم السفن التى تبنيها سيتوقف على العدو الذى تحاربه ، والأمر يختلف بين العرب والروس . فالعرب يستخدمون سفنا كبيرة وبطيئة نسبيا ، بينما يستخدم الروس سفنا خفيفة وسريعة الحركة ، والسبب أن غارات الروس فى البحر الأسود ، تحدث عند مصبات الأنهار حيث يتعذر استخدام سفنا أكثر من حمولة معينة (٢) . ومن السفن التى استخدمها البيزنطيون فى حربهم مع المسلمين تلك السفن المعروفة باسم الدرمونه Diomones — وهى سفن كبيرة تستخدم فى القتال ، وقد وجه البيزنطيون عناية كبيرة لصناعة هذا النوع من السفن وحرص الإمبراطور ليو السادس على أن ينصح الموكلين ببناء هذه السفن قائلا « ينبغى أن تكون ألواح الخشب التى تصنع منها هذه السفن متوسطة ، لا كبيرة الغلظ فتبطىء فى سيرها ، ولا بالرقيقة فتكون حينئذ عرضة للغرق عند التناطح مع سفن الأعداء ، أو حين تعرضها لأمواج البحر» (٣) . وتسير الدرمونه بأربعة صفوف من المجاديف ، وبلغ عدد مجاديفها من ٢٠٠ إلى ٢٣٠ مجداف ، وتتسع الواحده منها لسبعين مقاتلا عدا المجدفين ، ومنها ماهو أكبر فيتسع

(1) Symeon Magistri, op. cit., p. 624.

(2) Leonis Philosophi, Tictica, p. 992.

(3) Ibid, p. 991.

لمائتين وعشرين رجلا . وإلى جانب ذلك كان بكل درومونه شخصا موكلا يحمل العلم ، وشخصان مخصصان لتوجيه الدفة ، وآخر موكلا بالحلب(١) .

ومن السفن الكبيرة المقاتلة كذلك ، نوع « البامفيليه Pamphyli ، وهى أسرع من الدرمونه ، وغالبا ماكان قائد الأسطول البيزنطى فى القرن العاشر الميلادى يتخذ سفينتهمن هذا النوع . وقد وصل عدد مجاديفها إلى ١٦٠ مجدافا ، وكانت حمولتها من الرجال المقاتلين من ١٣٠ إلى ١٦٠ رجلا (٢). وغالبا ماكان المحاربون على ظهر هذه السفن من المنطقة الجبلية المواجهة لبامفيليه ، (٣) ويعرفون بأسم البامفيليين ، ولذلك فقد نسبت اليهم هـذه السفن (٤) .

وهناك السفن المعروفة بأسم الشلندية Chelendia — وكانت تتسع لأعداد من المقاتلين تتراوح مابين ١٠٨ إلى ١٥٠ مقاتلا (٥) . وقد استخدم البيزنطيون هذا النوع من السفن بكثرة ، وتذكر المصادر العربية أن الأسطول البيزنطى الذى خرج للأغارة على مدينة دمياط فى عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م انتقاما للهزائم التى انزلها الأسطول الكريتى بالبيزنطيين ، كان يتكون من ثلاثمائـة شلندية (٦) . وقد وصفها المؤرخ ابن مماتى بقوله : مركب مسقف تقاتـل

---

(١) قسطنطين السابع : المراسم الامبراطورية ، جـ٢ ، ص ٦٥٢ — ٦٥٣ (باليونانية).
(٢) نفس المصدر سابق ، جـ٢ ، ص ٦٥٣ .
(٣) تقع بامفيلية فى ثيم كبير هايوت على ساحل اسيا الصغرى المواجه للبحر المتوسط ، انظر الخريطة الملحقة بكتاب رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٤٠٦ .
(٤) قسطنطين السابع : المراسم الامبراطورية ، جـ٢ ، ص ٧٨٧ ، (باليونانية)
(٥) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٦٦٤ (باليونانية) .
(٦) انظر على سبيل المثال ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ ، الكندى : ولاة مصر ، ص ٢٢٧ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٦ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٢٧٧ .

الغزاه على ظهره ، وجذافون يجذفون تحتهم (١). وثمة نوع من السفن يطلق عليها اسم جاليا Galea وهذه السفن أصغر حجما من السفن السابقة ولها صفوف مفرده من المجاديف (٢) .

وإلى جانب هذه السفن الكبيرة ، كانت هناك سفن صغيرة سريعة الحركة أشبه ماتكون بالزوارق الكبيرة . ومنها النوع المعروف بأسم الأوسيا Ousia . وقد صنع على نفس طراز القوارب الروسية ، ويتسع لعدد من البحارة يتراوح مابين ٥٠ إلى ٦٠ بحارا ، وكانوا غالبا من البحارة الروس الذين يستعان بهم فى الأسطول البيزنطى (٣) . وبالأضافة إلى السفن الحربية كانت هناك سفن أخرى لنقل الخيل والمؤن، وغيرها من مستلزمات الجنود وغالبا ماكانت السفن التجارية تحول فى وقت الحرب إلى سفن للنقل (٤) .

وكانت السفن الحربية الكبيرة تزود بأبراج من الخشب ، وكان موضع البرج فى الغالب فى المؤخرة ، وأثناء القتال ، كان البحارة يتخذون أماكنهم فى داخل البرج حتى يكونوا بمأ من من هجمات العدو ، وفى نفس الوقت يوجهون اليه بأسلحتهم التى كان أهمها قنابل يدوية تحتوى على المركب الكيميائى للنار الاغريقية . وكانت هذه القنابل تنفجر وتشعل النار فى سفن الأعداء كما كانت المراكب الكبيرة تزود كذلك بقاذفات النيران الأغريقية . (٥) ومن

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص . ٣٤ .

(2) Leonis Philosophi : Tactica, p. 994.

(٣) قسطنطين السابع : المراسيم الا مبراطورية ، ج٢ ، ص ٦٦٤ (باليونانية) .

(4) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64.

(5) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64: Leonis Philosophie, Tactica, p. 1006.

الأسلحة التى استخدمها الأسطول البيزنطى كذلك ، شوك من الحديد ذات أطراف حادة كانت تستخدم لثقب سفن الأعداء ، وحراب مسنونة لتمزيق أشرعة وحبال السفن المعادية ، وكلاليب حادة مزودة بسلاسل حديدية كانت تستخدم لجذب سفن الأعداء القريبة والأشتباك معهم وجها لوجه . بالأضافة للسيوف والسهام الكبيرة والصغيرة ، كما كان البحارة يزودون بالدروع السمكية ، والخوذ الفولاذية التى كان بعضها يغطى كل الوجه وذلك لحمايتهم من أسلحة الأعداء . وكان لكل سفينة حمولة محدده من الأسلحة ومهمات الحرب توضع بها ليستخدمها المقاتلون ، كما كان لابد من وجود كميات مضاعفة بكل سفينة من قطع الغيار اللازمة لها مثل المجاديف والحبال والبكرات والواح الخشب والقار ، حتى تكون تحت إيدى البحارة عند الحاجة اليها ، كذلك لابد من وجود نجار ومعه كل مايلزمه من معدات كالازميل والمنشار وغيره مما يحتاج اليه فى عمله .

ومن فنون الحرب البحرية التى يوصى بها الأمبراطور ليو السادس قائد الأسطول البيزنطى ، تجنب المعارك الفاصلة مع الأعداء ، إلا إذا كان أسطول العدو يعانى من المتاعب ، ويرى أن المناوشات المنفصلة أفضل بكثير من المعارك الفاصلة ، فإن اضطرته الظروف لخوض المعركة ، فان ينصحه بالقتال فى هيئة التشكيلة الهلالية (أى النصف دائرة) (٢) .

---

(١) لقد اورد الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه « المراسم الامبراطورية » الحمولة المخصصة لكل درومونه من الأسلحة ومهمات الحرب ، انظر التفاصيل فى الفصل الثالث من هذا البحث . انظر كذلك ،

Leonis Philosophie, Tactica, p. 994

(2) Leonis Philosophie, Tactica, p. 1006.

وقد وجه البيزنطيون أهتماما كبيرا إلى علم العمليات البحرية ، فدرس القادة البحر والأوصاف الطبيعية للسواحل والجزر ، وخصائص الرياح وأتخذوا تجاهها الأحتياطات اللازمة ، وكانت الأشارات تتم بين السفن عن طريق الرايات نهارا ، واستخدام الأضواء ليلا (١) . وفى حالة القيام بحملة بحرية ضد الاعداء كانت بعض السفن الحربية البيزنطية ترابط فى مياه القسطنطينية لحمايتها ضد أى هجوم يقع عليها أثناء غياب الأسطول . (٢)

وهكذا يتضح مدى التقدم والأزدهار الذى أحرزته البحرية البيزنطية خلال هذه المرحلة من تاريخ الأسرة القدونية ، الأمر الذى أدى إلى رد فعل إيجابى لدى المسلمين ، تمثل فى تعاون الاساطيل الإسلامية فى البحر الأبيض المتوسط مع أسطول كريت . حتى تستطيع هذه الإمارة المجاهدة مواصلة أنتصاراتها العسكرية على العدو البيزنطى .

وكان الامبراطور باسيل المقدونى هو أول من عانى من جراء هذا التعاون البحرى الإسلامى ، ففى السنة الأولى من حكمه أى فى عام ٨٦٧ م (٢٥٣ هـ) قام المسلمون بغارة كبيرة على الساحل الشرقى للبحر الادرياتيكى المعروف بساحل دالماشيا Dalmatia (٣) ، وقد دون هذه الغارة عدد من

---

(١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٤ ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٨٣ .

(٢) قسطنطين السابع : المراسيم الامبراطورية ، جـ٢ ، ص ٦٦٤ (باليونانية)

(٣) كانت دالماشيا هذه تابعة للدولة البيزنطية ، وفى عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) بدأت القبائل الصقليبية تغزوها وتستقر بالساحل والاماكن الداخلية بها ، ورغم ذلك فقد بقيت بعض المدن تحتفظ بالاستقلال عن هذه القبائل . وأثناء الصراع الداخلى الذى اشتغل فى الدولة البيزنطية حول عبادة الصور والايقونات بدأت هذه المدن تطرح السيادة البيزنطية تدريجيا ، ومنذ النصف الأول من القرن التاسع الميلادى استقلت تماما عن بيزنطة ، انظر :

Finlay, Histoiy of Greece, vol 11, p. 248; Ostragorosky, History of Byzantine State, p. 209.

المؤرخين البيزنطين أمثال الماجستر سيميون ، وقسطنطين السابع ، وصاحب صلة ثيوفان (١) . ويفهم مما رواه هؤلاء المؤرخون أنه أشترك مع أسطول كريت فى هذه الغاره بعض القطع الحربية من أساطيل مدينة قرطاجنة فى شمال إفريقية ، وصقلية ، وجنوب إيطاليا — وهى البلاد التابعة لدولة الأغالبه أنذاك — وكان الأسطول الإسلامى المهاجم يتكون من ٣٦ سفينة حربية ، استعمله المسلمون فى مهاجمة العديد من المدن من بينها مدن بوتوبا Butoba ، وروزا Rosa ، وديكاتير Decatera حتى وصلوا إلى المدينة التجارية الهامة المسماه راجوزا Ragusa ففرضوا عليها حصارا قاسيا ، وحين طال أمد الحصار ، وأشتد الأمر على سكانها ، أرسلوا يطلبون النجده من الإمبراطور باسيل الأول ، الذى وجد فى الطلب الذى تقدموا به الفرصة المناسبة لاعادة فرض السيادة البيزنطية من جديد على هذه المدن ، فسارع بارسال أسطول بيزنطى مكونا من مائه شلندية بقيادة البطريق والدرنجار البحرى نقيتاس أوريفاس Nicetas Oryhas ، قائد الأسطول البيزنطى فى ذلك الوقت . وحين علم المسلمون بأقتراب وصول هذا الأسطول ، رفعوا الحصار وأنسحبوا بعد أن ظلوا محاصرين المدينة لمدة خمسة عشر شهرا . وقد أسفرت هذه الغارة عن نتائج هامة فى صالح الدولة البيزنطية ، إذا أستطاع نقيتاس أوريفاس ، أن يعيد توطيد النفوذ البيزنطى على هذه المدن ، التى تعهدت بدفع الجزية السنوية للامبراطورية . كما نجح كذلك فى كسب ولاء القبائل الصقلبية المستقرة بالساحل والمناطق الداخلية وتعهدوا هم أيضا بدفع الجزية السنوية لبيزنطه ، على أن يتمتعوا بأستقلال ذاتى ، هيأ لهم الأحتفاظ بنظام حكمهم (٢) .

---

(١) انظر تفاصيل هذه الغارة فى المصادر التالية :

Symeon Magistri, p. 694; Constantin Porphyrogenety; De Administrando Imperio, p 130; Theophanes Continuatus, Liber V, p. 289.

(2) Contantin Porphyrogenetus, De Administrando Imperio, pp. 130—131

وقد شهد عصر الأمبراطور باسيل الأول مزيدا من الأشتباكات العسكرية مع كريت ، كانت فى نفس الوقت مظهرا من مظاهر التعاون العسكرى بين أسطول كريت والأساطيل الإسلامية فى البحر المتوسط فى مواجهة العدو البيزنطى . وجاء التعاون هذه المرة من جانب مدينة طرسوس ، التابعة وقتذاك لحاكم مصر أحمد بن طولون . والواقع أن هذه المدينة قد أبلت بلاء حسنا فى الجهاد ضد البيزنطين ، إذ كانت من الثغور الإسلامية الهامة المواجهة للعدو وكان يتدفق عليها المقاتلون المسلمون من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، ليقوموا بواجب الجهاد . وقد وصفها الجغرافى المعاصر ابن حوقل فقال : عليها سوران من حجارة ، كانت تشتمل على خيل ورجال ، وعدة وعتاد وكراع وكان بينهم وبين الروم جبال متشعبه من اللكام (١) كالحاجز بين العملين . ورأيت غير عاقل مميز وسيد حصيف مبرز يشار إليه بالدراية والفهم ، واليقظة والعلم ، يذكران بها مائة الف فارس ، وكان ذلك عن قريب عهد من الأيام التى أدركتها وشاهدتها . وكان السبب فى ذلك أنه ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والجبال وطبرستان والجزيرة واذ ربيجان والعراق والحجاز والشامات ومصر والمغرب ، إلا بها (أى بطرسوس) لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلاة ، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة إلى ما كان السلاطين يتكلفونه ، وارباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الاوله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات ، أو مسقف من فنادق»(٢) .

(١) اللكام ، جبل فى شمال الشام ، يشرف على مدينة انطاكية ، كذلك على المصيصة وطرسوس ومنطقة النغور ، انظر ، ياقوت : معجم البلدان ص ٣٣٧ (الطبعة الأولى ١٩٠٦ م)

(٢) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الأول ، ص‌ص ١٨٣ – ١٨٤ .



خريطة رقم (٢)



وتحقيقا لدور مدينة طرسوس فى الجهاد ، اشترك اسطولها مع الأسطول الكريتى فى الأغارة على الأراضى البيزنطيه فى عام ٢٦٦ ﻫ (٢٣ اغسطس ٨٧٩ — ١٢ اغسطس ٨٨٠ م) . وقد عرضت المصادر البيزنطية (١) هذه الغارة بشىء من التفصيل . أما المصادر العربية فقد أغفلتها ، وتكون الأسطول الإسلامى من ٣٠ قطعة حربية ، واسندت القيادة العامة فيه إلى عامل أحمد بن طولون على الثغور الشامية ، الذى ذكره المؤرخ البيزنطى صاحب صلة ثيوفان بأسم اسمانوس Esmanus (٢) . وقد حددت المصادر البيزنطية الموقع الذى تعرض لهذا الهجوم تحديدا دقيقا ، فذكرت انه وقع على مدينة خالقيس Chalcis — وهى المدينة الرئيسية فى جزيرة يوبيا Eubbea اليونانية (٣) . وأثناء الحصار الذى فرضه المسلمون على هذه المدينة ، أخذ حاكم ثيم الهيلاس (بلاد اليونان) ويدعى اونياتيس Oeniates ، فى تجميع القوات المحاربة داخل المدينة (٤) ، وعندما قامت القوات الإسلامية بمحاولة لاقتحامها اشتبكت معها القوات البيزنطية فى معركة كبيرة ، انتهت بانتصار البيزنطيين ، ولقى قائد الأسطول الإسلامى مصرعه خلالها ، بعد أن قاتل ببسالة هوورفاقه رغم قلة عددهم (٥) .

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Theophanes Continuatus, p. 298;

(2) Theophanes Continuatus, p. 298

ولعل اقرب الا سماء العربية إلى هذا الا سم هو « عثمان »

(٣) تقع مدينة خالقيس على مضيق يوريبوس Euripus ، الفاصل بين جزيرتى يوبيا وبيوتيا Boetia اليونانيتين . ، انظر ،

Encyclopedia Britannica, vol 5, p. 194; Cassell's new latin Dictionary, p. 220.

انظر كذلك خريطة رقم (٢) .

(4) Theophanes Continuatus, p. 298.

(5) Theophanes Continuatus, p. 298; كيدرنيوس : ص ٥٨٠.





خريطة رقم (٣)



وانتقاما لهذه الهزيمة ، أرسل حاكم أمارة كريت الذى ذكره صاحب صلة ثيوفان بأسم « سايته » Saete وذكره جينزيوس بأسم سايبس Saipes وهو الأمير شعيب بن أبى حفص الذى تولى حكم الجزيرة بعد وفاة والـده ابى حفص عمر بن عيسى (١) ، بأسطول مكون من ٢٧ قطعة حربية للاغارة على البلاد البيزنطية ، وقد تولى قيادة هذا الأسطول شخص يدعى فوتيوس Photius ، والمرجح أنه من أصل يونانى واعتنق الأسلام ويصفه كل من صاحب صلة ثيوفان وكيدرينوس بالشجاعة والمهارة الحربية. وقد عبر الأسطول الكريتى مضيق الهللسبونت ، ودخل فى مياه البروبونتيز ، وتوغل حتى وصل إلى جزيرة بروكونيسوس Proconnesus (٢) ، التى امتازت بموقعها الاستراتيجى الهام. وقـد أسرع قائد الأسطول البيزنطى نقيتاس اوريفاس لمطاردة المسلمين ، حتى التقى الطرفان فى معركة عند قناة فى البحر الإيجى بالقرب من كارديا Cardia وقد انتصر البيزنطيون فى هذه المعركة ، ودمروا عشرين سفينة كريتية ، أشتعل بعضها بفعل قاذفات اللهب البيزنطية وجذبوا بعضها الاخر بالكلاليب واشتبكوا مع المسلمين فى القتال وجها لوجه ، ثم دمروا هذه السفن

---

(١) لم تأت المصادر العربية أو البيزنطية بشىء عن التاريخ الدقيق لوفاة أبى حفص وتولى ابنه الحكم فى كريت ، وكل ماوصل الينا فى هذا المجال ، تلك الاشارة التى أوردها المؤرخ جينيزيوس ، والتى يفهم منها ان الأمير شعيب كان معاصرا للامبراطور باسيل الأول ، انظر : Genesius, p. 47—48 :

(٢) هى احدى الجزر الصغيرة الواقعة فى مياه البروبونتيز ، وتعرف فى الوقت الحاضر باسم جزيرة مرمره ، وهى تمتاز باعتدال مناخها ، وأهم محاصيلها القمح ، والعنب الذى يستخرج منه اهاليها النبيذ ، أنظر :

La grande Encyclopedia, vol, 23, p. 205.

واغرقوها ، أما البقية الباقية من الأسطول الكريتى فقدسارعت بالفرار بعدأن أصيب معظم من بها بالجراح (١) .

على أن المسلمين بكريت لم يستكينوا لهذه الهزيمة ، بل قاموا بتنظيم أسطول آخر رأسه فوتيوس للمرة الثانية ، وعادوا بعد أيام قلائل من المعركة الأولى لمهاجمة بعض المدن على الساحل الجنوبى الغربى لشبه جزيرة البلوبونيز ، مثل ميثونا Methona، وبيلوس Pylus ، ثم واصلوا تقدمهم نحو الشمال حيث هاجموا مدينة باتراس Patras (٢) وأخذوا يخربون الأماكن المحيطة بكورنثه والسواحل الغربية لبلاد اليونان . وأثناء طواف نقيتاس اوريفاس باسطولـه حول البلوبونيز ، شاهد السفن الكريتيه تعيث فى الأراضى البيزنطية ، فقام بعمل كمين لها ، بأن توارى بسفنه فى خليج كورنثه ، ثم فاجأها بالهجوم ودمر الأسطول الكريتى عن آخره ، وقتل البيزنطيون اعدادا كبيرة مـن المسلمين كان من بينهم فوتيوس نفسه ، كما اسروا اعدادا أخرى . ويسوق المؤرخان البيزنطيان صاحب صلة ثيوفان وكيدرينوس أمثلة واضحة للوحشية التى عامل بها البيزنطيون الأسرى المسلمين ، إذ تم تقطيع اجساد بعضهم اربا كما تم نزع جلد البعض الأخر وهم أحياء (٣) .

والواقع أن هذه الانتصارات التى احرزها البيزنطيون على المسلمين فى هذه المرحلة ، كانت أثرا من آثار النهضة البحرية الكبرى التى بلغتها الدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور باسيل الأول ، نتيجة للعناية والأهتمام الكبيرين اللذين وجههما هذا الإمبراطور إلى هذا المجال الحيوى فى دولته . على أن هذه

(1) Genesius, p. 48 ; Theophanes Continuatus, pp. 299—300;

راجع : ايضا كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٢٢٧ . باليونانية .

(٢) انظر الخريطة رقم (٢) .

(3) Thephanes Continuatus, P. 300

كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٢٢٧ .

الهزائم التى لقيها المسلمون أمام الأسطول البيزنطى كانت لها نتائج بعيدة المدى فهى لم تدفعهم إلى الاستكانة والاستسلام ، ولم تدخل اليأس إلى نفوسهم ، وانما كان لها رد فعل مضاد ، إذ ادت إلى ازدياد تعاونهم فى المجال البحرى بشكل أدى فى النهاية إلى احرازهم انتصارات باهرة على الدولة البيزنطيـــة .

ولعل من أهم ماأسفر عنه التعاون البحرى بين الأسطول الكريتى والأساطيل الأسلامية الأخرى فى البحر المتوسط ، ذلك الأنتصار العظيم الذى احرزته البحرية الإسلامية على الدولة البيزنطية فى عام ٩٠٤ م ، والخاص بالهجوم على مدينة سالونيك . ومصدرنا الرئيسى فى هذا الموضوع هو كتاب « قهر سالونيك » وهو مدون باليونانية الذى كتبه يوحنا كامينياتى ، وهو احد رجال الدين من أهالى سالونيك ، وكان شاهد عيان للغارة التى قام بهـــا المسلمون على مدينته (١) ، انتقاما للهزائم التى لحقت بهم أمام البحرية البيزنطية فى عهد باسيل الأول . وقد تعرض لهذه الغارة كذلك ، عدد من المؤرخين البيزنطيين ، منهم على سبيل المثال موناخوس ، وصاحب صلة ثيوفان ، وكيدرينوس (٢) غير أن اشاراتهم كانت شديده الإيجاز إذا ماقورنت بالعرض المسهب الذى قدمه يوحنا كامينياتى . أما المصادر العربية ، فقد أشارت هى الأخرة إلى هذه الغارة ، ولكن فى عبارات مبهمة مقتضبة لاتفى بالغرض المطلوب . ونورد على سبيل المثال ، ماذكره المؤرخ ابن الأثير فى حوادث عام ٢٩١ هـ (٢٤ نوفمبر ٩٠٤ م) إذ قال : «وفيها صار المعروف بغـــلام زرافه من طرسوس نحو بلاد الروم ، ففتح مدينة أنطاكية ، وهى تعـــادل

(١) للمزيد من المعلومات عن كامينياتى ، انظر ص١٤

(2) Monachus, p. 862—863; Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 368
كيدرينوس ، موجز التاريخ ، صص ٢٦١ – ٢٦٢ ، باليونانية .

القسطنطينية ، فتحها بالسيف عنوة ، فقتل خمس آلاف رجل ، واسر مثلهم واستنقذ من الأسارى خمسة آلاف ، وأخذ لهم ستين مركبا ، فحمل ماغنم لهم من الأموال والمتاع والرقيق ، وقدر نصيب كل رجل ألف دينار . وهذه المدينة على ساحل البحر ، فاستبشر المسلمون بذلك»(١) . وذكر كل من الطبرى وابن خلدون وابن تغرى بردى والحافظ شمس الدين نفس هذا المعنى(٢) .

وهناك مايدعو للاعتقاد أن هذا النص يتعلق بفتح مدينة سالونيك، وذلك لأكثر من سبب ، منها أن التاريخ الذى ذكره المؤرخون لهذه الغزوة وهو ٢٩١هـ يوافق تاريخ غزو سالونيك فى ٩٠٤م . كما أن غلام زرافة الذى ذكر المؤرخون المسلمون أنه قائد الأسطول الإسلامى أثناء هذه الغارة ، هو نفسه ليون الطرابلسى الذى قاد الأسطول الإسلامى المغير على سالونيك. ذلك أنه يفهم من رواية ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين الذين سبقت الأشارة اليهم ، أن اسم غلام زرافة ، ليس الإسم الحقيقى لهذه االشخص ، وانما هو اسم اشتهر به . وبالبحث والتنقيب فى المصادر العربية عن الأسم الحقيقى له ، امكن العثور فى كتاب «التنبيه والأشراف » للمسعودى على نص يقول : «بند سالونيكه ، التى افتتحها لاون ، غلام زرافه»(٣) وهكذا يتضح أن الأسم الحقيقى لغلام زرافة هو لاون .

---

(١) ابن الا ثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ١٧٤ .

(٢) الطبرى : تاريخ الا مم والملوك ، جـ١١ ، ص٥ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٣٥٧ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ١٣٢ ، الحافظ شمس الدين : دول الا سلا م ، جـ١ ، ص ١٣٨ .

(٣) المسعودى : التنبيه والا شراف ، ص١٨٠ .

وبالعودة إلى المصادر البيزنطية ، نجد أنها جميعا وبلا استثناء ، تؤكد أن قائد الأسطول الإسلامى الذى أغار على سالونيك يدعى ليون — Leon . وتلقى هذه المصادر المزيد من الضوء على ليون فتقول ، أنه ولد من أبوين مسيحيين فى إقليم أضاليا ، فى ولاية بامفيلية على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى وكان يسمى آنذاك ليون الاضالى وعندما بلغ مرحلة الشباب ، ارتد عن الدين المسيحى واعتنق الإسلام ، ورحل إلى البلاد الشامية حيث استقر بمدينة طرابلس على الساحل ، ومن طول أقامته بهذه المدينة اكتسب لقب الطرابلسى فأصبح يعرف لديهم بأسم ليون الطرابلسى (١) . وبناء على ذلك يكون غلام زرافه هو ليون الطرابلسى قائد الأسطول الإسلامى الذى أغار على سالونيك فى عام ٩٠٤م والذى ذكره المسعودى تحت اسم لاون .

أما فيما يتعلق بمدينة انطاكية التى يذكر المؤرخون المسلمون أن الهجوم وقع عليها ، فأنه ليس هناك مجال للقول بأنها هى نفسها مدينة أنطاكية الشامية فقد ذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين الذين تعرضوا لهذه الغارة أن مدينة انطاكية هذه «تعادل القسطنطينية» ، وانطاكية الشامية لا ينطبق عليها هذا الوصف . فرغم تمتعها بميزات عديدة ، مثل تمتعها بمركز دينى هام نظر لكونها مدينة القديسين والبطاركة العظام والمجامع الدينية العديدة ، ورغم تمتعها أيضا بمركز تجارى ممتاز نظرا لوقوعها عند ملتقى بعض الطرق الرئيسية كالطريق منها إلى حلب فى شمال الشام ، ومنها إلى ميناء اللاذقية الذى يطل على البحر المتوسط ، وطريق آخر يربطها بقيليقيه ، ورغم الميزات التى حبتها بها الطبيعة ، من خصوبة التربة ، إلى توفر المياه النابعة من الجبل الذى

(١) كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص‌ص ٢٦١ — ٢٦٢ . باليونانية . راجع كذلك Theophanes Continuatus, p. 366.

يقع إلى شمالها والذى امتد على طول الشمال فأكسبها حصانة طبيعية من هذه الجهة (١) . رغم كل هذه المميزات ، الا أنها لم تكن فى وقت ما من تاريخها تعادل القسطنطينية فى الأهمية والمكانة ،وقد أجمع كثير من المؤرخين المحدثين على أنه لم تكن هناك مدينة فى الإمبراطورية البيزنطية تعادل القسطنطينية فى ذلك الوقت سوى مدينة سالونيك (٢) .

يضاف لذلك أن مدينة انطاكية الشامية كانت بيد المسلمين آنذاك ، وكانت تدين بالتبعية مع غيرها من بلاد الشام للخلافة العباسية فى عهد الخليفة المكتفى بالله (٢٨٨ — ٢٩٥ هـ / ٩٠١ — ٩٠٨ م) (٣) ولم تخرج انطاكية من يد المسلمين إلا فى ٢٨ أكتوبر ٩٦٩م (١٤ ذى الحجة ٣٥٨ هـ) حين فتحها القائدين البيزنطيين بطرس فوقاس وميخائيل بورتزيس فى عهد الامبراطور البيزنطى نقفور فوقاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) (٤) .

لذلك كله يمكن القول أن المؤرخين المسلمين قد التبس عليهم الامر ، فذكروا أن هذه الغارة وقعت على مدينة انطاكية ، فى حين أن واقع تفسيرات النص الذى ذكروه تؤكد أن الغارة وقعت على مدينة سالونيك .

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ص‌ص ١٧٩ — ١٨٠ .
وقد وصفها القلقشندى بقوله : « وهى مدينة عظيمة غربى حلب بشمال يسير على مرحلتين وهى مدينة قديمة على ساحل بحر الروم ، ولها سور عظيم من صخر ليس له نظير فى الدنيا وكان عدد شرفات هذا السور اربع وعشرون الفا ، وعدد ابراجه مائة وستة وثلاثون برجا . انظر القلقشندى : صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٢٩ . راجع كذلك :

Cahen, La Syrie du Nord à l'epouque de Croissades, pp. 127—130.

(2) Schlumberger, Recit de Byzance et des Croissades, p. 16; Ostrogorsky, op. cit, p. 228: Bloy Byzance, p. 21.

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج١٢ ، ص ١٢ .

(٤) كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ص ٣٦٦ — ٣٦٧ . باليونانية .

ولما كان النقل هو العا .ة المتبعة عند المؤرخين المسلمين فى تلك الحقبة من الزمن فلا يستبعد أن يكون قد تناقلها الخلف عن السلف دون روية أو تمحيص .

على أية حال ، ففى يوليو عام ٩٠٤ م (شعبان ٢٩١ هـ) عقد المسلمون العزم على انزال ضربة قاصمة بالامبراطورية البيزنطية انتقاما للهزائم التى انزلتها بحريتها بأسطول كريت (١) . فاجتمعت بعض القطع الحربية من اسطول مصر (٢) ، واساطيل الموانىء البحرية فى الشام وهى صور وصيدا وطرابلس وطرسوس ، واسندت القيادة العامة لهذا الاسطول إلى ليون الطرابلسى قائد أساطيل الشام وقتذاك ، وخرج هذا الاسطول من ميناء طرسوس إلى كريت حيث انضم اليه اسطولها ، وا صبح عدد القطع البحرية فى هذا الاسطول الاسلامى المشترك ، اربع وخمسون قطعة . ومن كريت اتخذ المسلمون طريقهم إلى البلاد البيزنطية ، وكان فى نيتهم التوجه إلى القسطنطينية ذاتها لمحاصرتها (٣) .

وعندما وصلت انباء هذه الحملة إلى الامبراطور البيزنطى الجالس على العرش آنذاك وهو ليو السادس المعروف بليو الحكيم (٤) أرسل الأسطول الأمبراطورى بقيادة الدرنجار ايستاثيوس Eustathius لملاقاتهم واعاقتهم عن الوصول إلى العاصمة البيزنطية ، لكن هذا القائد لم يجرؤ على

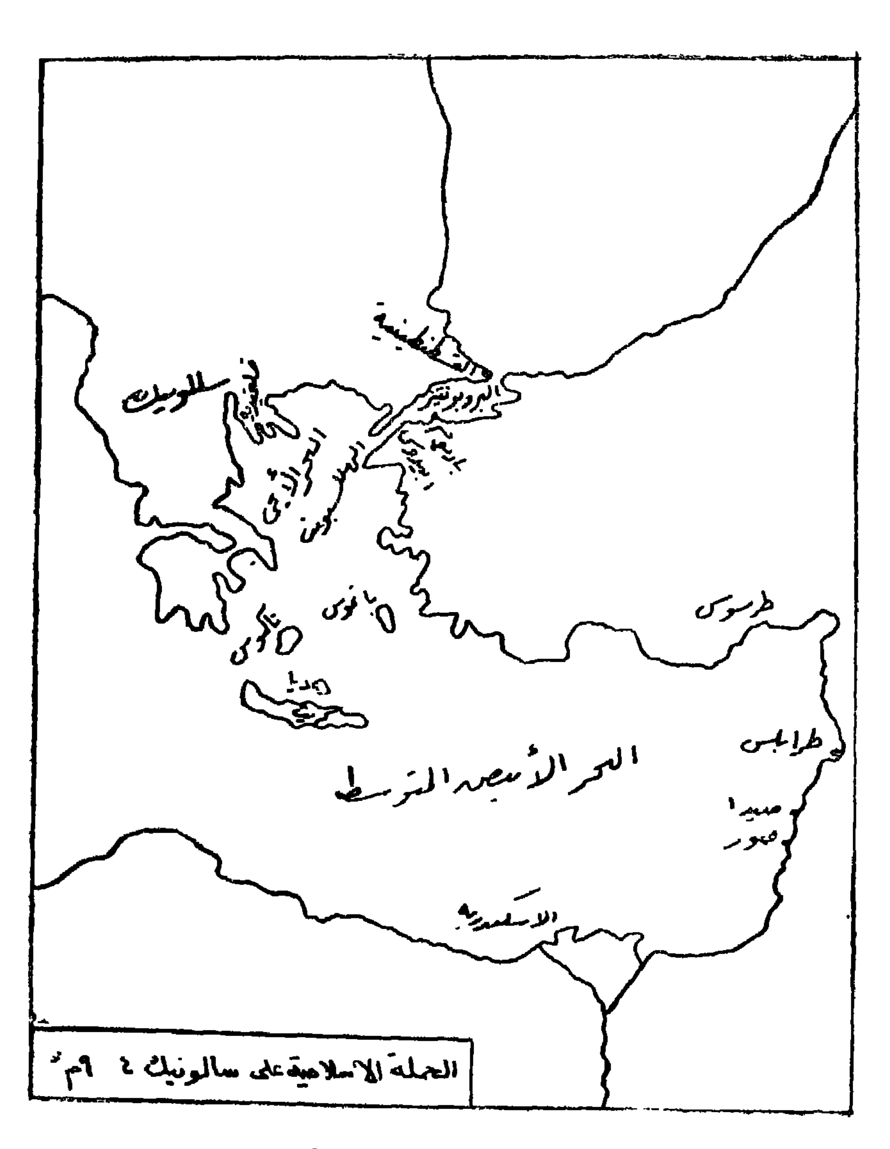
(١) انظر نفس هذا الفصل من البحث ، ص ص ١٧٩ -١٨٤ .

(٢) كانت مصر وقتذاك تدين بالتبعية للاسرة الطولونية ، وكان يحكمها الأمير هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٨٨ - ٢٩٢ هـ / ديسمبر ٩٠٠ - نوفمبر ٩٠٥) انظر : الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، ﺟ١ ص ١٦٦ .

(3) Brehier, Vie et mort de Byzance p. 150; Finlay History of Greece vol 11, p. 267; Schlumberger, Recit de Byzance et des Croissades, p, 16.

(٤) كان ليو قد تولى العرش البيزنطى بعد وفاة والده باسيل الأول فى ٨٨٦ واستمر فى الحكم حتى ٩١٢ .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


القسطنطينية
سالونيك
البحر الإيجي
طرسوس
طرابلس
البحر الأبيض المتوسط
صيدا
صور
الإسكندرية
الحملة الإسلامية على سالونيك ٩٠٤م

خريطة رقم (٤)



التعرض لهم ، فتوارى بأسطوله فى مضيق الهللسبونتوأخذ يراقب تحركات الأسطول الإسلامى،بينما تقدم ليون الطرابلسى ونزل علىمدينة ابيدوس(١) فهاجمها ثم تركها وعبر الهللسبونتودخل فى مياه البروبونتيز وفرض الحصار على مدينة باريوم Parium (٢) . وهكذا أصبح الطريق مفتوحا أمامه لحصار القسطنطينية ولكن يبدو أن ليون أدرك صعوبة الأستيلاء عـــلى العاصمة البيزنطية التى تمتعت بموقع استراتيجى ممتاز(٣)،وكان لابد لمحاصرها أن يكون متفوقا فى البر والبحر معا،وهذا مالم يتهيأ لليون الطرابلسى،الذى لم يرغب فى اضاعة للوقت هباء فأنسحب من أمام باريوم وخرج من الهللسبونت واتجه إلى شبه جزيرة خلقيديه Chalcidice فدار حولها واتخذ طريقه إلى سالونيك.وعندئذ عاد ايستاثيوس وأخبر الأمبراطور ليو السادس بعزم المسلمين على مهاجمة سالونيك ،فأرسل الأمبراطور بالأسطول البيزنطى وأسند قيادته هذه المرة إلى السكرتير الأمبراطورى الأول هيميريوس Himerius وذلك لمنازلة المسلمين ومنعهم من التقدم نحو سالونيك ، غير أن هيمريوس لم يستطع اللحاق بأسطول المسلمين ، فعاد من حيث أتى (٤) .

ومادمنا نتحدث عن الهجوم الإسلامى الكبير على مدينة سالونيك البيزنطية يحسن أن نمهد لذلك بكلمة عن أهمية سالونيك ، الأمر الذى جعلها هدفا لهذا الهجوم دون غيرها من المدن والموانى البيزنطية . فقدكانت سالونيك فى ذلك الوقت أهم قاعدة للأسطول البيزنطى فى البحر الإيجى ، ومرفأ لأصلاح سفن

---

(١) فيما يتعلق بأهمية ابيدوس انظر الفصل الأول من البحث ص ٨٢ حاشية رقم (١) .

(2) Monachus, op. cit., p. 862.

(٣) بشأن موقع القسطنطينية وأهميته انظر الفصل الأول من هذا البحث ، ص ٨٠ حاشية رقم (٤)

(4) Monachus. op. cit., pp. 862--863.

الأسطول التى يصيبها التلف (١) ، وهذه المدينة هى عاصمة أقليم مقدونيا ، وتقع عند رأس حوض داخلى ينهى الخليج الطويل الممتد إلى الشمال بين القمم الثلجية الوعرة لجبال أوليمبس Olympus ، وأوسا Ossa إلى الغرب ، والسواحل الغنية لشبه جزيرتى خلقيديه وكاساندرا إلى الشرق (٢) . ثم أنها تقع عند ملتقى طرق عديدة ، أهمها طريق أجناتيا Via Ignatia الذى يخترق قلب المدينة من غربها إلى شرقها ، وهو الطريق الذى كان يربط بين روما عاصمة الإمبراطورية الرومانيه القديمة ، وبين القسطنطينية وبلاد الشرق وكان تأسيسها فى عام ٣١٥ ق . م . ومؤسسها هو الملك كاسندر Ca-sandre ملك مقدونيا ، واتخذت اسمها نسبة إلى سالونيكه Thessalonikē ابنـــة الملك فيليب المقدونى وشقيقه الأسكندر الأكبر (٤) . وكانت مدينة عظيمة منذ الأيام الأولى للأمبراطورية ، وقد ظلت مطرده الأخذ بأسباب الأتساع والنمو ، حتى أصبحت فى القرن التاسع الميلادى ثيما بيزنطيا منفردا (٥) . وتمتعت خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين بسلام طويل ، أفادها فى تنمية مواردها الأقتصادية حتى أصبحت وأحدة من أغنى المخازن التجارية فى العالم الوسيط ، فكان كهرمان البلطيق وفراء اوروبا الوسطى ومعادنها تجـد

---

(١) هارتان : الدولة والامبراطورية ، ص ١٠ .
العرينى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢١١ .

(2) Finlay, History of Greece vol 11, p. 266.

(3) Dictionnaire de Theologie Catholique, Tome 15, p. 574,; Finlay op. cit., p. 267.

(4) Porphyrogenetus:De Thematibus, p. 50.

انظر كذلك المرجعين التاليين :

Dictionnaire de Theologie Catholique Tome 15, p. 573; Tafrali, Thessalonique au Qruatorzième Siecle p. 1.

(5) Porphyrogénetus : De Thematibus p. 51.

طريقها إلى سالونيك فتنشرهاالسفن البيزنطية فى كل مكان، وعند ختام القرن التاسع الميلادى أصبحت كتلة التجارية البلغارية كلها تسير عن طريقها . وفى السوق السنوى العظيم ، وهو سوق القديس ديمتريوس كانت المدينة تغص بالزحام لمدة أسبوع بمن يتوافد عليها من التجار من كل ارجاء العالم(١) وإلى جانب ذلك فقد ازدهرت بها الحركة الثقافية والفنية بدرجة تقترب من مثيلتها فى القسطنطينية كما تبوأت مكانه دينية مرموقة نظرا لاحتوائها على جسد القديس ديمتريوس صانع المعجزات . ولهذا كله فقد اصبحت سالونيك المدينة الثانية فى الإمبراطورية بعد عاصمة قسطنطين . وأن كان قد قيل بأنها تعادلها فى المركز والمكانة (٣) .

والمعروف أن الأزدهار الإقتصادى يساعد على توجيه العناية إلى وسائل الدفاع مثل الجيش والأسطول . ولكن الذى حدث فى سالونيك كان على العكس من ذلك ، فقد أدى ثراء المدينة ، وازهار الحركة الفنية والفكرية بها فضلا عن السلام الطويل الذى عاشته فى القرنين السابقين إلى تعود الأهالى على حياة الترف والدعه وفقدانهم لصفات المحاربين ، ومن ثمة فقد أهملوا وسائل الدفاع عن مدينتهم ، التى كانت فى حاجة إلى الترميم والأصلاح ، كما كانت اجزاء منها منخفضة إلى درجة كبيرة . بحيث كان من السهل الوثوب إلى أعلاها إذا ماأعتلى الفرد ظهر سفينة راسيه بالميناء . أما الأبراج فوق الأسوار فكان معظمها فى حالة تسوس كما كان من العسير الأتصال بين بعضها والبعض الآخر ، وكانت الحامية

(١) رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٩٩ ، ص ٢٤٦ .
(2) Diehl, in the pieface of Tafrali's book Thessalonique p. 6.; Brehier, Vie et Mort de Byzance, p. 150; Ostrogorsky. Byzantine State, p. 228.
(٣) انظر نفس هذا الفصل ، ص ص١٨٥–١٨٦

مهمله ، ولم تكن هناك فى الغالب قوات نظامية للدفاع عن الأسوار . وحين علم الأمبراطور ليو بماعليه المدينه من أهمال فى وسائل دفاعها ، قام باجراءات سريعة لتحصينها ، غير أنه زاد باجراءاته تلك الفوضى والارتباك المتفشى فيها ، فقد أخذ فى إرسال قوات متتالية من القسطنطينية إلى سالونيك ، وكل دفعه من هذه القوات برئاسة قائد معين ، وزود كل قائد بتعليمات جديدة ، وقد أخذ كل قائد منهم فى تغيير خطة الدفاع التى اتخذها سلفة . وكان أول قائد ارسلة الأمبراطور إلى سالونيك ، يدعى بتروناس Petronas وقد رأى أن الوقت لايتسع لترميم الأسوار ، فأمر بالقاء كتلات ضخمه من الأحجار والرخام على مسافة من رصيف الميناء لتعوق تقدم سفن المسلمين ، وتبيح للقوات المدافعة عن المدينة أن تصليهم بالنار الإغريقية . غير أن ضابطا آخر يدعى ليون ، أرسله الأمبراطور إلى سالونيك بعد أن عينه حاكما لها ، رأى عدم جدوى مشروع بتروناس ، فأمر بتعطيل العمل فيه ، كما أمر بترميم الأسوار وتقويتها فشرعوا فى تنفيذ اقتراحه وقبل أن ينتهى العمل فى مشروع ليون ، أرسل الأمبراطور قائدا جديد يدعى نقيتاس Matmos الذى شكل قدومه فى حد ذاته ، اضطرابا وفوضى زائدين . وقد تطورت الأحداث بشكل أدى إلى جعل نقيتاس هو المسئول عن الدفاع فى المدينة ، فأثناء مروره مع ليون لتفقد الأسوار ، كبى فرس الأخير والقى براكبه بعيدا ، فأصيب اصابة بالغة ، وهكذا انسحب من الميدان ليخلو الأمر لنقيتاس وحده ، الذى اهمل مشروع سلفه وأخذ فى تكوين جيش من أهالى سالونيك . والواقع أن الروح المعنوية للسكان كانت متدهوره للغاية فانهم لم يتحمسوا كثيرا للدفاع عن مدينتهم ، وانما وضعوا كل ثقتهم فى القديس ديمتريوس الذى اعتقدوا اعتقادا راسخا بأنه سيتولى الدفاع عنهم وحمايتهم ضد أى هجوم يتعرضون له . وحين أدرك نقيتاس ذلك ، أرسل إلى قائد

ثيم ستريمون Strymon (١) ، يطلب منه امداده بجيش من الصقالبه المدربين على الحرب والمتحالفين مع حكومته . غير أن أهمال قائد ستريمون لهـذا الطلب ، وسوء نية الزعماء الصقالبة من جهة أخرى ، حالا دون وصول أية مساعدة عسكرية إلى سالونيك ، فأضطر نقيتاس إلى جمع اعداد ضئيلة مـن المحاربين الصقالبة من القرى المجاورة لسالونيك (٢) . وهكذا عندما أخـذ المسلمون فى الأقتراب من المدينة ، لم يكن هناك أى تقدم فى وسائل دفاعها وفى يوم الأحد ٢٩ يوليو ٩٠٤ م (ذى القاعدة ٢٩١ هـ) وصل المسلمون إلى خليج سالونيك ، فساد الذعر بين الأهالى ، وعلت أصواتهم بالنحيب والبكاء ، وهرع أغلبهم إلى الكنائس يلتمسون النصر والحماية من القديس ديمتريوس (٣) .

وعلى الفور قام ليون الطرابلسى باستطلاع التحصينات ، واختبار مشروع بتروناس الذى لم يستكمل ، وقد مكن عدم استكمال هذا المشروع المسلمين من الأقتراب من الأسوار ، خصوصا وأن عمق المياه فى بعض الإماكن فى الميناء كان مما يسر لهم ذلك . وبعد العمليات الأستطلاعية ، قام المسلمون بهجمات متقطعة كانت أشبه ماتكون بالمناوشات بقصد جس النبض وكشف مدى قوة الدفاع عن المدينة وخطط المدافعين بداخلها . وفى اليوم التالى ٣٠ يوليو ٩٠٤ (ذى القعدة ٢٩١ هـ) قام المسلمون بهجوم عنيف على الأسوار وتحت غطاء من قذائف المنجنيقات والسهام تمكنت اعداد منهم من النزول على الشاطىء وهاجموا بوابة روما — وهى احدى البوابات الموجودة بالسور

---

(١) يقع ثيم ستريمون على ساحل مقدونيا إلى الشمال من شبه جزيرة خلقيدية . انظر ، أطلس دائرة المعارف البريطانية ، ص ٦ .

(٢) كامينياتى ، قهر سالونيك ، صص ٤٨٧ — ٤٩١ ، صص ٥١ — ٥٢٤ . باليونانية .

(٣) كامينياتى ، قهر سالونيك ، صص ٤٩٢ — ٤٩٥ . باليونانية .

الشرق للمدينة ، كما قاموا بمحاولة لتثبيت سلالم للتسلق إلى أعلى السور ، ولكن المدافعين احبطوا هذه المحاولة وفى مساء نفس اليوم قام المسلمون بمحاولة جديدة ، فملأوا بعض قوارب الصيد الصغيرة بالحطب والقار والكبريت ، ونقلوها إلى السور الشرقى واشعلوب فيها النيران وانسحبوا ، وقد التهمت النيران بوابتى روما وكاسندرا ، ولكن حين سقطت البوابتان ظهر أن خلفهما بوابتان من الحجارة الشديدة الأحكام (١) . وأثناء الليل ساد الهدوء ميدان القتال ، وقضى المسلمون ليلتهم فى الاستعداد للهجوم الكبير الذى عزموا على القيام به . وفى اليوم التالى أى فى صباح ٣١ يوليه ٩٠٤ م بدأ القتال ، فامطر المسلمون المدافعين عن المدينة بوابل من السهام والحراب ، وقذائف النيران وزجاجات المواد الحارقة ، فأصبح الموقف لا يحتمله المدافعون عن الأسوار ، فأخذوا فى الأنسحاب والتقهقر ، وعندئذ أندفع البحارة الأثيوبيون الذين ينتمون إلى الأسطول المصرى وشرعوا فى اعتلاء الأسوار ونزلوا إلى المدينة وفتحوا بواباتها واقتحم المسلمون سالونيك حيث قامت معركة كبيرة بينهم وبين القوات المدافعة عنها كان مسرحها الأزقة الضيقة للميناء ، وأحرز المسلمون أنتصارا باهرا خلال هذه المعركة ، وبذلك قضوا على إخر محاولة للمقاومة داخل سالونيك (٢) .

ويفيض المؤرخ كامينياتى فى وصف الذعر والأضطراب الذى ساد انحاء المدينة حين علم الأهالى بدخول المسلمون (٣) الذين استباحوها ، وخلصوا أسراهم بها وكان عددهم كما يذكر الطبرى ، أربعة الاف أسير (٤) ، وان

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٥٢٩ .

(2) Ibid, pp. 552—560.

(3) Ibid, pp. 565—584.

(٤) الطبرى : تاريخ الام والملوك ، جـ ١١ ، ص ٥ .

كان ابن الاثير قد ذكر انهم خمسة الاف اسير (١) وحصلوا على غنائم هائلة وثروات عظيمة ، وفى ذلك يقوم أحد المورخين المسلمين وهو الحافظ شمس الدين « وأتوا بالغنائم لم يعهد مثلها حتى بلغ سهم الجندى الف دينار» وقد اتفق معه فى ذلك كثير من المؤرخين امثال الطبرى وابن تغرى بردى ووجد ليون الطرابلسى ستون مركبا تجاريا بيزنطيا راسية بميناء سالونيك ، وكانت هذه المراكب مشحونة بالذهب والفضة والمتاع والآنيه فأستولى على المراكب وعلى كل مافيها ويقول ابن خلدون فى هذا الصدد « وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق»(٤) . وبلغ عدد الأسرى والسبايا الذين اخذهم المسلمون من سالونيك ٢٢ ألف نسمه ، وهم يشكلون عشر سكان المدينة كما يذكر كامينياتى (٥) الذى كان ضمن هؤلاء الأسرى وقد يكون فى هذا التقدير نوع من المبالغة ، إلا انه يدل على كثرة عدد الأسرى أما المؤرخون المسلمون فقد قدروا عدد الأسرى بخمسة آلاف (٦) ، وربما كان ذلك أقرب إلى الحقيقة .

على أن المسلمين لم يستقروا طويلا بسالونيك ، اذ مكثوا بها لمدة عشر أيام فقط ، والظاهر انهم لم يهدفوا من وراء غزوتهم هذه إلى فتح سالونيك واستقطاعها من الدولة البيزنطية وادخالها فى دائرة النفوذ الإسلامى ، ولكن

---

(١) ابن الا ثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ١٧٤ .
(٢) الحافظ شمس الدين ، دول الاسلام ، جـ١ ، ص ١٣٨ .
(٣) ابن تغرى بردى : فىالنجوم الزاهرة ، خـ٣ ، جـ٣ ، ص ١٣٢ ، الطبرى : تاريخ الا م والملوك ، جـ١١ ، ص ٥ .
(٤) ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٣٥٧ ، انظر كذلك : الطبرى : نفس المصدر ، جـ١١ ، ص٥ ، ابن الا ثير : الكامل جـ٧ ، ص ١٧٤ .
(٥) كامينياتى ، قهر سالونيك ، ص ٥٨٩ ، باليونانية
(٦) الطبرى : تاريخ الام والملوك ، جـ١١ ، ص ٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ص ٣ ، ص ٣ جـ٣٥٧ ، ابن الا ثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ١٧٤ .

كان الغرض من الهجوم على هذه المدينة هو القيام بغارة انتقامية سريعة ضد أحد القواعد الرئيسية للبحرية البيزنطية ردا على الهزائم التى الحقها الأسطول البيزنطى بمسلمى كريت فى السنوات الأولى من عهد الأسرة المقدونية وكذلك الحصول على الغنائم من هذه المدينة الشهيرة بثرائها . فضلا عن رغبة المسلمين فى العودة السريعة إلى قواعدهم قبل أن يفيق أولو الادمر فى بيزنطه من أثـر هذه المفاجأة القاسية ، ويشرعوا فى القيام بعمل عسكرى يكون من نتيجته حصار المسلمين فى سالونيك والقضاء عليهم .

ومما يدعو إلى الدهشة أن الإمبراطور البيزنطى ليو السادس لم يقم بأية محاولة لأسترداد سالونيك من يد المسلمين طوال العشرة أيام التى قضوها بها وبعد أن حصل المسلمون على الغنائم والأسرى ، حان موعد رحيلهم ، وعندئذ أرسل الإمبراطور ليو بعض قطع الأسطول الإمبراطورى لمطاردتهم ، ولما كان القتال متعذرا بالنسبة للمسلمين نظر لأزدحام سفنهم بالأسرى والغنائم ، فقد رأوا أنه من الأفضل مراوغة الأسطول البيزنطى ، فتوقفوا ستة أيام عند جزيرة باتموس Patmos — احدى جزر البحر الإيجى — ويومين عند جزيرة ناكسوس Naxos — احدى جزر السيكلاديز — وكانتا تدينان بالتبعة لجزيرة كريت فى ذلك الوقت (١) ، ثم رسا المسلمون بالقرب مـن جزيرة ديا Dia — إلى الشمال من مدينة الخندق — واحتموا بها لمدة ثلاثة أيام ، وبعد ذلك واصلوا سيرهم حتى بلغوا جزيرة كريت (٢) .

(١) لم تأت المصادر بشىء عن تفاصيل استيلاء مسلمى كريت على هاتين الجزيرتين ، أو عن التاريخ الذى خضعتا فيه لكريت ، والظاهر أن ذلك تم اثناء الغارات العديدة التى كانوا يقومون خلا لها بالهجوم على جزر البحر الإيجى وجزر السيكلاديز .

(٢) كامينياتى ، قهر سالونيك ، ص ص ٥٨٣ — ٥٨٤ باليونانية .

ويصف المؤرخ البيزنطى كامينياتى استقبال الأهالى بمدينة الخندق للمنتصرين المسلمين فيقول انهم خرجوا جميعاً لاستقبالهم فرحين مهللين معلنين عن فرحتهم بدق الطبول والنفخ فى الأبواق ، وأخذت النساء تطلقن الزغاريد ، كما أخذ الاطفال يرددون الأهازيج . وبعد أن احتفل الجميع بانتصارهم وعودتهم سالمين ، أخذ ليون الطرابلسى ورجال الأسطول يوزعون الغنائم والأسرى على الأطراف التى اشتركت فى هذه الغزوة حتى يستطيع كل أسطول أن يعود إلى قاعدته قبل انتهاء فصل الصيف ومن كريت خرج الأسطول المصرى إلى الأسكندرية مباشرة ، كما خرج الأسطول الشامى إلى قواعده فى صيدا وصور وطرابلس وطرسوس (١) .

وهكذا استطاع المسلمون عن طريق تعاونهم فى عمل عسكرى مشترك أن ينزلوا بالدولة البيزنطية هذه الضربة العنيفة التى اعتبرها عدد كبير من المؤرخين الغربيين وبصفة خاصة المؤرخين الفرنسيين شلومبرجيه Schlumberger ، وبرييه Brehier وبلوى Bloy ، من أكبر المآسى التى تعرضت لها الدولة البيزنطية خلال تاريخها الطويل (٢) .ولاشك أن هذه الرأى على جانب كبير من الصواب ، خاصة لما ترتب على تلك الغارة من نتائج تتعلق ببيزنطة ، وهى لم تقتصر فقط على علاقتها بكريت ، وإنما تعدتها إلى علاقاتها مع جيرانها الآخرين ، إذ أدت إلى الحط من هيبتها فى نظر اعدائها ، وأخذ كل منهم يحاول أن ينال منها قدرا ستطاعته ، وأن يحصل على مايبغيه من مكاسب على حسابها ، مثال ذلك سيميون ملك بلغاريا الذى كان فى صراع دائم مع الدولة البيزنطية ، فقد رأى بعد أن انسحب المسلمون من سالونيك أن

(1) Ibid, pp. 585—599.

(2) Schlumbergeı, Un Empereuı Byzantin, p, 35; Brehier, Vie et mort de Byzance, p. 150; Bloy, Byzance, p. 20.

يستقطعها ويضمها إلى ممتلكاته ، وشرع فى تنفيذ هذا المشروع ، ولما وجد الأمبراطور ليو السادس أنه لن يستطيع الوقوف فى وجهه والحيلولة بينه وبين تنفيذ غرضه ، تنازل له عن أجزاء من الممتلكات البيزنطية ، مقابل تخليه عن أطماعه فى سالونيك ، وتم بينهما اتفاق فى عام ٩٠٤ م (٢٩١ هـ) استحوذ سيميون بمقتضاه على كل الأراضى الصقلبية الواقعة إلى الجنوب من مقدونيا والبانيا الحالية ، وبذلك نجح سيميون فى توحيد كل القبائل الصقلبية بالبلقان تحت لوائه (١) .

وقد أستغل الروس أيضا هذه الكارثة التى حلت ببيزنطه على يد المسلمين وقدم ملكهم اوليج Oleg فى عام ٩٠٧ م (٢٩٤ — ١٩٥ هـ) بأسطول كبير وفرض الحصار على القسطنطينية ذاتها ، وأخذ فى تخريب المناطق المحيطه بها واضطر الإمبراطور البيزنطى ليو السادس إلى مقابلته وتم عقد معاهدهبينهما حصل اوليج بمقتضاها على إمتيازات تجارية هامه ، وقد جددت هذه المعاهدة فى عام ٩١١ م (٢٩٨ — ٢٩٩ هـ) .

كذلك فقد انعكست آثار هذه الغارة على العلاقات بين بيزنطه و كريت لفترة طويلة من الزمن ، ففى أكتوبر عام ٩٠٨ م (المحرم ٢٩٦ هـ) ، أرسلت الدولة البيزنطية اسطولا بقيادة هيميريوس ، اشتبك مع أسطول كريت فى معركة فى البحر الإيجى — ولم تأت المصادر بشىء عن تفاصيلها — ويقال أن البيزنطين انتصروا على الأسطول الكريتى خلالها (٣) .

---

(1) Brchicr. op. cit., p. 150; Ostrogorsky, History of the Byzantin State, p. 228.

(2) Brehier, op cit., pp. 150—151.

انظر كذلك العرينى : الا مبراطورية البيزنطية ، ص ٣٣٤ .

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 229; Vasiliev, op. cit., p. 404.

وقد رأت الدولة البيزنطية بعد الخسائر التى لحقت بها من جراء التعاون بين أسطولى كريت والشام ، أن تحول دون اتصالها فى المستقبل ، ولتحقيق ذلك ، قررت الأستيلاء على جزيرة قبرص واخراجها من يد المسلمين ، وكان موقع الجزيرة مما يتيح لبيزنطه تحقيق غرضها ، اذ أنها تقع فى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط ، ويقترب طرفها الشرقى من خليج الأسكندرية ، مما جعلها سهما مصوبا إلى السواحل الشامية (١) . وقد أرسلت بيزنطه فى عام ٩١٠ م (٢٩٧ هـ) أسطولا بقيادة هيميريوس لغزو قبرص واعادتها لسلطانها من جديد (٢) ، وهاجم هيميريوس الساحل الشرقى للجزيرة ، لكنه لم ينجح إلا فى تأسيس بعض القواعد البيزنطية على هذا الساحل ومنها أتجه فى نفس العام إلى مدينة اللاذقية على الساحل الشامى ، فهاجمها واحتل بعض الحصون بها وأستولى على أعداد كبيرة من الاسرى المسلمين (٣) .

وكان رد الأسطول الشامى على هذه الغارة حاسما ، اذ قام هذا الأسطول بقيادة داميان Damianus (٤) ، بالإغارة على القواعد البيزنطية التى أسسها هيميريوس على الساحل الشرقى لقبرص ، وخربها واعادها لسلطان المسلمين

---

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ص ٣ - ٤ .

(٢) يرجع الفضل فى سرد اخبار هذه الحملة وماترتب عليها من تتائج إلى البطريك نيقولا مستيكوس Nicola Mysticus ، الذى اشار اليها فى ثنايا خطابه إلى امير كريت فى عام ٩١٥م انظر ص ٢١٠-٢١١ .

(3) Nicolai Constantinophlitani Archiepiscopi Epistolae, in patrologiae cuisus completus, Tomus unicus, p. 34.

(٤) داميان هو احد اليونانيين المرتدين عن الدين المسيحى ، اعتنق الاسلام وعرف بنشاطه الكبير فى الجهاد ضد البيزنطيين ، وكان يتولى امارة الثغور إلى جانب رئاسة الأسطول الإسلامى فى الشام . انظر ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ١٤٤ .

كما انزل العقاب بالقرى المسيحية التى أمدت هيميريوس بالمساعدة وخضعت له ، ثم عاد إلى قاعدته فى طرسوس محملا بالغنائم والأسرى (١)

وهكذا فشلت بيزنطه فى تحقيق غرضها ، والعمل على قطع الأتصال بين أسطولى كريت والشام ، فقد كانت البحرية الإسلامية فى شرقى البحر المتوسط على درجة كبيرة من القوة ، ولم يكن من اليسير القضاء عليها ، بعد أن أرتفع شأنها منذ أوائل القرن العاشر الميلادى ، وأصبحت أكثر رسوخا واستقرارا. فى الوقت الذى أصاب التدهور والأضمحلال البحرية البيزنطيه فى عهد الأمبراطور ليو السادس ، بعد الأنتعاش الذى شملها فى عصر سلفه باسيل الأول (٣) . ذلك أن الأمبراطور ليو لم يوجه اهتماما كبيرا لشئون السياسة والحرب فى دولته ، بل انصرف للأشتغال بأمور اللاهوت والفلسفة والقانون وغيرها من العلوم حتى أطلق عليه المعاصرون أسم ليو الحكيم أو الفيلسوف Leo Philosophi ، هذا إلى جانب انشغاله بالمشاكل الداخلية التى قامت بسبب زيجاته المتعدده ، وهو الأمر الذى يخالف تعاليم الكنيسة الشرقية ، مما ترتب عليه نشر بذور الخلاف بين هذا الإمبراطور والكنيسة والبلاط والشعب كله (٤) . ويقول المؤرخ الروسى أوستروجورسكى أنه من الأمور التى تؤخذ على الإمبراطور ليو السادس أنه لم يوجه اهتماما كبيرا للسياسة الخارجية لدولته ، مما ترتب عليه الأضرار بالإمبراطورية البيزنطية فى عهده ضررا بالغا (٥) .

---

(1) Nicolai Constantinopolitani Archiepiscopi Epistolae pp. 31—35.

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، صص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٣) لويس : نفس المرجع ، ص ٢٢٦ .

(4) Ostrogorsky, op. cit., p. 231, C.M.H. vol IV, p. 57.

(5) Ostrogorsky, op. cit., p. 215, 226.

ورغم اهمال الإمبراطور ليو السادس للشئون العسكرية فى دولته ، وتشاغله عنها بأمور أخرى ، إلا أن الضربة العنيفة التى تلقتها الدولة البيزنطية فى سالونيك ، والفشل الذريع الذى أسفرت عنه محاولاتها لمنع الأتصال بين الأساطيل الإسلامية فى شرق البحر المتوسط وأسطول كريت ، اضطره إلى توجيه المزيد من العناية والأهتمام للقوة العسكرية التى هى السبيل الوحيد لإحراز النصر على الأعداء . فأخذ فى الإعداد لحمله ضخمة بقصد استرداد كريت وادخالها فى دائرة النفوذ البيزنطى من جديد ، ولم يبخل فى الأنفاق عليها ، ويمكن ملاحظة ذلك بأستعراض التفاصيل الخاصة بها ، تلك التفاصيل التى أنفرد بعرضها الإمبراطور قسطنطين السابع دون المؤرخين جميعا من معاصرين ومتأخرين ، بيزنطيين كانوا أو مسلمين ، وذلك فى كتابه «المراسم الإمبراطورية»(١) . وجدير بالذكر أن كثير من المؤرخين المحدثين ، وعلى رأسهم كبار المشتغلين بتاريخ العصور الوسطى أمثال فازيلييف ،، وبريه واوسترجورسكى ، وفنلاى ، وديل ، ومارسيه وغيرهم ، لم يعرضوا لتفاصيل هذه الحملة الكبيرة ، وانما أشاروا اليها بصفة عامه فى عبارات شديدة الإيجاز (٢) ، لذا كان اعتمادنا أساسا على مؤلف قسطنطين السابع فى استجلاء الغموض الذى يحيط بالحملة المذكورة وأهميتها فى تاريخ العلاقات بين كريت الإسلامية والدولة البيزانطية .

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحملة فى كتاب « المراسم الامبراطورية » وهو باليونانية ، ص ص ٦٥١ — ٦٦٠ .

(2) Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, p. 404; Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 229; Brehier, Vie et mort de Byzance, p. 152, Finlay, History of Greece, vol 11, p. 278; Diehl Histoire de l'empire Byzantin, p..98; Diehl et Marcais, le monde orientale, p. 451.

ولقد أسندت قيادة الأسطول فى هذه الحملة إلى البطريق واللغيثيث هيمريوس . وبلغ عدد البحارة فى الأسطول الإمبراطورى وأساطيل الولايات البحرية البيزنطية التى اشتركت فى الحملة ٣٣٧ و ٣٣ بحارا ، كما ضمت اعدادا كبيرة من السفن الحربيةالبيزنطية بلغ عددها أكثر من٢٤٥قطعةمابين كبيرة وصغيرة . وكانت هذه الأعداد من السفن والبحارة موزعه على النحو التالى :

أولا : الأسطول الإمبراطورى : تكون هذا الأسطول من ٦٠ درومونه وبلغ بعضها من الضخامة أنه كان للسفينة الواحده من ٢٠٠ — ٢٣٠ مجداف وبلغت حمولة الواحدة منها ٧٠ مقاتلا . إلى جانب ٤٠ بامفيليه تحمل كل منها من ١٣٠ إلى ١٦٠ مقاتلا ، و٧٠ زورقا حربيا « روسوس » . وبلغ عدد البحارة فى هذا الأسطول ١٢ ألف بحار بيزنطى ، ٧٠٠ بحارا من الروس ، ٥٠٣٧ بحارا من المرده (١) .

ثانيا : أساطيل الولايات البحرية البيزنطية : وقد اشترك ثيم كبير هايوت فى هذه الحملة بأسطول كبير مكون من ١٥ درومونه ، ١٦ بامفيليه ، وكان يضم ٦٦٠٠ بحارا . وتألف أسطول ثيم ساموس من عدد غير محدد من الدرومونات ، بالاضافة إلى ٢٠ بامفيليه ، ٥٠٠٠ بحارا . أما اسطول ثيم البحر الإيجى فقد أشتمل على ٧ درومونات ، ٧ بامفيليات ، ٤٠٠٠ بحارا كما تكون ثيم الهيلاس من ١٠ درومونات ، ولم يذكر الإمبراطور قسطنطين السابع عدد البحارة العاملين فى هذا الأسطول .

وقد اسندت قيادة الجيش فى هذا الحملة إلى القائد البيزنطى رومانوس

---

(١) بشأن التعريف بالمرده ، انظر نفس هذا الفصل من البحث ، ص ١٦٨ حاشيةرقم(٦)

ليكابينوس (١) وتكون هذا الجيش من الفرسان والمشاه ، أما الفرسان فقد بلغ عددهم ٠٣٧ و ٦ فارسا جمعوا من ثيمات مقدونيا والتراقيسيون وارمينيا . وبلغ عدد المشاه ١٢٩ و ٣١ رجلا ، من بينهم ٥٠٢ و ١٢ من القادة والجنود من الجيش الإمبراطورى ، ٧٦٠ ر ٦ رجل من الكشافة والمقاتلين من ثيم ساموس ، كما أرسل البحر الإيجى ١٠٠ و ٣ من الكشافة والمقاتلين ، إلى جانب ٠٨٧ و ٤ كشافا ومقاتلا من المرده .

هذا ، وقد انفقت مبالغ طائله على أعداد هذه الحملة ، وساق الأمبراطور قسطنطين السابع أمثله من العطاءات الإضافية Rogas التى صرفت للقادة والجنود الذين اشتركوا فى الحملة والتى تحملتها كلها الخزينة الإمبراطورية ، وقد منح البحار الذى ينتمى إلى الأسطول الإمبراطورى ٦٦ نوميسما (٢) ، ١٣ لبره (٣) ، وتقاضى البحار الروسى فى الأسطول الإمبراطورى ٤٣ نوميسما ، ٥٩ لبرة ، على حين تناول كل بحار من العاملين فى أساطيل الولايات ٢٤ نوميسيما ، ٨٣ لبره .

(١) هو الذى أصبح امبراطورا مغتصبا للعرش فى الفترة من ٩١٩ — ٩٤٤ م. وهى فترة تصور الامبراطور الشرعى قسطنطين السابع ، انظر التفاصيل ص ص من هذا الفصل .

(٢) النوميسما ، هى عملة ذهبيه بيزنطية ، وكانت تساوى واحدا على اثنين وسبعين (٧٢/١ من الرطل من الذهب ، وكانت النوميسما تنقسم إلى ١٢ ميلياريسيا ، التى تنقسم بدورها إلى اثنى عشر فلسا . انظر ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢١٠ .

(٣) الليره ، هى عملة ذهبية استعملت فى الدولة البيزنطية ، وكانت تسك على اساس اثنين وسبعين قطعة من الذهب ، وهى تساوى ٣٢٧ جراما من الذهب ، ويستطرد المؤرخ موريس لومبار فى تعريفه بالليره قائلا « أى أنها هى الصلدى المعروف فى الاصطلاح القسطنطيني بالصلدى الذهبى ، أو الديناريون الذهبى ، ومنه اشتق المسلمون عملتهم الذهبية أو الدينار» انظر ، لومبار : الاسس النقدية للسيادة الاقتصادية . بحث ترجمة ونشره بالعربية توفيق اسكندر فى كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى القاهرة ، ١٩٦١ ، ص٥٦ .

أما بالنسبة لعطاءات الفرسان والجنود المشاه المشتركين فى الجيش الإمبراطورى وجيوش الولايات ، فكانت على النحو التالى :

الفرسان : لم يذكر الإمبراطور قسطنطين عطاءات الفرسان بالجيش الإمبراطورى أما الفارس الذى ينتمى إلى ثيم مقدونيا فكان عطاؤه ٤٢٣ نوميسما ، ٤١ ليره . وتقاضى الفارس من ثيم التراقيسيون ٢٤ نوميسما ، ٨٠ ليره ، أما الفارس الأرمينى فقد منح ٤٨ نوميسما ، ٤١ ليره .

المشاه : تقاضى كل قائد بالجيش الإمبراطورى عدد غير محدد من النوميسمات ، ٩٠ ليره ، ومنح الجندى فى هذا الجيش ٣٢ نوميسما ، ٦٩ ليره . وبلغ عطاء الجندى الواحد فى ثيم ساموس ١١ نوميسما وليره واحدة أما الجندى الذى ينتمى إلى ثيم البحر الإيجىفتقاضى ٣ نوميسمات ، ٥٤ ليره وبلغ عطاء الجندى من المرده ٣٢ نوميسما ، ٦٦ ليره .

هذا إلى جانب كميات هائلة من أدوات القتال ، من السيوف ، والحراب والسهام والدروع والخوذ الحديديه والشوك والكلاليب ، والمواد الملتهبه والمنجنيقات وغيرها من الآلات التى استخدمها الجيش والأسطول البيزنطى فى الحرب .

ومن العرض السابق يتضح مدى استعدادات هذه الحملة الكبيرة التى فاقت ماقبلها من حملات ارسلتها بيزنطه ضد كريت . ورغم أن الإمبراطور قسطنطين السابع افاض فى ذكر استعداداتهذه الحملة ، إلا أنه أشار بصورة سريعة إلى الاشتباكات التى حدثت بينها وبين الكريتيين . ولم تمدنا المصادر الأخرى بما يفيد فى هذا المجال . وقد ذكر الإمبراطور قسطنطين أن الحملة ابحرت إلى كريت فى صيف عام ١١٩ م ، لكنه لم يحدد التاريخ الدقيق

لإبحارها ، ووصل هيميريوس امام كريت دون أن يواجه صعوبات تذكر لكنه لم يستطع النزول إلى ارض الجزيرة ، نظراللمقاومة الشديدة التى قابلها من المسلمين ، ففرض الحصار عليها ، واستمر محاصرالها لمدة ثمانية شهور وقعت خلالها بعض الإشتباكات بين الطرفين كان التفوق فيها للمسلمين . واذ تملك هيميريوس اليأس ، رفع الحصار وانسحب من امام كريت . وفى طريق عودته إلى بيزنطه ، طارده أسطول الشام بقيادة ليون الطرابلسى ، والتقى الطرفان فى معركة كبيرة بالقرب من جزيرة ساموس فى ربيع عام ٩١٢ م (٢٩٩ هـ) ، الحق فيها المسلمون بالبيزنطيين هزيمة ساحقة ودمروا العدد الأكبر من أسطولهم ، واستطاع القائد رومانوس ليكابينوس أن ينقذ البقيةالباقيةمن جيشهبصعوبةبالغة.اماهيميريوسفقد نجح فى الفرار إلى جزيرة ميتلين ، واختفى بها لبعض الوقت ، وحين عاد إلى بيزنطه كان الإمبراطور ليو السادس قد توفى (١٢ مايو ٩١٢ م) وخلفه على العرش شقيقه الإمبراطور الإسكندر Alexandre (١) ، الذى أمر بادخال هيميريوس الدير ، ليقضى به بقية حياته عقابا له على هزيمته .

والواقع أن الواقفة الصامدة التى وقفتها كريت فى وجه القوات البيزنطية التى استمرت فى حصارها للجزيرة لمدة ثمانية شهور كامله ، توضح مدى القوة التى كانت تتمتع بها الجزيرة وقتذاك ، وإن كانت المصادر المعاصرة والمتأخرة لم توضح ذلك صراحة إلا أن الباحث بوسعه أن يدرك هذا الأمر أستنادا إلى سير الحوادث التاريخية ، وقد زاد من فعالية هذه القوة مساندة

---

(١) استمرت فترة حكم الامبراطور الاسكندر عاما واحدا فقط ، من ١٢ مايو ٩١٢ م حتى ٦ يونيه ٩١٣م ، وهوتاريخ وفاته . انظر ،
Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 377.

الأسطول الشامى لها . على أن أهم ماأسفرت عنه هزيمة القوات البيزنطية من نتائج ، هو التغيير الذى طرأ على سياسة بيزنطه تجاه كريت . فبعد صراع عنيف استمر بين الطرفين لمدة ثلاثة ارباع القرن ، ولم يسفر عن أية مكاسب جنتها بيزنطه من ورائه ، ادركت الحكومة البيزنطية ، عدم جدوى استخدام القوة ضد كريت ، فلجأت إلى الأساليب السياسية والسلمية ، لعلها تحقق عن طريقها مافشلت القوة العسكرية عن تحقيقه وتنجح فى كف اذى المسلمين بكريت عنها . وكان ذلك هو الطابع المميز للسياسة البيزنطية ، فقد كان يحدث احيانا — كما يذكر المؤرخ رانسيمان — اذا لم تكن بيزنطة راغبة فى خوض غمار الحرب لسبب ما ، أن تلجأ إلى أتباع الديبلوماسية الهادئة ، والسياسة واللين مع الخصم حتى تتحسن ظروفها ، وعندئذ تخوض الحرب (١). وهى نفس السياسة التى اتبعتها مع كريت .

فقد أرسل بطريرك القسطنطينية نيقولا ميستيكوس (٢) — بصفته وصيا على الإمبراطور القاصر قسطنطين السابع — رسالة إلى أمير كريت (٣) فى

(١) رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٩٣ .

(٢) يعتبر نيقولا ميستيكوس من اشهر بطاركة الكنيسة الشرقية فى القرن العاشر الميلادى لما امتاز به من قوة الشخصية والنبل والشرف ، وقد تولى بطريركية القسطنطينية فى مستهل القرن العاشر الميلادى اثناء حكم الامبراطور ليو السادس ، ثم قام الخلاف بينهما بسبب رفض الطريرك نيقولا الاعتراف بالزواج الثالث للامبراطور ليو ، فعزله الأخير عن البطريركية فى يناير ٩٠٧ م على انه عاد اليها بعد وفاة هذا الأمبراطور فى مايو ٩١٢ م ، وشارك فى الأحداث السياسية التى مرت بها البلاد آنذاك . انظر ،
Ostrogorsky, History of the Byzantine Empire, p. 231, C.M.H., vol IV, p. 57.

(٣) لم يشر البطريرك نيقولا فى رسالته إلى اسم امير كريت وقتذاك ، ولم تأت المصادر الأخرى من بيزنطيه أو عربية بما يفيد فى هذا الشأن ، ولكن المعروف أن الامير شعيب بن أبى حفص كان معاصرا اللامبراطور باسيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦م) وبناءا على ذلك يكون امير كريت الذى وجه اليه البطريرك نيقولا هذا الخطاب اما الأمير شعيب أو ابنه عبدالله الذى خلفه على حكم الجزيرة .

عام ٩١٥ م (٣٠٢ – ٣٠٣ هـ)تفيض رقة وعذوبة بدأها بقوله : «إلى أمير كريت الأعظم ، المتألق ، المختار ، نهر القوة المتدفق ، الصديق الأول ، المنتمى إلى أفضل الأصول وأقواها . ليس أى رجل بين الرجال فى قوتك ، ولا بأمكان أى انسان فى الوجود أن يتفوق على خلقك (١) ثم أوضح لأمير كريت أن الغرض من مراسلته هو طلب السلام ، وقد عبر البطريرك نيقولا عن ذلك فى عبارات تدل على مدى الأحترام والتقدير الذى يكنه البيزنطيون للمسلمين رغم مابينهمامن عدوات واختلافات دينية ، فقال « أن دولتى المسلمين والروم الشقيقتان مرموقتان ، وهما تمتازان وتتألقان فى قبة السماء الزرقاء ، ولهذا وحده ، لا مفر لنا من أن نعيش معا كأخوه ، رغم اختلافنا فى العادات واللغة والدين (٢) »

ومن المتعذر رسم صورة واضحة للعلاقات بين بيزنطه وكريت فى الفترة التالية لعام ٩١٥ م وحتى عام ٩٤٩ م . إذ لم تأت المصادر بشيء عن طبيعة هذه العلاقات مما يكشف الغموض الذى يحيط بهذه الفترة . وهذا يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان أمير كريت قد استجاب لدعوةالسلام التى وجهها اليه البطريرك نيقولا ، وماهى الأسباب التى دفعته لذلك ؟ وهل اسباب تتعلق بالأحوال الداخلية فى امارته ، أم غير ذلك من أسباب ؟ ولن نجد – للاسف – الإجابة الحاسمة على هذه التساؤلات وغيرها ، فلم تأت المصادر العربية بالكثير عن علاقات كريت بالدولة البيزنطية بصفة عامة ، كما انها لم تذكر شيئا كذلك عن الأحوال الداخلية فى الجزيرة . أما المصادر البيزنطية فقد اهتمت بسرد العلاقات السياسية بين بيزنطه وكريت ، واغفلت ماعداها من امور خاصة بأحوال كريت الداخلية .

(1) Nicolai Constantinopolitani Archiepiscopi Epistolae, tomus unicus, p. 27.

(2) Ibid, p. 29.

وهناك احتمال مؤداه أن تكون الدولة البيزنطية لجأت إلى شراء السلام مع كريت بعد الهزائم المتتالية التى منيت بها ، وذلك بتعهدها بدفع الجزية السنوية لامرائها حتى تأمن جانبهم وتتفرغ لمشاكلها الأخرى خصوصا وانها كانت تمر بظروف حرجة خلال فترة زمنية امتدت منذ عام ٩١٥ م وحتى عام ٩٤٥م ، تلك الظروف التى سنعرض لها فيما بعد بشىء من التفصيل . ولا نستبعد ذلك الاحتمال، خاصة وان هناك اشارة اوردها ابن حوقل عند تعرضه لجزيرة كريت الإسلامية ، يفهم منها انه كانت هناك هدنات تعقد بين المسلمين بها والدولة البيزنطية من آن لآخر ، وكان الجانب الكريتى فيها هو الجانب الأقوى الذى يملى شروطه على البيزنطيين ، فقد قال ابن حوقل «وفى حين الهدنة والمسالمة مصونه (١) ، فى شرائط بينهم عزيزة ، مقرونة بالقهر والاستظهار»(٢) . وأن كان المؤرخون البيزنطيون — وهم مصدرنا الرئيسى فى موضوع هذا البحث لم يشيروا إلى مثل هذا الأمر ، فيغلب على الظن انهم كانوا يجدون فى ذلك شيئا شائنا لايشرفهم ذكره . وعلى أية حال فهذه كلها مجرد فروض واحتمالات ، دفعنا اليها الصمت الذى يحيط بالعلاقات البيزنطية الكريتيه ، خلال هذه الفترة الزمنية الممتدة من عام ٩١٥ وحتى عام ٩٤٩م .

كان هذا فيما يتعلق بالجانب الكريتى ، أما الدولة البيزنطية ، فقد وجد لديها من الأسباب ماجعلها تحرص على أن يسود السلام بينها وبين كريت ، وكانت هذه الأسباب تتعلق فى المرتبة الأولى ، بالصراع الذى نشب بينها وبين جيرانها على الحدود المختلفة . فبعد وفاة الإمبراطور ليو السادس فى ١٢

(١) أى أن كريت هى المصونة

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ٢٠٤ .

مايو ٩١٢ م ، خلفه على العرش ابنه قسطنطين السابع ، الذى كان فى السادسه من عمره آنذاك ، فتولى تصريف شئون الحكم كوصى على الطفل القاصر ، عمه الاسكندر ، غير انه لم يلبث أن توفى فى ٦ يونيه ٩١٣ م بعد مباشرته مهام الوصاية بعام واحد (١) . ولما كان قسطنطين لم يتجاوز السابعة بعد ، فقد تولى تصريف شئون الإمبراطورية مجلس وصاية برئاسة بطريرك القسطنطينية نيقولا مستيكوس . لكن الظروف التى تعرضت لها بيزنطة وقتذاك ، والخاصة بصراعها مع البلغار ، استلزمت قيام حكم عسكرى قوى ، وقد انتهز هذه الظروف المواتيه قائد البحرية البيزنطية الدرنجار رومانوس ليكابينوس وعن طريق تقربه من الإمبراطورة الوالدة زوى Zoé نجح فى أن يصبح وصيا على الإمبراطور قسطنطين ، وكان ذلك فى عام ٩١٩ . ولم يلبث ليكابينوس أن وطد مركزه ونفوذه وتخلص من امبراطوره زوى ومستشاريها . وفى مايو ٩١٩ م زوج ابنته هيلين Helena من الإمبراطور قسطنطين السابع ، وبذلك حصل على لقب الأمير الوالد Basileopator (٢) وفى ٢٤ سبتمبر ٩٢٠ م رفعه صهره قسطنطين إلى رتبة القيصر Ceasar ، ثم ارتقى إلى مرتبه أعلى من ذلك بأن أصبح شريكا فى الحكم للأمبراطور قسطنطين ، وذلك فى ١٧ ديسمبر ٩٢٠ م (٣) .على أن طموح ليكابينوس لم يقف عند

---

(1) Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 377.

(٢) يعتبر هذا اللقب أعلى الألقاب البيزنطية فى ذلك الوقت ، وقد أنشأه الامبراطور ليو السادس وكان هذا اللقب مقتصرا على اصهار الامبراطور ، ومن الامتيازات التى يحصل عليها حامله هو السماح له ولزوجته بتناول الطعام على المائدة الامبراطورية .

انظر : Ostrogorsky, op. cit., p. 215.

رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٩٢ .

(3) Theophanes Continuatus, pp. 380—384.

راجع كذلك : Ostrogorsky, op. cit., pp. 231—234.

هذا الحد ، بل سرعان ماانفرد بشئون الحكم ، واصبح الاوتوقراطور باسيليوس (أى الحاكم المفرد) ، ورفع ثلاثة من ابنائه إلى مرتبة اباطرة زملاء للأمبراطور الشرعى قسطنطين السابع ، بل لقد جعل ابنه كريستوفر Christopher يسبق الإمبراطور قسطنطين فى الترتيب ، أى انه أصبح عليه أن يلى أباه مباشرة فى حكم الإمبراطورية ، كما بذل كل جهده فى سبيل صرف الإمبراطور قسطنطين عن التدخل فى شئون الحكم ، بأن شجعه على التفرغ لدراسة الأدب والتاريخ (١) . وقد صاحبت هذه التطورات الداخلية احداثا خارجية خاصة بالعلاقات بين بيزنطه وجيرانها البلغار والمسلمين والروس .

فقد كانت بلغاريا فى هذه الحقبة من الزمن تشمل جانبا كبيرا من غرب شبه جزيرة البلقان ، ومعظم الأراضى الواقعة بين نهر الدانوب ومورافيا وبولندا ، وكان يتولى عرشها آنذاك القيصر سيميون Tsar Symeon (٨٩٣ — ٩٢٧ م) ، الذى نشأ بالقسطنطينية كرهينه ، واتقن اللغة اليونانية والخطابة وعلم المنطق ، كما استهوته الحضارة البيزنطية إلى حد كبير ، بعد أن وقف على عظمة وأبهة البلاط البيزنطى ، وكانت اقصى احلام سيميون أن يستولى على القسطنطينية ويضع التاج الإمبراطورى على رأسه ، وينشىء امبراطورية عالمية واحدة تحل محل الإمبراطورية البيزنطية . وبمجرد توليه الحكم فى بلاده نشأ الصراع بينه وبين بيزنطه ، وكانت الأسباب المباشرة له تجاريه بحته . إذ أن اثنين من التجار البيزنطيين حصلوا من الإمبراطور ليو السادس على حق احتكار التجارة البلغارية ، ثم عمدا إلى نقل السوق البلغارية إلى مدينة سالونيك

---

(1) انظر : Theophanes Continuatus, p. 339.
راجع ايضا : Ostrogorsky, op. cit , pp. 239—240.

وفرضا رسوما باهظة على التجار البلغار ، فتقدم هؤلاء التجار بشكواهم إلى القيصر سيميون الذى رفعها بدوره إلى الإمبراطور ليو ، فأهملها اهمالا تاما . وبناء على ذلك اعلن سيميون الحرب على بيزنطه ، وقد حدثت بعض الإشتباكات بين الطرفين تراوحت بين النصر والهزيمة لكليهما ، وانتهت بانتصار البلغار انتصارا حاسما على الجيوش البيزنطية فى معركة بلغار وفيجون Bulgrophygon بالقرب من ادرنه ، وذلك فى عام ٨٩٦ م . وبمقتضى الصلح الذى اعقب هذه المعركة تحتم على بيزنطه أن تدفع الجزية السنويـه للمملكة البلغارية (١) .

وما أن تولى الإمبراطور الأسكندر الحكم فى سنة ٩١٢ م ، حتى امتنع عن دفع هذه الجزية للقيصر سيميون ، فهيأ له بذلك الدافع الذى أعلن من أجله الحرب من جديد (٢) . وقد نجح الجيش البلغارى فى انزال الهزائم المتوالية بالبيزنطيين فى معارك مختلفة ، على أن أشد الهزائم التى ألحقها بهـم وقعت فى عام ٩١٧ م حين تم سحق الجيش البيزنطى عند نهر اخيلـوس Achelous بالقرب من انخيالوس Anchialus فى إقليم تراقيا . وفى سنـة ٩١٨ م هاجم سيميون شمال بلاد اليونان ، وتوغل بها حتى وصل إلى خليج كورنثة ، وقد ثمل سيميون بهذا النصر فأعلن نفسه قيصر البلغار وامبراطور الرومان (٣) وبعد ذلك تطلع إلى الأستيلاء على العاصمة البيزنطية نفسها . وفى عام ٩٢٣ م ، استولى على أدرنه ، على أنه أدرك استحالة اقتحامه

---

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، ص ، ص ١١٥ — ١١٦ .
انظر كذلك ،
Ostrogorsky, op. cit., pp. 227—232; C.M.H., vol IV, p. 237.

(2) Ostrogorsky, op. cit., 231.

(3) Theophanes Continuatus, Liber VI, pp. 385—390
راجع كذلك ، عمر كمال توفيق ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٦ .
Ostrogorsky, op. cit., pp. 232—234.

القسطنطينية التى أمتازت بحصانتها(١) ، إلا بامتلاكه اسطولا بحريا إلى جانب قواته البرية ، ولما كان لا يمتلك مثل هذا الأسطول ، فقد عقد محالفة مع الأخشيديين حكام مصر حتى يمكنه الأستفادة من مهارة المصريين فى القيام بهجوم مشترك على القسطنطينية . (٢) على أن الإمبراطور ليكابينوس احبط هذه المحالفة بتقربه إلى الأخشديين ، فأرسل إلى محمد بن طغج الأخشيد حاكم مصر انذاك ، برسالة يخطب وده فيها ، وبالرجوع إلى المصادر العربية والبيزنطية المعاصرة والمتأخرة لم نعثر على نص رسالة ليكابينوس ، وان كان قد وصلنا نص رد الأخشيد عليه ، وقد انفرد المؤرخ القلقشندى بايراد هذا النص (٣) ، ومنه يفهم أن الإمبراطور البيزنطى أوفد برسولين من قبله إلى الأخشيد ، احدهما يدعى نيقولا ، والأخر اسحاق ، وبعد أن اجزل رومانوس الثناء للأخشيد بقصد التقرب اليه ، اخبره برغبته فى تخليص الأسرى المسلمين الموجودين بالسجون البيزنطية ، وكذلك قيام العلاقات الودية بينهما ، وفتح أسواق التجارة بين البلدين . وقد استجاب له الأخشيد ، وبذلك نجح ليكابينوس فى سد الطريق امام سيميون البلغارى .

ولما وجد هذا الملك أن مفاوضاته مع الأخشيديين لم تثمر ، وأن مالديه من قوات لن يهىء له تحقيق حلمه بفتح القسطنطينية ، رأى انه من الأفضل التخلص عن هذا الحلم وان يقنع بعقد صلح مع الدولة البيزنطية ، ومن ثمة فقد ألح فى مقابلة الإمبراطور البيزنطى ، وفى ٩٢٤ م جرى اللقاء الشهير بينه وبين الإمبراطور ليكابينوس تحت أسوار القسطنطينية ، فأستقل الإمبراطور

---

(١) سبق التعرض لموقع القسطنطينية و المميزات التى اختصت بها فى الفصل الاول ص ٨٠ حاشية رقم (٤).

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 235.

(٣) انظر نص خطاب الاخشيد إلى رومانوس ليكابينوس فى المصدر التالى :
القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ص ١٠ — ١٨ .

سفينة إلى موضع اللقاء ، وجاء سيميون من جهة البر ، وتبادلا عبارات التحية والأحترام ، ثم انتقلا بالحديث إلى موضوع المقابلة ، وقد اسفر هذا اللقاء عن عقد الهدنة بين الطرفين مقابل تعهد بيزنطة بدفع الجزية السنوية للملك البلغارى(١) .

وهكذا تخلصت بيزنطة من هذا الخطر الذى هددها لعدة سنوات ، وما كادت تنتهى من مشاكلها الراهنة مع البلغار ، حتى خاضت صراعا آخر مع المسلمين على الجبهة الشرقية للإمبراطورية اذ وجدت فى الأوضاع السياسية المضطربة التى عانى منها المشرق الإسلامى آنذاك (٢) ، فرصتها الذهبية لاستعادة ممتلكاتها السابقة فى هذه المنطقة ، فقامت بمحاولات متكررة فى عامى ٩٢٥ ، ٩٢٦ م ، (٣١٣هـ ، ٣١٤ هـ) للإستيلاء على مدينة ملطية . لكن هـذه المحاولات لم تكلل بالنجاح ، حتى تم للقائد البيزنطى يوحنا كوركواز الإستيلاء عليها فى عام ٩٦٤ م (٣٢٢هـ ((٣) . وقد وجدت الدولة البيزنطية فى هذه المرحلة من مراحل صراعها مع مسلمى المشرق ، ندا خطيرا تمثل فى الأمير سيف الدولة الحمدانى الذى تولى توجيه القتال ضد البيزنطيين وكان أول اشتباك له معهم فى عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ — ٩٣٦ م) حين سار الجيش البيزنطى قيادة كوركواز إلى مدينتى آمد وسميساط بأعلى الجزيرة — التابعتين لأبى تغلب بن حمدان حاكم امارة الموصل وشقيق سيف الدولة — فنازلهم الأمير سيف الدولة عند آمد وابعدهم عنها (٤) . وفى شهر سبتمبر من عام

---

(1) Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 397.

(٢) انظر التفاصيل ، فى الفصل الرابع من البحث .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٨٢ ، ص ١٨٥ ، راجع كذلك :
Canard, Histoire de la Dynastie des Hamdanides, pp. 736—737.

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٢٥٨ .

٩٣٨ (ذى الحجة ٣٢٦ هـ) احرز سيف الدولـة انتصارا حـاسما عـلى كوركواز فى إقليم اعالى الجزيرة فى موضع بين حصن زياد وحصن سلام(١) ثم غزا سيف الدولة ارمينيه (٢) فى عام ٩٤٠ م (٣٢٨ — ٣٢٩ هـ) ، وارغم عددا كبيرا من امرائها على الأعتراف بسيادته ، وتوغل حتى وصل إلى الممتلكات البيزنطية فى ارمينية فخرب الجهات المجاورة لمدينة كولونيا Colonta على أن ماحدث من صراع داخلى فى دار الخلافة العباسية ، أعاق سيف الدولة عن مواصلة جهوده العسكرية ضد البيزنطيين ، وعاد إلى العراق كيما يستأنف التدخل فى أمور الخلافة العباسية هناك (٤) .

ولم تكد الحرب مع سيف الدولة تهدأ ، حتى ظهر فى الأفق خطر جديد موجه ضد بيزنطة ، وكان هذا المرة من جانب الروس ، اذ قام الأمير الروسى إيجور Igor فى يونيه ٩٤١ م بحملة بحرية كبيرة ، ونزل بقواته على شاطىء بيثينيه المطل على البحر الإسود ، وانزل هو ورجاله التخريب والدمار بالشاطىء

---

(١) نفس المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦ ، راجع كذلك :

Canard op. cit., p. 743.

(٢) كانت ارمينيه فى ذلك الوقت مملكة مستقلة استقلالا داخليا ، ولكنها كانت تعترف بسيادة الخلافة العباسية ، فكانت تدفع الجزية السنوية للخليفة العباسى وكان لابد من الحصول على موافقته عند تعيين ملوكها ، وفى نفس الوقت كانت ترتبط بالعلاقات الودية مع الامبراطورية البيزنطية ، التى كانت تطمع فى اخراج ارمينية من دائرة النفوذ الاسلامى ، وادخالها فى مناطق النفوذ البيزنطى ، انظر :

C.M.H. vol IV, pp. 140, pp. 158—159.

(3) Canard, op. cit., p. 747.

(٤) كان هذا الصراع من أجل السلطة بين الخليفة العباسى المتقى بالله ، وامير الامراء التركى توزون وكان بنو حمدان يناصرون الخليفة العباسى ، ويتخذون جانبه ، وبشأن تفاصيل هذا الصراع وموقف الحمدانيين منه ، انظر ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٢٨٠ .

الآسيوى لبوغاز البسفور ، ثم واصلوا زحفهم على هذا الشاطىء حتى وصلوا إلى كريسوبوليس Chrisopolis . لكن الجيش والأسطو ل البيزنطى نجحا فى انقاذ الموقف ، فأنزل الجيش بقيادة كوركواز هزيمة ساحقة بالروس وحين انسحبوا إلى سفنهم عازمين على الأرتداد هاجمهم الأسطول البيزنطى بقيادة القائد البارع ثيوفانيس Theophanes والحق بهم خسائر فادحة (١) .

على أن هذه الهزائم لم تثن عزم ايجور عن معاودة الهجوم على الأراضى البيزنطية ، فقام بحملة ثانية فى ٩٤٤ م ، وقد استعد لها استعداد كبيرا ، بعد أن استفاد من نتائج حملته السابقة ، فأعد سفنا حربية قوية ، كما عبأ جيشا ضخما استعان فيه إلى جانب المقاتلين الروس بعناصر اخرى من الصقالبة والبجناك . وحين علم الإمبراطور ليكابينوس بعزمه على مهاجمة القسطنطينية أرسل اليه سفارة محملة بهدايا ثمينة اوضحت له استعداد الإمبراطور لدفع الجزية السنوية له ، لكن ايجور لم يعبأ بذلك ، وتقدم بأسطوله حتى نزل على سواحل بيثينية ، وسار نحو القسطنطينية ، واخذ يعبث فسادا فى الأراضى التى مر بها حتى بلغ البسفور . لكن النيران الإغريقية لعبت دورا هاما فى ابعاده عن العاصمة وانزال الخسائر الجسيمة بجنده ، الذين تعرضوا كذلك الصقيع ونفاذ الاقوات ، وقد أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى ارتداده إلى سفنه وعودته إلى الروسيا دون أن يحقق هدفه (٢) . وبعد ذلك جرت المفاوضات بين الجانبين ، وانتهت فى عام ٩٤٥ م ، بعقد معاهدة بينهما تقرر فيها الأعتراف بكل ماسبق عقده من معاهدات بين الطرفين ، اللذين تعهدا بألا يهاجم احدهما

---

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 245.

(2) C.M.H., vol IV, p. 205.

أراضى الجانب الآخر ، وأن ينهض كل منهما لمساعدة الأخر إذا اقتضت الظروف ذلك (١) .

وهكذا امتلأت هذه الفترة الممتدة من عام ٩١٥ م وحتى عام ٩٤٥ م ، بالنزاع والصراع بين بيزنطة وجيرانها المختلفين ، هذا الصراع ، الذى ترك بصماته الواضحة على علاقاتها مع كريت ، اذ دفعها إلى الحرص على أن يسود السلام بينها وبين كريت لمعالجة مشاكلها على الجبهات المختلفة. على أنه حينما تهيأت لها الظروف المناسبة ، سارعت على الفور إلى اعداد حملة كبيرة وجهتها إلى كريت فى عام ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ) ، أثناء عهد الإمبراطور قسطنطين السابع ، خاصة بعد أن عاود مسلمو كريت غاراتهم من جديد على الأراضى البيزنطية .

فقد تطورت الأحداث الداخلية فى الإمبراطورية البيزنطية بشكل أدى إلى انفراد قسطنطين السابع بالعرش ، اذ توفى كريستوفر اكبر ابناء الإمبراطور ليكابينوس فى عام ٩٣١ ، وبموته أصبح من حق الإمبراطور قسطنطين أن يلى العرش بعد وفاة ليكابينوس ، الذى لم يتخذ أى اجراء من شأنه أن يجعل ولديه وزميليه فى العرش وهما ستيفن وقسطنطين يتقدمان على الإمبراطور قسطنطين السابع فى الترتيب ويليا والدهما فى الحكم بعد وفاته ، لذلك صمما على القيام بانقلاب للاطاحة بوالدهما ، ثم التخلص من قسطنطين السابع والإنفراد بالحكم . وقد لعب اتباع هذا الأخير دورا هاما فى تحريضهما على التعجيل بهذا الانقلاب ، وبالفعل نفذ المتآمران الشطر الأول من مؤامراتهما فى ١٦ ديسمبر ٩٤٤ م . إذ قبضا على والدهما ونفياه إلى جزيرة بروتن Proten

(1) C.M.H , vol IV, p. 205.

وهى إحدى الجزر المواجهة للقسطنطينية ، وبذلك فقدا السند الوحيد لهما .
وقد جنى الإمبراطور قسطنطين السابع ثمار هذا الإنقلاب فتولى الحكم باعتباره صاحب الحق الشرعى فيه ، ولقى التأييد من جانب شعب القسطنطينية أما مدبرا هذه المؤامرة فقد تم نفيهما إلى جزيرة رودس فى ٢٧ يناير ٩٤٥ م . وهكذا تولى الإمبراطور قسطنطين السابع شئون الحكم بصفة فعلية ، وكان قد بلغ الاربعين من عمره ، وبعد أن تخلص من آل ليكابينوس وسيطرتهم على الحكم (١) .

وهكذا استتبت الأمور فى الداخل للإمبراطور قسطنطين السابع ، اما فى الخارج فقد ساد السلام بين بيزنطة وجيرانها الروس والبلغار ، أما على الجبهة الشرقية للإمبراطورية ، فقد أحرز البيزنطيون بعض الأنتصارات على حساب المسلمين. ففى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ — ٩٤٣ م) هاجم البيزنطيون منطقة اعالى الجزيرة ، ونزلوا على ديار بكر وسبوا من اهلها خلقا كثيرا ، كما فتحوا مدينة آرزن وخربوها ، واخذوا يعيثون فى اراضى المسلمين حتى اقتربوا من مدينة نصيبين ، ثم حاصروا مدينة الرها ، والتمسوا من أهلها أن يسلموهم ايقونة منديل السيد المسيح (٢) ، الموجودة بكنيسة الرها ، ووعدوا اهاليها

---

(1) Theophanes Continuatus, Liber VI, pp. 431—436
انظر كذلك المصدر التالى ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ص ٤٠ — ٤١ (طبعة باريز) .

(٢) هو المنديل الذى يقال ان السيد المسيح قد مسح به وجهه فصارت صورته فيه . وكان هذا الاثر موضع تبجيل من جانب المسلمين والمسيحيين على السواء . وقد وافق المسلمون على تسليمه وهم مجبرين ، حتى يتخلصوا من تهديد البيزنطيين لهم ، ولينقذوا اسراهم . وقد تم نقل هذا الاثر إلى القسطنطينية حيث استقبل فى حفل مهيب ، حضره الامبراطور ليكابينوس وبطريرك القسطنطينية وغيرهما من كبار القوم . وحمل هذا المنديل إلى كنيسة القديسة صوفيا ، ثم إلى القصر الامبراطورى ، للاحتفاظ به . والواقع أن هذا يدل على مدى اهتمام البيزنطيين بالآثار الدينية الموجودة فى المشرق ورغبتهم فى جمعها ، تلك الرغبة التى كان=

بفك الحصار والأنسحاب من امام مدينتهم ، وإطلاق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين الموجودين بأيديهم ، إذا قاموا بتسليمهم هذه الإيقونة . وقد اجابهم الأهالى إلى ذلك بعد رجوعهم إلى اولى الأمر فى بغداد لاستشارتهم وفى رمضان ٣٣١ هـ (مايو ٩٤٢ م) هاجم البيزنطيون مدينة دارا فى اعالى الجزيرة وفتحوها . وفى العام التالى فى ربيع ٣٣٢ هـ (نوفمبر ٩٤٣ م) ، هاجموا مدينة راسى عين واقتحموها وسبوا من اهلها زهاء الف نفس ثم انصرفوا عنها . وفى عام ٩٤٩ م (٣٣٧ – ٣٣٨ هـ) استولوا على مدينة مرعش فى شمال الشام ، واستمروا فى زحفهم حتى وصلوا إلى المدينة الساحلية طرسوس (١) .

وعندما وجد المسلمون بكريت ان الدولة البيزنطية قد طغت فى عدوانها على المشرق الإسلامى ، عملوا على مناوءتها ، بفتح جبهة ثانية للقتال معها ، حتى تخف وطأة قتالها لاهالى تلك الجهات ، وذلك تحقيقا لمبدأ التعاون بينهم وبين اخوانهم فى الشام ، هذا المبدأ الذى جرى عليه الطرفان خلال هذه المرحلة من مراحل صراعهم مع بيزنطة . لذلك فقد عاود الكريتيون الهجوم على السواحل والجزر البيزنطية حتى (زعزعوا السيادة البحرية للروم). على حد تعبير المؤرخ البيزنطى كيدرينوس (٢) . فصمم الإمبراطور قسطنطين السابع

= مبعثها الارتباط الروحى بين المسيحيين والاراضى المقدسة ، وماحوته من اثار دينية ، وكان هذا احد الدوافع الرئيسية وراء الفتوحات البيزنطية فى المشرق الاسلامى فى القرن العاشر ، الميلادى . وللمزيد عن هذا الموضوع انظر ، عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ، ص ص ٩٠ – ٩٦ .

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ٣٢ – ٣٥ (طبعة باريز) .
راجع كذلك :

Ostrogorsky, op. cit., p. 250.

(٢) كيدرينوس : نفس المصدر ، ص ٣٣٦ .

على إرسال حملة جديدة لإخضاع كريت ، وشجعه على ذلك الأنتصارات التى أحرزتها جيوشه على المسلمين فى المشرق .

وقد مهد الإمبراطور قسطنطين لهذه الحملة بأرسال سفارة إلى الأندلس واشار إلى هذه السفارة المؤرخان المغربيان المقرى وابن عذارى ، اللذان أوضحا انها قوبلت بحفاوة بالغة (١) ، ثم سمح للرسل البيزنطيين بمقابلة الخليفة الأموى الناصر لدين الله (٢) ، وذلك فى يوم ١١ ربيع الأول ٣٣٨ هـ (١٠ سبتمبر ٩٤٩ م) وقدموا اليه كتاب (٣) الإمبراطور قسطنطين السابع الذى يلتمس فيه من الخليفة الناصر « إيقاع الموالفة واتصال المكاتبه » بينهما(٤)

---

(١) انظر تفاصيل هذا الاستقبال فى المصدرين التاليين : المقرى : نفع الطيب ، جـ ١ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضى بن هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل ، تولى الحكم فى الاندلس فى مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠ هـ (منتصف اكتوبر ٩١٢ م) ، وتوفى فى ٢ رمضان ٣٥٠ هـ (نوفمبر ٩٦١ م) ، وهو اول من تسمى من الامويين بامير المؤمنين ، وتلقب باحد الالقاب السلطانية وهو «الناصر» ونحا خلفاؤه نحوه ، فتسموا بامرة المؤمنين وتلقبوا بالالقاب السلطانية . انظر ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٣) وصف المقرى هذا الكتاب بقوله : «وهو فى رق مصبوغ لونا سماويا ، مكتوب بالذهب بالخط الاغريقى ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ايضا مكتوبة بفضة بخط اغريقى ايضا فيها وصف هديته التى ارسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه اربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد صورة المسيح ، وعلى الاخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح ، العظيمان ، ملكا الروم ، وفى سطر اخر ، إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس ، اطال الله بقاءه . . انظر المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣٤٤- ٣٤٥ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ .

والظاهر إن الإمبراطور البيزنطى كان يهدف من وراء ذلك إلى خطب ود الخليفة الأموى حتى لايبذل المساعدة لأهالى كريت أوعلى الأقل يضمن حياده حيال الصراع المرتقب بين الكريتيين والحملة البيزنطية المرسله لاخضاعهم .

حملة جوجيل على كريت ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ) :

لقد أورد الإمبراطور قسطنطين السابع التفاصيل الخاصة باستعدادات هذه الحملة (١) لكنه اغفل ذكر تفاصيل المعركة ذاتها مع المسلمين بكريت وماسفرت عنه من نتائج . وكان من حسن الحظ أن أمدنا المؤرخ البيزنطى كيدرينوس بهذه التفاصيل (٢) ، وعلى هذا يمكن القول أن كليهما يتمم الأخر فى هذا الشأن . وجدير بالملاحظة انغالبية المؤرخين المهتمين بدراسة التاريخ البيزنطى لم يعرضوا لتفاصيل هذه الحملة الكبيرة ، وانما اشاروا اليها اشارات سريعة عابرة (٣) ، كما هو الحال بالنسبة لحملة هيميريوس .

وقد اسندت قيادة القوات البحرية والبرية فى هذه الحملة إلى استراتيجوس ثيم ساموس البطريق قسطنطين جوجيل . وتكونت القوات البحرية ، من الأسطول الإمبراطورى واساطيل الولايات البحرية البيزنطية وذلك على النحو التالى :

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحملة الكبيرة فى كتاب الامبراطور قسطنطين السابع «المراسم الامبراطورية باليونانية ، ص ص ٦٦٤ — ٦٧٨ .

(٢) انظر كتاب كيدرينوس «موجز التاريخ» وهو باليونانية ص ٣٣٦ .

(٣) انظر على سبيل المثال المراجع التالية : —

Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, tome I, p. 407; Ostrogorsky, History of the Byzantine Empire, p. 250; Finlay, History of Greece, tome II, pp. 315—316; Schlumbergeı : Un Empereur Byzantin, p. 38.

الإسطول الإمبراطورى : تكون هذا الأسطول من ١٠٠ شلنديه ، و ٦ بامفيليات و ١٥٠ قطعة حربية من نوع الأوسيا usia . وضم هذا الأسطول ٦٢٩ بحارا من الروس ، و ٣٦٨ بحارا من التلماخ و ٧٠٠ بحارا من الأسرى من عناصر مختلفة .

اسطول الولايات البحرية البيزنطية : واشتمل هذا الأسطول على ٣٩ قطعة حربية ، من بينها : ٦ بامفيليات تحمل كل واحدة ١٢٠ مقاتلا ، ٤ شلنديات تسع الواحدة ١٠٨ مقاتل ، وأوسيا واحدة ارسلها ثيم البحر الإيجى واشترك ثيم ساموس فى هذه الحملة بأسطول مكون من ٦ بامفيليات تشمل الواحدة ١٥٠ مقاتلا ، ٦ شلنديات حمولة الواحدة ١٠٨ مقاتل . أما اسطول ثيم كبير هايوت فتكون من ٦ بامفيليات تتسع الواحدة لـ ١٥٠ مقاتل و ٦ شلنديات تحمل الواحدة ١٠٠ مقاتل . واحتوى اسطول البلوبونيز على اربع شلنديات فقط كما ارسل استراتيجوس هذا الثيم بثلاثة الاف بحار من المردة الغربيين من البلوبونيز ونيقوبوليس وكيفا لونيا .

وإلى جانب القوات البحرية المشتركة فى هذه الحملة ، كانت هناك قوات برية من المقاتلين بلغ عددها ٧٤٣ر٤ جندى من الجيش الإمبراطورى وجيوش ثيمات تراقيا ومقدونيا والاوبسيق والتراقيسيون .

هذا إلى جانب كميات كبيرة من الأسلحة ، ونستدل على ذلك حين نعلم حمولة الاسلحة الموجودة بكل درمونه اشتركت فى هذه الحملة كما عرضها الإمبراطور قسطنطين السابع ،وكانت على النحو التالى : —

٧٠ درع سميك ، ٢١ درع خفيف ، ١٠ درع عادى ، ٨٠ خوذه من الفولاذ ، ١٠ خواذات بحافات لتغطية كل الوجه ، ٨ ازواج من الأشرطة

الفولاذية ، ١٠٠ سيف ، ٧٠ درع من الجلد المخيط ، ٣٠ درع ليدى ، ٨٠ كلاب ذو طرف حاد ، ٢٠ حربة مسنونة ، ١٠٠ حربة عادية ، ٢٠ قوس وقطع الغيار اللازمة لها ، ١٠٠٠٠ سهم ، ٢٠٠ سهم صغير ، ١٠٠٠٠ شوكة حديدية ، ٤ كلابات مزودة بسلاسل ، ٥٠ درع من الصوف السميك يلبس فوق الدرع العادى ، ٥٠ خوذه تعرف باسم كاميلوكيا (١)

وقد اتخذت اجراءات امن مشددة لحماية هذه الحملة ، ومنع وصول أية مساعدات عسكرية لكريت من جانب المسلمين فى المغرب والمشرق على السواء ولتحقيق ذلك بعثت الحكومة البيزنطية بأسطول صغير مكون من ثلاث شلنديات واربع درومونات تحمل الواحدة ٢٢٠ مقاتلا ، بقيادة البروسباطير يوحنا ، لمراقبة سواحل شمال افريقيا . كما ارسلت ثلاث سفن حربية من النوع المعروف باسم اوسيا ، إلى سواحل الأندلس لنفس الغرض . اما مسلمو المشرق فقد اتخذت اجراءات مماثلة حيالهم ، وقامت بهذه المهمة اربع درومونات ، واوسيا واحدة ، وتولى القيادة العامة على هذه القطع ستيفانوس شقيق الإمبراطورة هيلين زوجة قسطنطين السابع ، وقد رابطت هذه القوة بالقرب من جزيرة رودس .

وحتى لايقع اى هجوم اسلامى على القسطنطينية اوغيرها من السواحل البيزنطية اثناء غزو هذه الحملة لكريت ، فقد خصصت اربع وعشرون اوسيا وبامفيلية واحدة لحراسة العاصمة البيزنطية ، كما خصصت سبع اوسيات لحراسة سواحل دوراخيوم ، ودالماشيا ، وثلاثة اخريات لحماية ساحل كلابريا فى اقصى الطرف الجنوبى من إيطاليا (٢) .

---

(١) انظر كتاب قسطنطين السابع ، المراسم الامبراطورية ، ص ص ٦٦٩ ، ٦٧٠ . باليونانية

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٦٥ .

ومن العرض السابق نلمس مدى ضخامة هذه الحملة ، وماتكلفتـــه الحكومة البيزنطية من مال وجهد فى سبيل اعدادها والآمال التى عقدتها عليها .
وإذا كنا قد استقينا المعلومات الخاصة بتلك الاستعدادات من كتاب المراسم الإمبراطورية لقسطنطين السابع فيمكن ان نستكمل اخبارها مماروواه المؤرخ كيدرينوس الذى ذكر أن الحملة ابحرت إلى كريت فى عام ٩٤٩ م (١) (٣٣٨) ، ولم تجد صعوبة كبيرة فى النزول على ساحل كريت ، ولكنه لم يوضح المكانالذى نزلت به الحملة ، وانما استطرد قائلا ان قائد الحملة قسطنطين ، الذى يلصق به كيدرينوس كل الصفات المشينة ، لم يهتم بتحصين معسكره ، كما انه لم يستخدم الكشافة والجواسيس لاستقصاء اخبار اهالى كريت ومدى استعدادهم لمواجهة القوات البيزنطية ، وبذلك تهيأت الظروف المناسبة للمسلمين ، وتحت جنح الظلام التفوا حول المعسكر البيزنطى وحاصروه تماما ، وابادوا الجزء الأكبر منه ، وكاد جوجيل نفسه ان يلقى نفس المصير لولا ان حماه بعض غلمانه ، واستطاع ان يفر على ظهر احدى السفن (٢) ولم يشر كيدرينوس ولاغيره من المؤرخين المعاصرين أو المتأخرين إلى المصير الذى لقيه جوجيل او العقاب الذى أنزله به الإمبراطور البيزنطى نتيجة لتسببه فى هذه الهزيمة المروعة .

وهكذا لقيت هذه الحملة مالقيته الحملات البيزنطيه السابقة من مصير ولم تحقق سوى الفشل الذريع الذى أكد مهارة المسلمين بكريت وتفوقهم على

---

(١) لم يوضح كيدرينوس التاريخ الدقيق لابحار هذه الحملة ، ولم نعثر فى المصادر الاخرى على مايفيد فى هذا المجال ، والراجح انها ابحرت إلى كريت فى صيف عام ٩٤٩ م ، وذلك على العادة التى اتبعتها بيزنطه دائما فى الحملات السابقة التى ارسلتها ضد كريت ، والتى دأبت على ارسالها فى فصل الصيف حتى تكون الاحوال المناخية ملائمة بالنسبة لها .

(٢) كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٣٣٦ . باليونانية .

اساطيل الإمبراطورية البيزنطية وجيوشها ، ويمكن القول ان عـدم توفيـق بيزنطة فى اختيار القادة الأكفاء ، الذين يتولون الأشراف على حملاتها ، وتوجيه العمليات العسكرية ضد كريت ، سواء فى هذه الحملة او الحملات التى سبقتها يعتبر من أهم الأسباب التى أدت إلى اخفاق هذه الحملات واضاعة كل الجهود والأموال التى بذلت فى اعدادها هباء .

والملاحظ أن الدولة البيزنطية لم تعاود الكره فى محاولة جديدة لغزو كريت إلا فى عام ٩٦٠ م ٣٤٩ هـ ، وهذا يرجع إلى أن الهزيمة الشديدة التى لقيتها على يد المسلمين بكريت جعلتها تخشى منازلتهم لفترة من الزمن ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بسبب المتاعب التى أثارها فى وجهها الأمير سيف الدولة بن حمدان حاكم امارة حلب فى شمال الشام ، بغزواتـه المتكررة ضـد الأراضى البيزنطية .

ففى النصف من ربيع الأول ٣٣٩ هـ (أول سبتمبر ٩٥٠ م) خرج سيف الدولة لغزو الممتلكات البيزنطية على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين الف مقاتل كما انضم اليه أربعة الاف مقاتل من طرسوس ، وأوغل سيف الدولة بقواته داخل الاراضى البيزنطية حتى بلغ مدينة صارخة التى لاتبعد عن القسطنطينية العاصمة أكثر من سبعة أيام . وافتتح حصونا كثيرة كما وقع فى يده العديد من الأسرى والغنائم . وانهى سيف الدولة عملياته الحربية فى جمادى الآخرة من نفس السنة (نوفمبر — ديسمبر ٩٥٠ م) نظرا لحلول فصل الشتاء ، وحين أراد العودة إلى حلب مقر حكمه ، قطع عليه البيزنطيون بقيادة الدمستق ليوفوقاس الطريق ، وضيقوا عليه المسالك ، فتخلى عنه عدد من جنده وهلك كثير آخرين ، واسترد البيزنطيون الغنائم والأسرى . أما سيف الدولة ، فقد

نجا فى عدد يسير من عساكره . وقد بلغ من شدة هذه الهزيمة أن بعض المؤرخين اطلقوا عليها اسم غزاة المصيبة (١) .

وفى ٣٤٠ ه (٩٥١ — ٩٥٢ م) وبينما سيف الدولة يشرف على تشييد الاستحكامات واقامة الأسوار لحماية المدن التى تقع على الطريق المودى إلى حلب مثل رعبان وتل خالد ، هاجمه البيزنطيون بقيادة قسطنطين ابن الدمستق برداس فوقاس ، غير ان سيف الدولة انتصر عليهم . وقد دفعهم ذلك إلى ان يوجهوا هجومهم إلى منطقة الجزيرة ، فأغاروا على مدينتى آمد وميافارقين لكن سيف الدولة فاجأهم وانزل بالدمستق فوقاس هزيمة ساحقة (٢) .

وفى عام ٣٤٢ ه (٩٥٣ م) قام سيف الدولة بحملة كبيرة كان هدفه منها اقليم ملطيه الذى يعتبر مصدر خطر على إقليم الجزيرة الذى دأب البيزنطيون على مهاجمته . وقد اجتمع سيف الدولة بقواته فى مدينة دولوك بشمال الشام ثم توجه إلى سفوح جبال طوروس واتخذ طريقه إلى مدينة زبطرة التى كانت بيد البيزنطيين فأغار عليها وعلى عرقه وملطيه (٣) . وقد حدث اشتباك عنيف بين سيف الدولة والقوات البيزنطية بقيادد قسطنطين فوقاس بالقرب من ملطية واحرز سيف الدولة انتصارا كبيرا على البيزنطيين ، ثم توجه إلى مدينة مرعش فى شمال الشام بقصد أن يعترض طريق عودة الدمستق برداس فوقاس بعد أن أغار على الشام . وتقابل الطرفان عند مرعش فى ١٠ ربيع الأول ٣٤٢ ه (٢٥ يوليو ٩٥٣ م) فى معركة انزل فيها سيف الدولة بالبيزنطيين هزيمة

(١) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، جـ ١ ، ص ١٥١ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٤٨٥ ، (طبعة بيروت ، ١٩٦٦ م) راجع كذلك :

Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides, pp. 761—769.

(2) Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides, pp. 772—733.

(3) Ibid, p. 774.

ساحقة ، واستولى على ماكان معهم من الغنائم والأسرى واصاب الدمستق برداس بالجراح ، كما اسر ابنه قسطنطين ، الذى مات فى الأسر رغم مالقيه من معاملة طيبة من جانب سيف الدولة (١) .

وقد عظم امرموت قسطنطين على والده برداس فوقاس ، فجمع جيشا ضخما من البيزنطيين والروس والبلغار ، وقصد إلى مدينة الحدث حيث كان سيف الدولة يشرف على اعادة بناء سورها ، والتقى الفريقان ، واشتد القتال بينهما ، وانتهى الأمر بانتصار سيف الدولة انتصارا باهرا ، وهلك من الجيش البيزنطى عدد كبير كما وقع كثيرين منهم فى الأسر ، ومن بينهم عدد كبير من اقارب الدمستق والبطارقة . (٢)

وقد ترتب على هذه الهزيمة ان ارسل الإمبراطور قسطنطين السابع فى عام ٩٥٥ م (٣٤٤ هـ) سفاره إلى سيف الدولة ليطلب الهدنة ، لكن سيف الدولة رفض الأستجابة لرجائه (٣) ، مما دفع البيزنطيين إلى مهاجمة حصن الحدث فى جمادى الأولى ٣٤٤ هـ (اغسطس — سبتمبر ٩٥٥ م)واحداث ثغرات فى سوره (٤) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ١ ، ص ١٢٣ — ١٢٤ ، الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ١٥٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ص ٣٠٩ .
راجع كذلك :
Canard, op. cit., p. 775.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ١ ، ص ١٢٥ ، ص ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٨ ، ص ٥٠٨ (طبعة بيروت) .
راجع كذلك :
Canard, Histiore de la dynastie des Hamdanides, p. 780.

(3) Canard, op. cit., p. 781.

(4) Canaıd. op. cit., p. 782.

وفى عام ٣٤٥ ﻫ (٩٥٦ م) حدث اشتباك عسكرى بين سيف الدولة والقوات البيزنطية بقيادة يوحنا تزيمسكس بالقرب من حصن تل بطريق التابع للبيزنطيين ، واستولى على الحصن (٢) . وأثناء عودته التقى بالبيزنطيين وأوقع بهم فى درب يعرف باسم درب الخياطين بالقرب من مدينة آمد بالجزيرة (٣) وفى شهر جمادى الأخر من نفس السنة ٣٤٥ ﻫ (سبتمبر اكتوبر ٩٥٦ م) عاد سيف الدولة لغزو الأراضى البيزنطية ، وامعن فى القتل والأسر ، فكان رد البيزنطيين على ذلك بان ساروا إلى مدينة ميافارقين فاغاروا على نواحيها وخربوا ونهبوا واحرقوا (٤) .

وقد نجح البيزنطيون فى ربيع الأول ٣٤٦ ﻫ (يونيه ٩٥٧ م) فى الإستيلاء على مدينة الحدث . وفى العام التالى قام الإمبرطور قسطنطين السابع بتجهيز حملة كبيرة عهد بقيادتها إلى يوحنا تزيمسكس ، وبلغ من حرصه على نجاح هذه الحملة انه عقد معاهدات صلح مع جيرانه البلغار والروس حتى يتفرغ لتدبير شئونها (٥) . وقد نجحت الحملة فى الإستيلاء على مدينة سميساط فى شمال الجزيرة (٦) . كما انزل يوحنا تزيمسكس الهزيمة بسيف الدولة عند رعبان فى شمال الشام فى شعبان ٣٤٧ ﻫ (اكتوبر ٩٥٨ م) (٧) .

---

(١) يقع تل بطريق على الضفة الغربية لنهر الفرات عند التقاء الفرات الاعلى بالفرات الادنى .
راجع : Canard, Saif al-Daula, p. 115, N.2

(2) Vasiliev, in C.M.H., vol IV, p. 143.

(٣) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١١٤ ، ابن العديم : جـ ١ ، ص ١٢٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، جـ٨ ، ص ٥١٧ (طبعة بيروت) ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٣١٥ .

(5) Canard, op. cit., p. 796.

(6) Ostrogorosky, History of the Byzantine State, p. 250.

(٧) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١١٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ، ص ١٢٨ الذهبى : دول الاسلام ، جـ١ ، ص ١٥٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ص ٣١٩ .

وفى اول شوال ٣٤٨ هـ (٥ ديسمبر ٩٥٩ م) فتح الدمستق ليوفوقاس حصن الهارونيه (١) ثم مد نشاطه الحربى إلى ارض الجزيرة حتى وصل إلى الرها وحران (٢).

وهكذا شغلت الدولة البيزنطية فى الفترة التالية لحملة عام ٩٤٩ م على كريت بالحروب المتواصلة مع الأمير سيف الدولة بن حمدان، الذى نجح فى احراز الأنتصارات العسكرية عليها فى البداية، على ان الأمور تطورت بشكل أصبح فيه الموقف العسكرى فى صالح البيزنطيين، بعد أن هدأت الخلافات السياسية تدب فى انحاء المشرق الإسلامى، وبذلك وجدت بيزنطة الفرصة متاحة امامها للقيام بحملة جديدة ضد كريت فلم تتوان عن استغلال هذه الظروف المواتيه.

ومن العرض السابق للعلاقات الكريتية البيزنطية خلال هذه الفترة التى امتدت منذ بداية تأسيس الأسرة المقدونية فى بيزنطة فى عام ٨٦٧م وحتى عام ٩٤٩ م، وهو تاريخ اخفاق الحملة البيزنطية على كريت، يتضح ان ميزان القوى كان لايزال فى صالح المسلمين بكريت، رغم الأزدهار والأنتعاش الذى شمل الدولة البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية، وذلك نتيجة للتعاون والمساندة التى لقيتها كريت من جانب القوى البحرية الإسلامية وعلى الأخص فى شرقى البحر الأبيض المتوسط، بشكل اصبح معه استعادة بيزنطية لكريت يكاد أن يكون امراً مستحيلا.

---

(١) الهارونية حصن صغير من ثغور الشام، يقع غرب جبل اللكام فى بعض شعابه، وكان هارون الرشيد قد امر ببنائها فى سنة ١٨٣ هـ/ ٧٩٩ م فنسبت إليه، انظر:
البلاذرى: فتوح البلدان، ص ١٧٥، ابن حوقل: صورة الارض، القسم الاول ص ١٦٧.

(٢) يحيى الانطاكى: التاريخ، ص ١١٦، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ١، ص ص ١٢٩ — ١٣٠، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ص ٣٢١ — ٣٢٢.

على انه حين انتاب الضعف المشرق الإسلامى ، وانتشرت النزاعات السياسية والعداوات بين امرائه وحكامه ، وساد التفرق والأضمحلال فى ارجائه ، اصبح من اليسير على بيزنطه ان توجه ضربتها الحاسمة إلى كريت ، وتنجح فى استعادتها ، خصوصا بعد أن وجدت الإمبراطورية تحت تصرفها فى تلك اللحظة القائد الكفؤ ، الذى أهلته صفاته وقدراته للاضطلاع بهذه المهمة الشاقة الخاصة باستعادة كريت من يد المسلمين ، وذلك على النحو الذى سيتضح خلال عرض الأحداث فى الفصل التالى .



الفصل الرابع



نقفور فوقاس واسترجاع كريت

مارس ٩٦١ م / المحرم ٣٥٠ هـ

- العوامل السياسية التى مهدت لقيام حملة نقفور فوقاس وساعدت على نجاحها .
- شخصية نقفور فوقاس واختياره قائدا للحملة .
- استعدادات الحملة .
- حصار القوات البيزنطية لجزيرة كريت .
- السفارات الكريتية إلى القوى الإسلامية فى المشرق والمغرب لطلب المساعدات العسكرية .
- استجابة الخلافة الفاطمية لأهالى كريت .
- هزيمة القوات الكريتية والفاطمية على يد نقفور فوقاس .
- الفتح البيزنطى لمدينة الخندق واستسلام باقى الجزيرة .
- أسباب عدم قيام العالم الإسلامى بمحاولة استرداد كريت .

عرضنا فى الفصل السابق للصراع بين كريت وبيزنطة فى المرحلة التى امتدت منذ منتصف القرن التاسع الميلادى وحتى ختام النصف الأول من القرن العاشر ، والمحاولات المستمرة من جانب أباطرة الأسرة المقدونية لأسترداد كريت ، تلك المحاولات التى كان آخرها حملة عام ٩٤٩ م (٣٣٨هـ) فى عصر الإمبراطور قسطنطين السابع ، وقد ترتب على فشل هذه الحملة ، ازدياد سيطرة المسلمين على جزيرتهم والجزر الأخرى التى كانت تحت

ايديهم ، كما قويت سيطرتهم كذلك على طرق الملاحة فى البحر الإيجى والبحار المجاورة . (١)

وهكذا اصبح من المحتم على بيزنطة ، تأمينا لمصالحها ، أن تقوم بمحاولة كبيرة لأسترجاع كريت ، فأرسلت عليها حملة فى عام ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ ، قدر لها ان تكون من أشهر ، احداث التاريخ البيزنطى فى الشطر الثانى من القرن العاشر الميلادى ، لما امتازت به من ضخامة استعداداتها ، ونجاحها فى تحقيق الغرض الذى ارسلت من اجله . والواقع ان الظروف السياسية التى ألمت بمسرح الأحداث ، سواء مايتعلق منها بالجانب الإسلامى أو الجانب البيزنطى ، كانت مهيأة إلى حد كبير لقيام هذه الحملة ونجاحها .

فقد كان المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت يعانى من الضعف والتفكك السياسى ، فمنذ أواخر القرن التاسع الميلادى كان عهد قوة الدولة الإسلامية الكبرى ، التى شيدها العباسيون الأول قد ولى ، وأخذت هذه الدولة تعانى من الأنحلال السياسى ، وما ترتب على ذلك من ضعف (٢) . اذ تجزأت خلافة العباسيين إلى دويلات متنافسه ، كما ضعفت سلطة الخلفاء المركزية . فقد تغلبت العناصر الفارسية على الجزء الشرقى من الدولة العباسية ، وقام السمانيون فى الجزء الشرقى من بلاد فارس واتخذوا من بخارى وسمرقند عاصمتين لهم ، وحكموا فترة شملت معظم القرن العاشر الميلادى (٩٠٣ —

---

(1) Schlumberger, Un Empereur Byzantin, p. 39.

(٢) هناك مصادر عديدة يمكن الرجوع إليها للاستفادة منها فى هذا الموضوع ، ومنها على سبيل المثال ، مسكويه : تجارب الامم ، جـ٢ ، ص ٨٤ ومابعدها (نشر اميروز ، القاهرة ، ١٩١٥) ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٠٣ — ١٠٤ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٤٠٠ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، مواضع متفرقة وقد عالج الاستاذ الدكتور عمر كمال توفيق هذا الموضوع بافاضة فى كتابه مقدمات العدوان الصليبى صفحات ٤٧ — ٥٧ .

٩٩٠ م) . كما استطاع البويهيون الشيعة تأسيس اسرة فارسية اخرى ، حكمت الجزء الغربى من بلاد فارس ، واخضعت بغداد والعراق ، واستمرت فى الحكم من سنة ٩٤٥ إلى سنة ١٠٥٥ م (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) . حقيقة ان امراء هذه الأسرة لم يقضوا على حكم بنى العباس، الا ان امور الدولة كافة أصبحت فى أيديهم ، حتى غدا تنصيب الخلفاء وعزلهم ، بل وقتلهم طوع رغبتهم ، وقد أحسن المؤرخ البيروتى حين قال « ان الدولة والملك قد انتقل من آل العباس إلى آل بويه ، والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية انما هو أمر دينى اعتقادى، لا ملكى دنيوى». (١) وقد كان لظهور العناصر الفارسية البويهية على مسرح الحوادث السياسية واستحواذهم على السلطة فى العراق ، آثاره السيئة على المشرق الإسلامى ، اذ ان محور اهتمام هذه العناصر كان بلاد فارس والأقاليم التابعة لها ، ولم يكترثوا بشئون الشرق الأدنى ، كما انهم لم يعملوا على القضاء على أخطر المشاكل التى يتعرض لها والخاصة بتغلغل النفوذ البيزنطى وزحفة المستمر على الأقاليم الحيوية فى هذه المنطقة ، والجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط .

يضاف إلى ذلك عوامل اخرى أدت إلى اضعاف الخلافة العباسية ، وصرفت انتباه اولى الأمر بها عن مواجهة البيزنطيين ، منها العداء الذى اشتد بين اتباع مذهبى السنة والشيعة الذين قويت شوكتهم بعد سيطرة البويهيين الشيعة على الأمور فى بغداد (٢) . كذلك الإنقسام العنصرى الذى قام بين الجند من الاتراك والديلم ، وماترتب عليه من نتائج خطيرة للغاية (٣) .

---

(١) البيروتى : الآثار الباقية ، ص ١٣٢ .
(٢) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٤١ .
(٣) بشأن الصراع بين الاتراك والديلم فى العراق ، انظر ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٤٢— ١٤٥ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ١٥٢ ومابعدها ، شكيب ارسلان : المختار من رسائل الصابى ، ص ١٠ . راجع كذلك :
Canard, Histoire de la Dynastie des Hamdanides, pp. 557—560.

وفى وسط هذه الظروف نجح الحمدانيون فى اقتطاع امارة أو دويلة خاصة بهم فى اقليم الجزيرة شمال العراق ، واتخذوا من مدينة الموصل عاصمة لهم ، واستمرت هذه الأمارة من سنة ٩٢٩ م / ٣١٧ ه إلى سنة ٩٩١ م / ٣٨١ ه . وقد عانت هذه الأمارة هى الأخرى من الأضطرابات السياسية ، التى كان اهمها ، الصراع العنيف الذى قام بين الحمدانيين حكامها وبين البويهيين المسيطرين على الأمور بالعراق ، وكانت اسباب ذلك الخلاف ترجع إلى أن الحمدانيين كانوا يرون انفسهم أحق بحكم العراق من البويهيين نظرا لأصلهم غير العربى ، ومن ناحية اخرى وجد ناصر الدولة بن حمدان حاكم امارة الموصل ، فى تغيير الحكام فى العراق فرصته للتخلص من دفع الجزية السنوية التى كان يؤديها لأمير الأمراء التركى الذى كان مسيطرا على شئون الحكم فى بغداد قبل انتقال السلطة إلى ايدى البويهيين. ومن هنا قامت الحروب بين الطرفين واستمرت لفترة طويلة من الزمن.(١)

وبالنسبة لمصر ، فقد سيطرت عليها الدولة الأخشيدية واستقلت بها ، وحكمتها فى الفترة من ٩٣٥ — ٩٦٩ م / ٣٢٣ — ٣٥٨ ه . وقد حرص الاخشيديون على ضم الشام الى حكمهم وتحقيق الوحدة بين القطرين على النحو الذى حدث فى فترات متعددة من العصور التاريخية المختلفة ، غير انهم سرعان ما اصطدموا فى الشام بالحمدانيين الذين انتقل فرع منهم فى سنة ٣٣٣ ه / ٩٤٤م إلى الشام تحت قيادة سيف الدولة الحمدانى ، وانتزع من الأخشيديين بعض ممتلكاتهم فى الشمال وهى حلب وقنسرين وانطاكية وشيزر واللاذقية وحماة ،

---

(١) فيما يتعلق بالخلاف بين البويهيين والحمدانيين ، انظر ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١١٠ — ١١١ ، ١١٥ . انظر ايضا ،

Canard, op. cit., pp. 512—560.

وحمص ، لذلك فقد قامت الحروب بين الأخشيديين وهذا الأمير الحمدانى (١)

وبتأسيس سيف الدولة لهذه الامارة فى شمال الشام ، أصبح عليه بحكم الموقع الجغرافى لأمارته ان يواجه البيزنطيين ، والواقع انه لم يدخر جهدا فى مقاومتهم وقد أمضى طوال فترة حكمه ٣٣٣ – ٣٥٦ هـ / ٩٤٤ – ٩٦٧ م فى صراع دائم معهم ، وحالفه الحظ فى ذلك وخاصة فى الفترة المبكرة من حكمه وخانه كذلك فى كثير من الأحيان ، غير ان ذلك لم يثن من عزمه على مواصلة هذا الصراع (٢) . لكن سيف الدولة لم يكن فى موقف يحسد عليه ، اذ عانى الكثير من المتاعب التى كان اهمها ضعف امكانيات امارته ، كما كان عليه ان يعمل حساب جيرانه المسلمين المنافسين له ، وخاصة الأخشيديين فى جنوبى دولته ، الذين ظلوا يحاولون استعادة ممتلكاتهم القديمة . وفى نفس الوقت كان على سيف الدولة ان يكبح جماح امرائه الذين أرادوا الخروج عليه والأستقلال بأقطاعاتهم (٣) :

وفيما يتعلق بكريت ، فالواقع اننا لانعلم شيئا عن الأحوال الداخلية بها ، وعما إذا كان الضعف والاضطراب السياسى الذى شمل الشرق الأدنى الإسلامى

---

(١) يوجد تفصيلا لهذه الحروب فى المراجع التالية :
ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، جـ١ ، ص ١١١ – ١١٩ .
سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٣٤٩ – ٣٥٢ . راجع كذلك ،
Canard, op. cit., pp. 576—583.

(٢) بشأن تفاصيل الصراع بين سيف الدولة والبيزنطيين انظر ، مسكوية : تجارب الامم ، المجلد الثانى ، جـ٦ ، ص ١٢٥ ومابعدها ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ٦٩ ومابعدها (طبعة باريز) .

(٣) انظر تفاصيل حركات التمرد التى قامت ضد سيف الدولة فى المصادر التالية :
يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٢١ – ١٢٣ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٧١ – ٧٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، جـ١ ، ص ١٤٨ – ١٤٩ .
راجع كذلك : Canard, op. cit., pp. 648—651.

قد اصابها هى الأخرى ام لا ، غير انه مما لاشك فيه أنها لابد وأن تكون قد تأثرت بظروف الشرق الأدنى نظرا لاتصالاتها الوثيقة ببلدان هذا الاقليم ، وعلى الأقل يكفى أنها فقدت المساعدة العسكرية فى المجال البحرى من جانب هذه البلاد ، تلك المساندة التى ظهرت بشكل واضح منذ أواخر العقد السابع من القرن التاسع الميلادى ، واستمرت قائمة خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، والتى كان لها اثرها الكبير فيما احرزته كريت آنذاك من انتصارات على البيزنطيين . وهكذا اصبح من المتوقع الا تستطيع كريت الصمود وحدها امام الدولة البيزنطية وقوتها الناهضة . حقيقة ان المسلمين بكريت قد استطاعوا فى المرحلة المبكرة من الفتح الإسلامى للجزيرة الوقوف وحدهم فى وجه البيزنطيين ، إلا اننا يجب أن نعلم ان بيزنطه وقتها كانت تعانى من الضعف بعد الظروف العصيبة التى مرت بها ، ولم تكن على نفس المستوى من القوة الذى كانت عليه أثناء عهد الأسرة المقدونية .

وهكذا سيطر الضعف والأنحلال السياسى انحاء المشرق الإسلامى ، فى الوقت الذى أصبحت فيه الإمبراطورية البيزنطية فى أوج قوتها وعظمتها ، بعد أن اثمرت جهود الأباطرة المقدونيون منذ حكم مؤسس الأسرة باسيل الأول فى أقامة بيت امبراطورى ثابت الأركان ، وجعل الدولة البيزنطية أقوى دولة فى الشرق (١) . وكانت الأمور آلت إلى الإمبراطور رومانوس الثانى Romanus II اثر وفاة والده قسطنطين السابع فى ٩ نوفمبر ٩٥٩ م . وكان رومانوس آنذاك لايتجاوز العشرين من عمره ، وسيما ، ذا مواهب فكرية ، تلقى قدرا كبيرا من التعليم ، لكنه لم يبد اهتماما كبيرا بتصريف شئون الحكم بل تركها فى يد زوجته ثيوفانو Theophano ووزيره القدير جوزيف

---

(١) انظر الفصل الثالث من هذا البحث ص ١٤٥ .

يرينجاس Joseph Pringas وقد حرص الأثنان على الأرتباط بعلاقات الود مع معظم ملوك وامراء ذلك العصر . فأرسلا بالمبعوثين اليهم لتحقيق ذلك الغرض (١) . والظاهر انهما كانا يهدفان من وراء ذلك إلى تكريس الجهود العسكرية البيزنطية من اجل استرداد كريت ، فلم تمض سوى شهور قليلة على بداية حكم رومانوس الثانى ، حتى شرع المسئولون البيزنطيون فى الأعداد لمحاولة جديدة لفتح كريت .

وقد روى اخبار هذا الفتح البيزنطى لكريت عدد غير قليل من المؤرخين البيزنطيين من بينهم ، الماجستر سيميون (٢) ، وصاحب صلة ثيوفان (٣) ، وكيدرينوس (٤) ، وزوناراس (٥) . على ان اكثر ماجاء عنه من تفاصيل هو ما أورده المؤرخان المعاصران ليون الشماس فى مؤلفه المعروف بإسم تاريخ ليون الشماس Leonis Diaconis Historiae (٦) ، وثيودوسيوس الشماس فى ملحمته المسماه « فتح كريت » وهى باليونانية (٧) .أما المصادر العربية فلم تذكر شيئا عن تفاصيل فتح كريت ، وان كان المؤرخ النويرى قد عرض لهذا الموضوع ، إلا انه لم يتوخ الدقة فيما ذكره من تفاصيل هذا الفتح فقد روى ان فتح الجزيرة تم بناء على خدعة احتال بها الإمبراطور رومانوس الثانى — الذى ذكره باسم ارمانوس — على امير كريت عبد العزيز

(1) Theophanes Continuatus, pp. 468—469.

راجع ايضا :

Ostrogorsky, op. cit., p. 251; C.M H., vol IV, p. 68.

(2) Symeon Magestri, pp. 758—760.

(3) Theophanes Continuatus, Liber VI, pp. 473—478.

(٤) كيدرينوس ، ص ص ٣٤٠ — ٣٤١ . باليونانية .

(5) Zonaras, Liber XVI, pp. 490—492.

(6) Leonis Diaconis Historiae, Liber 11, pp. 5—28.

(٧) تيودوسيوس الشماس ، فتح كريت ، ص ص ٢٦٣ — ٣٠٦ . باليونانية .

بن شعيب (١) . ولنستعرض ماذكره النويرى فى هذا الشأن ، قال « . . . . فأقبل الملك ارمانوس إلى عبد العزيز بن حبيب صاحب جزيرة اقريطش ، وتقرب اليه بالهدايا والتحف ، واظهر له المودة والمحبة ، فلما استحكمت الوصلة بينهم وتأكدت ، انفذ ارمانوس رجلا من المسلمين ومعه هدنة جليلة فلما حضر بين يدى صاحب اقريطش وقدم الهدنة قال له ، الملك يسلم عليك ويقول لك نحن جيران وأصدقاء وهؤلاء المساكين سكان الجزاير قوم ضعفاء فقراء ، وقد خلا اكثرها من خوفك وقلوبهم تحن إلى اوطانهم ، ولى فى ذلك بهم راحة وفايدة ، فان خف عليك ان تحسب مايحصل لك من غزوهم فى كل عام ، وانا اضاعفه لك اضعافا ، وتؤمهم وترفع عنهم الغزو وتفسح لهم السفر إلى جزيرتك ويتوجه التجار اليك ويحصل لك من الحقوق اضعاف مايحصل لك من الغزو ، فأجابه إلى سؤاله ، وتحالفا وتصالحا واتفقا على مال يؤدى فى كل عام . فوفى له ارمانوس بجميع ذلك ، وألزم التجار بالسفر إلى اقريطش والقسطنطينية وجميع الجزاير ، فكثرت اموال صاحبها وأخذ فى

---

(١) ذكره النويرى باسم عبد العزيز بن حبيب ، على أن الأصح هو عبد العزيز بن شعيب ، لان والده كان يدعى شعيب بن ابى حفص . اما المصادر البيزنطية فقد ذكرته باسماء مختلفة فأطلق عليه الماجستر سيميون اسم كوربهCurope ، وذكره صاحب صلة ثيوفان ، و كيدرينوس وزوناراس باسم كوروباس Curoupas ، والواقع انه لاتوجد اية صلة بين اسمه كما ورد فى المصادر البيزنطية والاسم الحقيق له ، وأن كان المؤرخ الفرنسى شلومبرجيه قد ارجع اسم كوروباس إلى انه تحريف للقب البيزنطى «قربلاط» Curopalate بمعنى «عميد القصر». انظر المصادر التالية :

ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢٣٦ .

Symeon Magistri, op. cit., p. 759; Theophanes Continuatus, p. 477; Zonaras, p. 491.

كيدرينوس ص ٣٤٠

راجع ايضا :

Schlumberger, un Empereur Byzantin, p. 75, F.N. No «1»

رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٩١ .

جمع الأموال ، واختصر فى الطعآ (العطاء) للجند . ثم وقع بالقسطنطينية قحط وغلاء ، فانفذ الملك إلى صاحب اقريطش رسولا يقول ، قد وقع بالبلاد ماتصل بك من الجدب ، ولنا خيل برسم التاج تعز علينا ، فان رأيت ان تنفذها إلى الجزيرة ، وما نتجت من الذكور تكون للملك ، ومانتجت من الأناث فهو لك ، فأجاب إلى ذلك ، فأرسل إلى الجزيرة خمسميئة فرس فى المراكب ومعها رعاتها ، فلما استقرت الخيل بالجزيرة عبى العساكر على تلطف واستخفا ، وقدم عليها بحضور الدمستق وامجاد رجاله ، وذلك فى غرة المحرم سنة خمس (١) وثلثميئة ، فدخل الأسطول إلى الجهة التى فيها الأفراس وترك كل فارس بسروجه ولجامه ، فاجؤا اهل الجزيرة على غرة وغفلة فملكوها وقتلوا صاحبها ومن معه من الجند ، وعفوا عن قتل الرعية ، ووجدوا الأموال التى كانوا بذلوها مضاعفة فاخذوها وسبوا نساء الأجناد ودرار يهم وسحبوها (وشحنوها) بالعدد والأجناد»(٢) .

والواقع ان هذا النص لايمكن الأخذ به لمجانبته للحقائق التاريخية التى وصلتنا من أكثر من مصدر بيزنطى وعربى على النحو الذى سيتضح فى ثنايا هذا الفصل . يضاف لذلك أنه لم ترد أية اشارة فى أى مصدر سواء كان عربيا أو بيزنطيا إلى صلح أو تحالف تم بين كريت وبيزنطه فى عصر رومانوس الثانى كما يدعى النويرى . ثم أن الفترة الزمنية التى تقع بين تولى رومانوس الثانى للعرش البيزنطى فى ٩ نوفمبر ٩٥٩م ،وتاريخ وصول الحملة البيزنطية امام كريت

---

(١) المقصود سنة خمسين وثلاثمائة ، وهو التاريخ الذى أتفقت عليه غالبية المصادر ، انظر على سبيل المثال ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ٨٤ (طبعة باريز) ، ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٢) النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب ، جـ٢٢ ، لوحات ٢٤١ - ٢٤٢ . مخطوط مصور بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية برقم ٢٢ م .

فى يوليه ٩٦٠ م ، وهى فترة لاتزيد عن تسعة اشهر ، هذه الفترة لاتتيح تحقيق كل ماذكره النويرى خاصا بدفع بيزنطة « الجزية السنوية » لأمير كريت ، واتصال التجارة بين البلدين ، وامتلاءخزينة امير كريت بالأموال تبعا لذلك ، وغير هذا وذاك من التفاصيل التى اوردها النويرى فى هذا الشأن واخيرا فقد ذكر النويرى انه قد تم قتل امير كريت عبد العزيز بن شعيب على يد القوات البيزنطية ، لكن الثابتفى المصادر العربية والبيزنطية انه لم يقتل وانما أسر بعد ان قام بجهود عظيمة فى الدفاع عن الجزيرة (١) وانه حمل مع ابنائه إلى القسطنطينية حيث تم تشهيره هناك وبقى بها حتى وفاته (٢) . وهكذا يصبح من العسير التسلم برواية النويرىالخاصة بالفتحالبيزنطى لكريت ويتحتم علينا الأعتماد اساسا على المصادر البيزنطية التى روت اخبار الفتح بكافة تفاصيلها .

لقد اسندت قيادة الحملة الجديدة المرسلة لأخضاع كريت إلى القائد نقفور فوقاس ، وكان هذا فى الواقع اختيارا موفقا ، لما امتاز به نقفور من صفات عديدة ، جعلته من اكفأ القادة البيزنطيين ، فهو ينتمى إلى عائلة من اكبر العائلات الإقطاعية فى آسيا الصغرى ، وكانت عائلته تمتلك أراضى واسعة فى اقليم قبادوقيا على طول الحد الإسلامى ، وقد انخرط معظم رجالها فى السلك الحربى وخدموا الإمبراطورية زمنا طويلا ، وأبلوا بلاءا حسنا فى الحروب التى خاضوها ضد اعدائها ، فان جده الذى يعرف بأسم نقفور ايضا حاز شهرة كبيرة بفضل ماقام به من أعمال جليلة فى ايطاليا وصقلية فى عصر الإمبراطور باسيل الأول ، وقام عمه ليو بأعمال مجيدة فى أثناء الحروب ضد

---

(١) انظر نفس هذا الفصل ، ص ٢٦٣ . راجع كذلك :
The Encyclopedia of Islam, vol I, London 1913, p. 879.

(2) Symeon Magistri, pp. 759—760.
انظر ايضا ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢٣٦ .

البلغار ، اما والده بارداس فقد بلغ ارفع الوظائف العسكرية بفضل جهوده الحربية الطويلة ضد المسلمين على الجهة الشرقية للإمبراطورية (١) ، . وحين بلغ بارداس مرحلة متأخرة من العمر ، اعفي من منصبه وحل محله ابنه الماجستر نقفور فوقاس كقائد عام (دمستقا) للقوات البيزنطية فى آسيا الصغرى (٢) .

وقد عرف عن نقفور مهارته فى القتال ، لذا فقد تعلق به الجنود إلى حد كبير ، وعن هذا الطريق استطاع ان يخوض بهم تلك المعارك الناجحة ، وعلى الأخص ضد المسلمين الذين كان تحطيم قوتهم العسكرية اقرب الأشياء إلى نفسه حتى اطلق عليه المعاصرون اسم « الموت الأبيض للمسلمين »(٣) وإلى جانب الصفات العسكرية التى امتاز بها نقفور فوقاس ، فقد حاز صفات اخرى مثل الصرامة والخشونة والتقوى وميله الشديد لمصاحبة النساك ورجال الدين ، كما عرف عنه شدة الزهد والتقشف ، حتى قيل انه كان لاينام إلا على جلد نمر يفترشه فى أرض حجرته . وفى عبارة موجزة فقد اجتمع فى نقفور صفة الجندى وصفة الراهب فى آن واحد (٤) .

(1) Schlumberger, un Empereur Byzantin, p. 41; C.M.H., vol IV, p. 69. راجع كذلك ، عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوقاس ، ص ص ١٤ — ١٥ .

(٢) كان ذلك أثناء مباشرة الامبراطور قسطنطين السابع لمهام الحكم فى الامبراطورية البيزنطية (٩٤٤ — ٩٥٩ م) انظر :

Symeon Magistri, p. 758; Theophanes Continuatus, p. 40.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 253.

(٤) عمر كمال توفيق : نقفور فوقاس واسترجاع الاراضى المقدسة ، ص ص ١٥ — ١٦ ، راجع ايضا :

Schlumberger, Un Empereur Byzantin au diieme Siécle, Nicephore Phocas, pp. 40—42, Finlay, History of the Byzantine Empire, p. 507; Ostrogorosky, History of the Byzantine State, p. 253; Rambaud, Etude sur L histoire Byzantine, p. 227; C.M.H., vol V, p. 70; Oman, The Byzantine Empire, pp. 228—230.

وهكذا كان نقفور فوقاس من ابرز رجال بيزنطة ، ومن أقدر المحاربين الذين هيأتهم الظروف لهذه الدولة فى تلك الفترة من تاريخها ، لذلك فقد وقع الأختيار عليه ليتولى قيادة الحملة البيزنطية الموجهة ضد كريت بشقيها البرى والبحرى.

لقد كانت هذه الحملة البيزنطية الجديدة المرسلة لأخضاع كريت ذات استعدادات برية وبحرية ضخمة ، وتكونت القوات البرية من خيرة جنود الثيمات البيزنطية الأوروبية والآسيوية ، فضمت مقاتلين من سهول تراقيا وجبال مقدونيا واهالى قبادوقيا وليكونيا والبونت ، كما اشتركت فيها عناصر متعددة مثل الأرمن والصقالبة والبجناك والخزر والروس (٢) . ولم يذكر المؤرخون البيزنطيون عدد القوات المقاتلة فى هذه الحملة ، وان كانت بعض المصادر العربية قد ذكرت ان هذه القوات بلغت اثنين وسبعين الف مقاتل من بينهم خمسة آلاف فارس (٣) .

أما القوات البحرية فقد تم جمعها من الثيمات البحرية البيزنطية مثل التراقيسيون وساموس وكبير هايوت ، وانفرد المؤرخ البيزنطى الماجستر سيميون من بين المؤرخين البيزنطيين والمسلمين ، بذكر اعداد السفن التى اشتركت فى هذه الحملة ، والتى بلغت ٣٣٦٠ سفينة مابين كبيرة وصغيرة منها الف من نوع الدرمونة ، والفان شلندية ، ٣٦٠ سفينة لنقل المؤن والخيل(٤) وقد يكون فى هذه الأعداد بعض المبالغة ولكنها تدل على ضخامة استعدادات هذه الحملة . وقد تجمعت كل هذه الأعداد الكبيرة من السفن امام القسطنطينية

---

(1) Symeon Magistri, p. 758.

(2) Diaconus, Liber I, p. 7.; Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 476.

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢٣٦ :

(4) Symeon Magistri, p. 758.

وفى يوم الرحيل (١) ، وعند شروق الشمس تم الاحتفال بتوديع الحملة . وقد ازدحمت كل المساحة الواسعة من المياه الواقعة بين القرن الذهبى من ناحية وكريسوبوليس وخلقيدونية من الناحية الأخرى بسفن الأسطول المتعددة الألوان ، كما ازدحمت القصور وشرفات المنازل الواقعة على الشاطىء بالجماهير التى جاءت لتوديع الحملة . وعلى رصيف ميناء بوكوليون Boucolion وهو الميناء الخاص بالأمبراطور والملحق بالقصر الإمبراطورى ، جلس الإمبراطور رومانوس الثانى على عرش من المعدن الثمين أعد خصيصا لهذه المناسبة ، ومن خلفه جلس بطريك القسطنطينية واصحاب المناصب العليا فى الدولة من الاكليركيين والعلمانيين وأعضاء السناتو ، وقد ارتدى الجميع افخر الثيات الموشاه بالذهب ، ومن خلفهم جلست زوجات رجال الدولة كل بحسب منصب زوجها . واخذت الهتافات تتعالى بينما الصلوات تقام فى جميع كنائس العاصمة ، والمرتلون ينشدون الأناشيد الدينية ويبتهلون إلى الله ان يهب النصر لهذه الحملة ، ثم ساد الصمت ونزل البطريرك حيث بارك سفن الأسطول ، ووقف الإمبراطور واعطى اشارة بدء تحرك الحملة ، وبينما الأسطول يأخذ طريقه فى مياه البروبونتيز متجها إلى كريت ، كانت هتافات الجماهير تدوى من كل ناحية (٢).

---

(١) لم تحدد المصادر اليوم الذى تم فيه رحيل الحملة إلى كريت تحديدا دقيقا ، وقد ذكر المؤرخ الفرنسى شلومبرجيه أن هذا اليوم يقع بين الايام الاخيرة من شهر يونيه ٩٦٠ م أو الايام الأولى من شهر يولية من نفس السنة . وأغلب الظن أن هذا الترجيح صحيحا خاصة وأن المؤرخ يحيى الانطاكى قد ذكر أن نقفور وصل أمام كريت فى النصف من جمادى الأول سنة ٣٤٩ هـ وهو يوافق منتصف شهر يوليه ٩٦٠ م . أنظر ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ٨٤ (طبعة باريز) .

Schlumberger, Un Empereur Byzantin, p. 67.

(2) Schlumberger, Un Empereur Byzantin, pp. 67—68.

وقد وصلت القوات البيزنطية امام جزيرة كريت فى منتصف يوليو ٩٦٠ (منتصف جمادى الأول ٣٤٩ ﻫ) (١) ، ويذكر كل من صاحب صلة ثيوفان ، وليون الشماس ، وكيدرينوس ، ان القوات البيزنطية استطاعت النزول إلى ارض الجزيرة دون أن تصادف الكثير من المصاعب ، غير انهم لم يحددوا مكان نزول هذه القوات تحديدا دقيقا ، ولم نعثر فى المصادر الأخرى على مايفيد فى هذا الشأن . وعلى الفور امر نقفور بفرض الحصار البحرى على الجزيرة ، فتفرقت سفن الأسطول وأحاطت بها من جميع الجهات ، لتحول دون وصول أية مساعدات عسكرية اليها من المسلمين فى الشام ومصر وشمال افريقية والأندلس (٢) .

وقد بدأ نقفور العسكرية على ارض الجزيرة ، بأن ارسل كتيبة من الكشافة بقيادة الأستراتيجوس باستيلاس Pastilas ، حاكم ثيم التراقيسيون وهو واحد من اقدر القادة فى الحملة كلها ، وكانت مهمة هذه الكتيبة استطلاع مدى الإمكانيات العسكرية للمسلمين ، لكن الروس وباقى العناصر البربرية التى اشتركت فى هذه المهمة الأستطلاعية ، اخذت بمارأته من غنى الحقول فى الجزيرة ووفرة خيراتها ، فانشغلوا بجمع هذه الخيرات ، وبعد أن توغلوا إلى داخل الجزيرة ، هاجمهم المسلمون على حين غرة ، وابادوا افراد الكتيبة اما قائدها باستيلاس فقد أخذوه اسيرا (٣) . وقد كان لهذا الحادث اسوأ الأثر فى نفس نقفور فقرر توجيه ضربة كبيرة وحاسمة للمسلمين بكريت ،

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ٨٤ ، (طبعة باريز) .

(2) Theophanes Continuatus, p. 476; Leon Diaconus, pp. 7—8;

(٢) كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٣٤٠ .

(3) Leon Diaconus, pp. 8—10.

وذلك بحصار مدينة الخندق ذاتها عاصمة الجزيرة . ويذكر المؤرخون البيزنطيون ان الجيش البيزنطى سار خلال اقليم مزدهر بالمحاصيل الزراعية واشجار الفاكهة حتى وصل إلى الخندق ، ففرض عليها حصارا قاسيا من البر بينما احاطت بها سفن الأسطول من البحر (١) .

أما مدينة الخندق التى كانت هدفا لهذا الحصار ، فهى تقع على الساحل الشمالى لجزيرة كريت ، إلى الشمال الشرقى من جبل ايد العظيم ، وتحميها من جهة البحر صخرة ضخمة شديدة الأرتفاع ، هيأت للمدينة الحماية الطبيعية من هذه الجهة ، اما الجهات الاخرى فحمتها اسوار (٢) منيعة مرتفعة ، على درجة كبيرة ن الأتساع حتى كان اتساعها يسمح بأن تسير فوق قمتها عربتان من عربات الحرب فى وقت واحد . وقد شيد المسلمون فوق هذه الأسوار ابراجا حصينة اذهلت الجنود البيزنطيين المشتركين فى الحملة . كما احاط بالمدينة خندق دائرى ضخم حفره المسلمون حولها منذ بداية فتحهم الجزيرة فى عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، واستمر قائما حتى ذلك الوقت. وقد بذل امير كريت عبد العزيز بن شعيب جهدا كبيرا فى تقوية وسائل الدفاع عن المدينة والجزيرة بصفة عامة ، ومنع تزويد البيزنطيين بأية مؤن (٣) .

على أن جماعة من المسيحين من اهالى كريت ، قد اضطلعوا بدور هام فى هذا الصراع البيزنطى الإسلامى ، فقاموا باتلاف المحاصيل الزراعية ، وقطع اشجار الفاكهة ، واحراق القرى الإسلامية ، حتى يضار المسلمون

(1) Leon Diaconus, p. 11.

(٢) ذكر المؤرخ البيزنطى ليون الشماس ، أن حوائط هذه الاسوار ليست من الطوب وأنما من الطين المخلوط بشعر الماعز والخنازير حتى يزيد من تماسكها . انظر ،

Leon Diaconus, p. 11.

(3) Leon Diaconus, p. 12.

بهذا الحصار ، كما طافوا بالمدن والقرى فى انحاء الجزيرة ، يثيرون الأشاعات المغرضة ويحثون على الاستسلام (١) . ولم توضح المصادر الأسباب التى دفعت المسيحين بكريت إلى اتيان مثل هذه التصرفات المعادية للمسلمين ، وان كانت هناك اشارة اوردها المؤرخ البيزنطى جينزيوس عند تعرضه لفتح المسلمين لكريت ، ذكر فيها ان الفاتحين المسلمين قد خصصوا مدينة واحدة من الجزيرة للمسيحين لكى يمارسوا فيها شعائرهم الدينية ، ولم يسمحوا لهم بالأختلاط بهم (٢) . ويفهم من ذلك ان المسيحيين بكريت قد عاشوا منبوذين فى ظل الحكم الإسلامى لهذه الجزيرة . على انه من العسير التسليم بهذا الادعاء ، مع ماعرف عن المسلمين بصفة عامة من التسامح الدينى مع اهالى الذمة (المسيحيين واليهود) فى البلاد المفتوحة . ولكى نفهم هذا التصرف من جانب المسيحيين بكريت ، يجب ان نعلم ان الدين المسيحى كان فى النهاية صلة ربط بين هؤلاء الكريتيين المسيحين والدوالة البيزنطية ، خاصة وان العوامل الرئيسية التى كانت مثار نزاع بين مسيحيى كريت وبيزنطه عند الفتح الإسلامى للجزيرة (٣) كانت قد انتهت منذ امد بعيد وذلك بعودة بيزنطة إلى الخط القويم للأرثوذكسيه فى عام ٨٤٣ م (٤) .

ومهما كان الأمر ، فحين اشتد الحصار على المسلمين بكريت ، أخذوا فى الأستغاثة بالقوى الإسلامية فى المشرق ، وقد انفرد المؤرخ الشيعى النعمان من بين المؤرخين المسلمين والبيزنطيين على السواء ، بالأشارة إلى سفارة ارسلها امير كريت عبد العزيز بن شعيب إلى الدولة الأخشيدية لطلب المساعدة

(1) Ibid, p. 12.

(2) Genesius, p. 47.

(٣) انظر الفصل الاول من البحث ص ص ٦٨-٧١.

(٤) انظر الفصل الثانى من هذا البحث ، ص ١٣٣ .

العسكرية (١) . وكان كافور هو المسيطر على الأمور بمصر آنذاك لكنه لم يبد اهتماما يذكر لأجابة هذا الرجاء ، ولم يوضح النعمان اسباب ذلك ، ولكن من المحتمل ان يكون السبب هو الأضطراب الذى ساد مصر وقتذاك بسبب الصراع من اجل السلطة بين صاحب الحق الشرعى فى الحكم وهو ابى القاسم اونوجور بن محمد بن طغج الأخشيدى (٣٣٤ - ٣٤٩ ﻫ / ٩٤٦ - ٩٦٠م) والوصى عليه كافور ، وما ادى اليه ذلك من انقسام بين الجند بمصر ، اذ انضم فريق إلى كافور عرفوا باسم الكافورية ، وانضم فريق آخر إلى اونوجور عرفوا بالأخشيدية (٢) ، وكان هؤلاء الاخيرون يدينون بولائهم المباشر للإخشيديين ، ومن ثمة لم يكن لكافور عليهم اى سلطان ، فاذا رغب فى اغاثة اهالى كريت كان عليه ان يرسل بجنده الكافورية فيفقد بذلك السند الذى يعتمد عليه فى مواجهة الصراع مع الإخشيديين فيسهل حينئذ ابعاده عن الحكم .

ولكن العامة بمصر ثاروا ، وأعلنوا عن سخطهم لعدم اتخاذ السلطات الحاكمة موقفا ايجابيا بشأن نجدة اخوانهم اهالى كريت . ورغبة من كافور فى كسب ولائهم وتأييدهم ، انزل عدة سفن إلى البحر وتظاهر بأنه يعدها للابحار إلى كريت واغاثة اهلها (٣) . ولم يكن ذلك فى واقع الأمر اكثر من مظاهرة سياسية لتهدئة الموقف المتوتر .

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، لوحة ٤١٦ ، مخطوط مصور ، موجود بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٦٠٦٠ .

(٢) للمزيد من المعلومات عن هذا الصراع ، انظر :
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى اخبار مصر و القاهرة ، جـ٣ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ ، جـ٤ ، ص ٢ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٧ . راجع ايضا : سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، ص ٤١٧ .

اما الأمير سيف الدولة بن حمدان حاكم امارة حلب بشمال الشام (٣٣٣ – ٣٥٦ هـ / ٩٤٤ – ٩٦٧ م) فقد ارسل جيشا على رأسه امير طرسوس لنجدة المحاصرين بكريت (١) . ولم توضح المصادر ماذا كان ذلك جاء نتيجة لأستغاثة اهالى كريت بسيف الدولة ، ام انه كان تصرفا تلقائيا منه بوصفه الزعيم الأول وحامل لواء الجهاد ضد البيزنطيين فى المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت ، وتحقيقا لسياسته فى هذا المجال ، وامتدادا لمبدأ التعاون بين الشام وكريت هذا المبدأ الذى سار عليه الطرفان منذ الشطر الثانى من القرن التاسع الميلادى(٢) على ان هذه المحاولة باءت بالفشل ولم تحقق هدفها ، اذ ان قوات ثيم التراقيسيون اعترضت طريق امير طرسوس واجبرته على العودة من حيث اتى (٣) .

وحين وجد اهالى كريت انهم لن يحصلوا على مساعدة جدية من مسلمى المشرق ، ولوا وجوههم شطر المغرب الإسلامى ، وقد انفرد المؤرخ البيزنطى صاحب صلة ثيوفان من بين المؤرخين البيزنطيين بذكر السفارة التى أرسلها الكريتيون إلى الأندلس ، والسفارة الثانية التى بعثوا بها إلى شمال افريقية لطلب المساعدة العسكرية (٤) أما المؤرخون المسلمون فلم يشر احد منهم إلى السفارة الكريتية للأمويين بالأندلس ، أما سفارتهم إلى الخليفة المعز بشمال افريقيا ، فقد أشار اليها ابن الأثير اشارة سريعة (٥) ، على حين انفرد المؤرخ الشيعى النعمان بسرد تفاصيلها (٦) .

---

(1) Schlumbergei, Un Emperour, p. 82; Diehl et Marcais, le mond orientale., p. 462.

(٢) انظر الفصل الثالث من هذا البحث ص ١٧٤ وما بعدها .

(3) Schlumberger, op. cit , p. 82.

(4) Theophanes Continuatus, op 477

(٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٧ ، ص ٥ .

(٦) النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، ص ٤١١ – ٤٢٣ .

وقد ارسل عبد الرحمن الناصر (ربيع الأول ٣٠٠ – رمضان ٣٥٠ هـ / ديسمبر ٩١٢ – نوفمبر ٩٦١ م) امير الأندلس ، رسولين إلى مدينة الخندق لاستطلاع مدى حاجة اهاليها للمساعدة(٤). لكن لم يرد بالمصادر ذكر لأية مساعدة ارسلها الأمويون إلى كريت ، وقد ارجع المؤرخ الفرنسى شلومبرجيه السبب فى ذلك إلى احكام نقفور فوقاس للحصار البحرى على الجزيرة بشكل لم يسمح للأمويين باختراق هذا الحصار (٢). على انه من العسير التسليم بهذا الرأى، بعد ماثبت من ارسال الدولة الفاطمية بمساعدات عسكرية لكريت تمكنت من النزول على ارض الجزيرة بالفعل (٣) . والراجح ان الأمويين لم يكونوا صادق العزم على مساعدة كريت ، ويبدو انهم لم ينسوا ان مسلمى كريت هم من سلالة الأندلسيين المشاغبين الخارجين على الطاعة ، اصحاب ثورة الربض . يضاف إلى ذلك ، ان المشاكل الداخلية التى عانى منها الأمراء الأمويون إلى جانب تباعد الحدود بين الأمويين والبيزنطيين ، كل ذلك ادى إلى ابتعاد الأمويين عن خضم الصراع الدائر بين البيزنطيين والمسلمين فى المشرق .

اما التجاء اهالى كريت إلى الخلافة الفاطمية الشيعية فى المغرب ، رغم انهم كانوا يدينون بالولاء السياسى للخلافة العباسية ويعتنقون المذهب السنى (٤) فهذا امر على جانب كبير من الخطورة ، نظرا لما سيترتب عليه من تغيرات سياسية ومذهبية خاصة بامارتهم . ويذكر المؤرخ الشيعى النعمان ، ان اهالى كريت لم يلجأوا للخليفة الفاطمى المعز لدين الله الا بعد أن « علموا انه ليس

---

(1) Schlumberger, Un Empereur Byzantin, p 82.

(2) Ibid, p. 82.

(٣) انظر ص ص ٢٥٧–٢٦٠ من هذا الفصل .

(٤) النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، ص ٤١٢ .

عند بنى العباس صح نهضة » (١) ، فهل معنى ذلك ان اولى الأمر بكريت استنجدوا بالعباسيين ولم يجدوا منهم استجابة ، أم انهم ادركوا بثاقب نظرهم وتفهمهم لحقيقة الأوضاع فى الدولة العباسية انهم لن يحصلوا على مساعدة جدية من جانبها ، فاتجهوا للخليفة المعز مباشرة ، ودون ان يبذلوا محاولة فعلية للأستغاثة بالعباسيين .

الواقع انه لم يرد بالمصادر سواء العربية أو البيزنطية اية اشارة إلى التجاء الكريتيين إلى الخلافة العباسية بشأن طلب نجدتهم من المحنة التى يتعرضون لها ، والغالب انهم لم يقوموا بمحاولة مافى هذا الشأن ، والا لكان المؤرخون المسلمون وخاصة المشارقة منهم قد تعرضوا لها ، خاصة وان بعضهم مثل ابن الاثير قد اشار إلى سفارة الكريتيين إلى الخليفة المعز بالمغرب ، وكان الأحرى به ان يذكر سفارتهم إلى العباسيين ان كانت قد حدثت بالفعل .

وعلى أية حال ، فقد ارسل الكريتيون إلى الخليفة المعز بشمال افريقية ، سفارة على رأسها احد وجهاء كريت ، واخذ اعضاء هذه السفارة يتضرعون إلى الخليفة المعز لدين الله ويسألونه اغاثتهم ونجدتهم ، ووعدوه بأن أهالى كريت سيدينون له بالولاء بعد انتصارهم على الدولة البيزنطية ، كما اخذوا فى اظهار مميزات جزيرتهم واحتوائها على الخيرات والمعادن ، وشهرتها فى انشاء الأساطيل ، كما اوضحوا له ان قرب جزيرتهم من مصر مما يهيىء له فتحها فى المستقبل ، وكانت هذه لمحة ذكية صدرت من هؤلاء الرسل نظرا لحساسية موضوع مصر بالنسبة للخلافة الفاطمية ، التى كانت تسعى جاهدة لفتحها (٢) كذلك فقد اخذوا يؤكدون له ان قرب المسافة بين كريت والقسطنطينية

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، ص ٤١٢ .

(٢) انظر محاولات الفاطميين فتح مصر فى ص ص ٢٢٧-٢٦٨ من هذا الفصل .

سوف يتيح للفاطميين اتخاذها قاعدة لعملياتهم العسكرية ضد العدو البيزنطى وماسيكون لذلك من اثر فى كسب الرأى العام الإسلامى إلى صفهم وتأليبه على الدولة العباسية التى تتقاعس عن حمايتهم ونصرتهم (١) وقد استجاب لهم الخليفة المعز ، ووعدهم بأرسال النجدات اليهم « فى اول وقت الإمكان من الزمان »(٢) واحتجز رئيس الوفد ، إلى أن يعود إلى كريت مع الأساطيل الفاطمية ، وأمر بأرسال رسولين من قبله إلى أهالى كريت لاخبارهم بعزمه على اغاثتهم واستنقاذهم من محنتهم (٣) . وقد برر الخليفة المعز أن استجابته هذه انما الغرض منها « القيام بما أوجب الله تع علينا من الجهاد لعدونا ، واستنقاذ من اناب الينا من امة جدنا ، ونصرتهم ومعونتهم (٤) . » على انه مما لاشك فيه ان الخليفة المعز وجد فى تلبية مطالب اهالى كريت مايحقق آماله الواسعة فى مد نفوذه إلى المشرق الإسلامى ، لأن من يستولى على هذه الجزيرة يسهل عليه حينئذ فتح مصر والبلاد الواقعة على الساحل الشرقى للبحر المتوسط كذلك وهو ماكان يهدف اليه الفاطميون .

وقد شرع الخليفة المعز على الفور فى اتخاذ الخطوات الإيجابية بشأن مساعدة اهالى كريت ، وأمر بأعداد الأساطيل لهذا الغرض ، ثم أرسل كتابا إلى الإمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى ، الذى كان مرتبطا معه بهدنة (٥) ، اخبره فيه بعزمه على الوقوف بجانب أهالى كريت واغاثتهم ، وانذره بنقض

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ٤٢١ .
(٢) النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ٤٢٣ .
(٣) النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، ص ٤٢٢ .
(٤) نفس المصدر : جـ٢ ، ص ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .
(٥) تم إبرام هذه الهدنة فى اوائل عهد الامبراطور رومانوس الثانى ، وكانت مدتها خمس سنوات ولم يكن أجلها قد انتهى بعد ، انظر ، النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، ص ٤١١ .

الهدنة المعقودة بينهما ، اذا استمرت القوات البيزنطية فى حربها ضد الكريتيين واختتمه بقوله : « وعهدك اذا تماديت على حرب من أناب الينا منبوذ اليك فانظر لنفسك ولأهل ملتك ، فانا مناجزوك وأياهم الحرب ، بعون الله وتائييده ، ولاحول ولاقوة الا به (١) »

كذلك أرسل الخليفة المعز لدين الله كتابا (٢) إلى كافور الاخشيدى ، المسيطر على الأمور فى مصر يطلب منه توحيد كلمة المسلمين وتظافرهم على عدوهم لأعزاز دين الله ، كما طلب منه كذلك ، عدم التقاعد عن نصرة اهالى كريت ، خاصة وان دعوتهم واحدة ، والصلات بينهما كثيرة نظرا لقرب المسافة بين مصر وكريت ، وفى النهاية عرض عليه التعاون معا لنجدة اهالى كريت ، بأن يرسل الأساطيل المصرية لتجتمع بالأساطيل الفاطمية فى مرسى طنبة من ارض برقة لأقتراب هذا المرسى من جزيرة كريت . وقد تعهد الخليفة المعز لكافور بعدم الحاق اى اذى بالأساطيل المصرية ، فقال موضحا ذلك « . . . وان تخشى على من تبعث به وعلى مراكبك منا . فلك علينا عهد الله وميثاقه ، انا لانكون معهم الا بسبيل خير ، وانا نحلهم محل رجالنا ونجعل ايديهم مع ايدينا ، ونشركهم فيما افاء الله علينا ، ونقيمهم فى ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام اساطيلنا حتى يفتح لنا ان شاء الله ثم ينصرفوا اليك على ذلك ، او يكون من امر الله وقضاءه ماهو فاعله ، فاعلم ذلك ، وثق به منا ، ففى تظافر المسلمين على عدوهم ، واجتماع كلمتهم اعزاز لدين الله ، وكبت لأعداءه ، فقد سهلنا لك السبيل ، والله على مانقول وكيل . »

(١) انظر النص الكامل لهذا الكتاب مع التعليق عليه ، فى الملحق رقم (٣) من هذا البحث .
(٢) انظر نص هذا الخطاب مع التعليق عليه فى الملحق رقم (٤) من هذا البحث .
(٣) النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، ص ٤١٦ .

ولكن يبدوا أن كافور لم يثق فى تأكيدات الخليفة المعز ، بالأضافة إلى ماسبقت الأشارة اليه من المشاكل الداخلية التى عانت منها مصر آنذاك (١) . لذلك لم تلق دعوة المعز أية استجابة ، اذ لم يرد بالمصادر اشارة ما إلى قيام تعاون بين كافور والفاطميين بشأن كريت ، ولهذا فقد اضطلع الفاطميون بالمهمة وحدهم . ففى اشارة اوردها ابن الأثير يفهم منها ان الخليفة المعز ارسل بالفعل قوات لنجدة الكريتيين (٢) . غير انه لم يمدنا بأية معلومات عن اعداد هذه القوات او تفاصيل المعركة بينها وبين القوات البيزنطية .

وان كان ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين قد اغفلوا تفاصيل هذه المعركة ، الا ان المصادر البيزنطية قد اوردت بعض المعلومات اليسيرة عنها ولكنها تمتاز بقيمتها وأهميتها ، فقد روت هذه المصادر انه بعد وصول القوات الفاطمية إلى كريت اتحدت مع قوات المسلمين بها ، وسار هذا الجيش الذى بلغ تعداده اربعون الف مقاتل للهجوم على المعسكر البيزنطى ، لكن اثنين من المرتدين إلى الدين المسيحى من اهالى كريت ، تسللوا واخبروا نقفور فوقاس بالخطط التى اعدها الجيش الإسلامى ، وعلى الفور اتخذ نقفور جانب المبادرة

---

(١) انظر ص٢٥٣ من هذا الفصل .

(٢) قال ابن الاثير فى حوادث سنة ٣٥١ هـ «وفيها سار جيش من الروم فى البحر إلى جزيرة اقريطش ، فأرسل أهلها إلى المعز لدين الله العلوى صاحب افريقية يستنجدونه ، فأرسل اليهم نجدة ، فقاتلوا الروم ، فانتصر المسلمون ، واسر من كان بالجزيرة من الروم .» وواضح أن الامر التبس على ابن الاثير فى تأريخه للحملة البيزنطية على كريت ، اذ ذكره فى حوادث عام ٣٥١ هـ (فبراير ٩٦٢ - يناير ٩٦٣ م) ، والمعروف أن هذه الحملة قد حدثت فى صيف عام ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) . كما التبس عليه الامر كذلك فيما ذكره خاصا بنتائج المعركة بين المسلمين والبيزنطيين إذ تؤكد الحقائق التاريخية انتصار البيزنطيين فى هذه المعركة وغيرها من المعارك التى اسفرت عن فتحهم للجزيرة ، انظر ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص٥

وقام بمفاجأة القوات الإسلامية بالهجوم عليها ، فشتت شملها ، وقتل العدد الاكبر منها (١).

وهكذا فشلت المحاولة التى قام بها الفاطميون لأنقاذ كريت من قوات الاحتلال البيزنطى ، ولم تأت المصادر بشىء عن محاولات أخرى قامت بها الدولة الفاطمية فى هذا المجال ، ويبدو ان الخليفة المعز رأى من الأفضل عدم المغامرة بقواته وأساطيله فى محاولات اخرى غير مضمونة النتائج ، خاصة وانه كان فى أشد الحاجة لهذه القوات لاستخدامها فى فتح مصر .

وبعد ان احرز نقفور فوقاس هذا الأنتصار العسكرى ، قام بمحاولـــة نفسية لارهاب المدافعين عن اسوار مدينة الخندق واهاليها وادخال الرعب إلى قلوبهم ، فأمر بجمع رؤوس القتلى المسلمين ، بعد أن آثار حماسة رجاله لهذه العملية الوحشية بدفع قطعة فضية لكل جندى يأتى له برأس قتيل مسلم ، وبعد أن تجمعت لديه اعداد كبيرة منها ، أمر بألقائها إلى داخل المدينة (٢) .

على ان المعسكر البيزنطى بدأ يعانى من شدة البرد فى فصل الشتاء من عام ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ ، وكذلك من قلة المؤن ، خاصة وان القحط فى تلك السنة كان عاما بالنسبة لبلاد الشرق . لكن الوزير البيزنطى برينجاس بذل جهودا مضنية حتى تمكن من ارسال المؤن اللازمة إلى المعسكر البيزنطى وذلك فى اوائل عام ٩٦١ م / ٣٥٠ هـ كما ارسل نجدات عسكرية أخرى بقيادة ليون فوقاس شقيق نقفور (٣) .

---

(1) Leon Diaconus, pp. 13—14.

(2) Ibid, pp. 14—15

(3) Ibid, p. 24; Zonaras, p 491.

وتذكر المصادر قيام المسلمين بكريت بمحاولة ثانية للهجوم على المعسكر البيزنطى ، ومصدرنا الرئيسى فى هذا الموضوع هوثيودوسيوس الشماس ، إذ عرض فى الفصل الثانى من ملحمته وصفا لهذا الهجوم الذى قامت به قوات من الكريتين المسلمين بلغ عددها ١٥٠٠ فارس و ٣٦ ألف مقاتل من المشاه . وقد وصلت أنباء عزم المسلمين على القيام بهذا الهجوم إلى نقفور فوقاس عن طريق الجواسيس من أهالى الجزيرة المسيحيين ، فأجتمع هو الآخر بجنوده والهب حماسهم بخطبة ألقاها عليهم ، وأوضح فيها خططه لملاقاة هذا الهجوم ، وفى ختام حديثه ، تعالت الهتافات من جانب الجنود بحياة الامبراطور رومانوس الثانى والد الشعب ، وجددوا العهد لنقفور بالموت فى سبيل النصر (١)

وفى اليوم (٢) الذى حدده المسلمون للهجوم ، اتخذ امير كريت عبد العزيز بن شعيب مكانه على برج مرتفع على سور مدينة الخندق لكى يقود المعركة بنفسه من هذا المكان ، وفتحت بوابات المدينة ، فاندفع المقاتلون المسلمون لمهاجمة المعسكر البيزنطى ، وحسب خطة نقفور ، تظاهر الجنود البيزنطيون بالفزع ، واخذوا يفرون امام قوات المسلمين ، التى انخدعت واخذت فى مطاردتهم ، وبعد أن تفرقت وتشتت شملها ، اطبقت عليها القوات البيزنطية من كل مكان وأوسعتها تقتيلا ، فتزاحم افراد القوة الإسلامية عائدين إلى داخل المدينة ، ولما رأى امير كريت كثرة عدد الفارين منهم ورغبة منه فى ارغامهم على القتال ، امر باغلاق بوابات المدينة ، وكان ذلك مما زاد فى عدد القتلى المسلمين إلى درجة خطيرة ، فلم يجد بدا من فتح البوابات مرة اخرى لأنقاذ البقية الباقية منهم (٢) .

---

(١) انظر كتاب ثيودوسيوس الشماس وهو باليونانية ، ص ص ٢٨٣ — ٢٨٦ .

(٢) لم يذكر ثيودوسيوس الشماس تاريخ هذه المعركة ، ولم يرد بالمصادر الاخرى شئ عن هذا التاريخ .

وبعد هذه المعركة حدثت بعض المناوشات المتقطعة بين الطرفين تخللت عملية الحصار وكان ذلك فى اوائل عام ٩٦١ م . وفى يوم ٧ مارس ٩٦١ م / المحرم ٣٥٠ هـ ، قام البيزنطيون بهجوم كبير على مدينة الخندق ، كلل بالنجاح واسفر عن فتح هذه المدينة الحصينة . ففى صباح ذلك اليوم طاف الدمستق نقفور فوقاس محاطا بالقادة ورجال الدين واخذ فى تقويه عزائم جنوده ، ثم اعطى اشارة البدء بالهجوم ، فشرع الجنود فى وضع آلاتهم الحربية على الأماكن التى وقع عليها الاختيار من السور واخذوا فى رجها بقوة ، كما امطروا المدافعين عن الأسوار بوابل من السهام والحجارة والنيران الإغريقية ، وبذلك نجح البيزنطيون فى عمل ثغرة كفلت لهم العبور خلالها إلى داخل المدينة ، فتدفقوا اليها كالاعصار حيث قاموا بقتال السكان من ركن إلى ركن ومن منزل لآخر ، ووقعت مذبحة مروعه قتل فيها جيش نقفور النساء والشيوخ والأطفال العزل من السلاح ، وقد افاض المؤرخ البيزنطى ثيودوسيوس الشماس فى وصف هذه المذبحة ، وصور الأطفال المسلمين وهم يبكون امهاتهم وهم يرونهن يلقين حتفهن امام اعينهم ، أو مكبلات فى الأسر يسومهن الجنود البيزنطيون الوان العذاب . على ان شباب المسلمين من ابناء الخندق سرعان ما جمعوا انفسهم وصمموا على القتال ورد البيزنطيين ، فاشتبكوا معهم فى معارك ضارية اوقعوا بهم خلالها خسائر كبيرة فى الأرواح ، ففزع البيزنطيون واخذوا يفرون من المدينة عائدين إلى معسكرهم ، وحين لمس نقفور مدى فزعهم قفز بفرسه إلى داخل المدينة واخذ يهدىء من روعهم ، ويحثهم على معاودة القتال ، وكان لذلك أثره فى رفع معنوياتهم من جديد ، والانتصار على آخر مقاومة أبداها المسلمون فى مدينة الخندق (١) .

---

(١) ثيودوسيوس الشماس : فتح كريت ، ص ص ٢٩٢ — ٣٠٠ ، باليونانية .

وبسقوط مدينة الخندق العاصمة ، استسلمت باقى مدن الجزيرة ،فقدمت الوفود الاسلامية من هذه المدن تعلن لنقفور الاستسلام وتطلب الامان. وبعد أن اطمأن إلى استسلام الجزيرة كلها ، قام بتنظيم الادارة بها فعين لحكمها أحد أتباعه ، الذى اتخذ لقب استراتيجوس Strategus ، رأس مجموعة كبيرة من الموظفين الاداريين . هذا ، ولم يجد البيزنطيون أفضل من مدينة الخندق لاتخاذها عاصمة للجزيرة ، وقد شيد نقفور على ربوة مرتفعة إلى جوارها قلعة حصينة اطلق عليها اسم تيمنوس Temenos ، وامتازت هذه القلعة بالحصانة والمناعة وبكثرة الاخاديد والأنهار المحيطة بها . وقد زود نقفور هذه القلعة بحامية من الجنود الارمن والبيزنطيون ، كما زود الجزيرة كلها بقوات عسكرية كبيرة لحراستها ، بعد أن عادت كريت من جديد موقعا بيزنطيا متقدما للامبراطورية لصد غارات مسلمى شمال افريقية وآسيا الصغرى (١) .

وقد سارع نقفور بأرسال نبأ فتح جزيرة كريت إلى الامبراطور البيزنطى رومانوس الثانى ، الذى أمر بإذاعته رسميا على الشعب ، فتقبلته الجماهير بفرح بالغ ، وحظى نقفور فوقاس بشعبية كبيرة ، وأطلقوا عليه لقب «الظافر» كالينيكسوس Kallinixos ، وقد ارسل اليه الامبراطور رومانوس يستدعيه إلى القسطنطينية للاحتفال بهذا الفتح العظيم الذى تم على يديه ، فلبى نقفور الدعوة ، وعاد إلى العاصمة مصحوبا بالأسرى المسلمين من وجهاء كريت ، وعلى رأسهم حاكمها السابق الامير عبد العزيز بن شعيب وابنائه(٢) ويقال أن نقفور حمل معه إلى القسطنطينية من الاموال والاسرى نحوا من

---

(1) Leon Diaconus, p 28

(2) Leon Diaconus, p 28; Zonaras, p. 492.

انظر كذلك كتاب ثيودوسيوس الشماس وهو باليونانية ، ص ٣٠٢ .

ثلاثمائة مركب (١) . وقد تم الاحتفال فى بيزنطة بهذا الانتصار حسب التقاليد المتبعة آنذاك (٢) .

وقد تم اول هذه الاحتفالات فى « الهيبودروم (٣) » حيث استعرض الأسرى امام الإمبراطور والإمبراطورة ورجال البلاط وعامة الشعب ،وفى وسط التراتيل والهتاف احضر الأمير الأسير ووجهاء دولته ، وشهروا فى الهيبودروم ، ثم أمسك دمستق القوات الاسكلارية بالأمير المغلوب واضطره للركوع امام الإمبراطور ، الذى رفع قدميه ووضعهما فوق رأس خصمه ، ثم أتى بعد ذلك موكب الأسرى والغنائم من الخيول والجمال ومختلف انواع الاسلاب ، وتم استعراض ذلك كله فى موكب لانهاية له ، واثناء مرور الاسرى امام الإمبراطور كانوا يركعون ووجوههم إلى أسفل ، ثم قدم الجنود البيزنطيون وطرحوهم ارضا بينما المرتلون ينشدون انشودة تمجد انتصارهم على المسلمين بواسطة العدالة الالهية (٤) .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .

(٢) امدنا الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه «المراسم الامبراطورية» ، بصورة رائعة للتقاليد المتبعة فى الاحتفالات التى تقام فى العاصمة البيزنطية فى مثل هذه المناسبات ، وهى التقاليد التى لابد وانها اتبعت بحذافيرها دون أى تغيير ، نظرا لاقتراب عهدى قسطنطين السابع (٩٤٤ — ٩٥٩ م) وولده رومانوس الثانى (٩٥٩ — ٩٦٣ م) . وبشأن هذه التقاليد والاحتفالات انظر كتاب الامبراطور قسطنطين السابع «المراسم الامبراطورية» وهو باليونانية ، ص ص ٣٣٠ — ٣٣٣ .

(٣) الهيبودروم هو ميدان السباق ، وهو مبنى ضخم فسيح ، يتسع لجلوس مايقارب الاربعين الف شخص . وكان فى الامكان الوصول من القصر الامبراطورى مباشرة إلى المقصورة الامبراطورية فى هذا الميدان . وقد لعب الهيبودروم دورا هاما فى الحياة الاجتماعية والسياسية فى الدولة البيزنطية ، وللمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٤) انظر الترجمة العربية لهذه الانشودة مع التعليق ، فى الملحق رقم (٥) من هذا البحث .

وأعقب ذلك احتفال آخر مسرحه هذه المرة المحكمة الكبرى المسماه آجورا التى تقع فى قلب العاصمة البيزنطية ، بين القصر الإمبراطورى ، ومبنى السناتو والكنيسة الكبيرة سانت صوفيا ، وفى تلك الساحة الفخمة القائمة وسط مجموعة نادرة من الأعمدة الرخامية التى تحمل فى اعلاها تماثيل من الفضة للأباطرة والإمبراطورات ، ويتوسطها عمود ضخم فى اعلاه صليب كبير محلى بكتابات دينية منقوشة بالذهب ، جلس الأمبراطور رومانوس الثانى على المنصبة ، واتخذ بطريرك القسطنطينية مكانه خلفه ، بينما جلس على الجانبين الشخصيات الهامة فى الدولة ، ثم جاء الأسرى ، واخذ المرتل الإمبراطورى يرتل اهازيج النصر ، وبعد الأنتهاء من هذه التراتيل ، أمسك دمستق القوات الاسكلارية وكبار القادة فى الجيش والأسطول وحكام الولايات واصحاب المراكز الادارية الهامة فى الدولة ، امسك كل هؤلاء بالأمراء والوجهاء من الاسرى المسلمين ، وطرحوهم أرضا اسفل العمود الذى يحمل الصليب الكبير ، بينما ركع الحاكم المقهور عند قدمى الإمبراطور وألبسه الخف الأحمر ، اما باقى الاسرى فقد قاموا — بناءعلى أوامر حراسهم — بتمريغ انفسهم فى التراب ، بينما كانت جموع الشعب البيزنطى تهتف هتافات الانتصار .

بعد ذلك نهض الاسرى واميرهم عبد العزيز بن شعيب ، وتقهقروا ووجوههم نحو الإمبراطور ، حتى لايسيئوا إلى هيبته ، حيث انسحبوا إلى نهاية ساحة الأحتفال ، واتخذوا اماكنهم بها . ثم جاء رجال الحرس الإمبراطورى ، والمجدفين بالأسطول البيزنطى ، والمرتلين بالقصر ، الإمبراطورى ، ووقفوا امام الإمبراطور وعلى يمينه واختتموا الاحتفال بهذه

الابتهالات التي يقولون فيها « العمر المديد للأمبراطور ، العظيم جدا ، الشديد التقوى ، الدائم الانتصار ، الذى منحه الرب سنوات طويلة . العمر المديد للامبراطور المصطفى من الرب الذى يرشده المولى وسيرشده دائما . العمر المديد للإمبراطور ، الشجاع جدا ، الورع دائما . ابن الله ، احفظ ايـــام امبراطورنا استجب لنا ، امنحه حياه طويلة ، نمى ايمان المسيحيين ، نمى قوة الرومان وجيوشهم ، نمى عدد انتصاراتهم ، نمى شجاعة شعب المسيح نحن العبيد المخلصون للإمبراطور . العمر المديد للاوتوقراطور العظيم جدا ، الامبراطور الذى منحه المسيح حكما طويلا . مولانا ، اعطى مائة عام من الحكم الهادىء للإمبراطور التقى ».
وبانتهاء هذا اللحن ، انتهت احتفالات النصر ، ونهض الامبراطور من مكانه على المنصه واعتلى صهوة جواده ، وقفل عائدا إلى القصر الإمبراطورى ، بينما غادر جميع الحاضرين ساحة الأحتفال .

وفى الوقت الذى تلقى فيه البيزنطيون نبأ فتح كريت بكل هذا الفرح والأحتفال ، كان وقع نفس الخبر مختلفا تماما على الجماهير الإسلامية ، التى ما أن علمت به حتى صعقت وثارت وأعلنت عن سخطها . وقد ساق المؤرخ المسيحى يحيى الانطاكى – على سبيل المثال – صورة لما حدث فى مصر ، قال : « وورد الخبر بذلك (أى بسقوط كريت) إلى مصر يوم الجمعة لثمان خلون من السنة (٣٥٠ هـ) وهو يوم عيد العازر قبل الشعانين ، فتجمع فى الحال خلق من رعاع اهل مصر وعوامها ، وقصدوا ايضا كنيسة ميخائيل التى للملكية بقصر الشمع فشعثوها واخربوها خرابا عظيما ، ونهبوا جميع مافيها ، ونهبوا كنيستى النسطورية وكنيسة مارثاذرس ، وكنيسة مريم السيدة المعروفة بكنيسة البطريرك وشعثوها ايضا »(١) .

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ٨٤ – ٨٥ (طبعة باريز ١٩٢٤ م) .

ولكن ، رغم الغضب والسخط اللذين سادا بين جماهير المسلمين ، الا انهم لم يقوموا بأية محاولة من اجل استرداد كريت من قبضة البيزنطيين والواقع أن الظروف التي احاطت بالإمارات والدول الإسلامية المختلفة كانت هي المسئولة إلى حد بعيد عن هذا التهاون . فبالنسبة للخلافة العباسية ، فان احوالها السياسية لم تتح لها المشاركة في أي نشاط عسكري ضد العدو البيزنطي (١) اما الخلافة الفاطمية فكانت تستعد لمحاولة جديدة لفتح مصر ، هذا الفتح الذي استحوذ على اهتمامها ، ولم تسمح لأي شيء بان يباعد بينها وبين تحقيقه . وقد جرت محاولات سابقة في هذا السبيل ، كان أولها في عام ٣٠١ هـ (٩١٣ — ٩١٤ م) ، حين ارسل الخليفة الفاطمي المهدي جيشا من افريقيه ، وعهد بقيادته إلى ابنه ابي القاسم ، الذي نزل بالإسكندرية واستولى عليها ، كما استولى على الفيوم وعدة بلاد اخرى . ولكن الخليفة العباسي المقتدر ارسل اليه جيشا بقيادة مؤنس الخادم ، فحارب الفاطميين واجلاهم عن مصر ، فعادوا مهزومين إلى المغرب (٢) .

وقد اعاد الفاطميون المحاولة في العام التالي ٣٠٢ هـ (٩١٤ — ٩١٥ م) فارسل المهدي جيشا اخرا قوامه مائة ألف مقاتل ، على رأسه القائد حباسه بن يوسف ، وقد تمكن هذا الجيش من النزول بالأسكندرية ، حيث التقى بالجيش العباسي بقيادة مؤنس الخادم الذي انتصر عليهم بعد معارك متعددة قتل فيها من الفريقين اعداد كبيرة ، ويقال ان عدد القتلى من الجنود المغاربة بلغ سبعة الاف قتيل (٣) . وقد قامت الخلافة الفاطمية بمحاولتها الثالثة في عام

---

(١) انظر ص ص ٢٣٨—٢٤٠ من هذا الفصل .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ١٧١ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٦٦ ، ص١٤٧ ابن الابار ، : الحلة السيراء ، جـ١ ، ص ١٩٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٣ ، ص ٣٦٨ .

٣٠٦ هـ (٩١٨ — ٩١٩ م) ، وتمكن ابو القاسم بن المهدى قائد الجيش القاطمى من دخول الاسكندرية فى ربيع الآخر من عام ٣٠٧ هـ (سبتمبر ٩١٩ م) فوجدها خالية بعد أن هجرها اهلها ، فاستباحها وكتب إلى ابيــه الخليفة المهدى بالفتح ، وارسل ابوالقاسم احد قادته ويدعى سليمان بن كافى بالجيوش الفاطمية إلى الفيوم ، ففتحها بالسيف ، واقبلت العساكر من شمال افريقيا بعضها يتلو بعضا ، ثم انتقل ابو القاسم إلى الفيوم ونزل بالاشمونين فى رجب ٣٠٧ هـ (ديسمبر ٩١٩ م) . وجبى الاموال . لكن الخلافة العباسية ارسلت القائد ثمل بالأسطول الشامى ، فالتقى بالأسطول الفاطمى الراسى بمياه الاسكندرية وانتصر عليه ، وأسر العديد من المغاربة ، وبعد هذه الهزيمة عاد ابو القاسم بجيوشه إلى برقة ثم إلى بلاد المغرب (١) .

ورغم فشل هذه المحاولات ، الا ان الخلافة الفاطمية لم تفقد الأمل فى فتح مصر ، بل ظلت على اهتمامها بهذا الأمر ، وظلت تعبىء كل قواها العسكرية من اجل تحقيقه حتى تحقق بالفعل على يد القائد جوهر الصقلى ، وكان ذلك فى عام ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م (٢) .

اما فيما يتعلق بالخلافة الأموية بالأندلس ، فقد وجد لديها هى الاخرى من الأسباب ما أعاقها عن محاولة استرداد كريت ، ففى الوقت الذى تم فيه الفتح البيزنطى لهذه الجزيرة فى مارس ٩٦١ م (محرم ٣٥٠ هـ) ، كان الخليفة الأموى الناصر لدين الله يعانى من مرض خطير ألم به منذ صفر ٣٤٩ هـ (ابريل

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ١٩٦ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ١٦١ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ١٨١ — ١٨٣ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، نشر الشيال ص ١٤٨ ، ابن تغرى بردى : ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢٢٨ ابن ابى دينار : الخلاصة النقية ، ص ٥٨ الكندى : ولاة مصر ، ص ٣١٥ .

٩٦٠ م) ولم يبارحه الا بعد أن قضى عليه فى ٣ رمضان ٣٥٠ هـ (نوفمبر ٩٦١ م) (١) ، وقد خلفه ابنه الحكم بن عبد الرحمن الذى تلقب بالخليفة المستنصر ، وقد استلزم الامر أن يوجه هذا الخليفة جهوده فى بداية حكمه إلى توطيد مركزه وتثبيت أقدامه على العرش خصوصا فى بلد كان أهله دائمى الثورة والتمرد كالأندلس ، وتحقيقا لذلك قام بعدة غزوات فى الاقاليم الاندلسية المختلفة (٢) . ثم ألم بالبلاد قحط عام وأعقبه مجاعة كبيرة وذلك فى عام ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) شغل المستنصر بالقضاء عليها ومساعدة المحتاجين من جماهير شعبه (٣) . يضاف لذلك ماسبقت الاشارة اليه من أسباب تتعلق بتباعد الحدود بين الأمويين والبيزنطيين وماترتب على ذلك من ابتعاد الامويين عن المشاركة فى الصراع الدائر بين البيزنطيين والمسلمين فى المشرق (٤) ، لذلك كله فقد رأت الخلافة الأموية انه من الأفضل الاستمرار فى العلاقات الودية مع بيزنطة ، ومن مظاهر هذا الود ان الخليفة المستنصر ارسل إلى الامبراطور البيزنطى (٥) ، يطلب منه ارسال الفسيفساء التى يحتاج اليها لتزيين المسجد الجامع بقرطبة ، وقد استجاب له الإمبراطور على الفور ، وارسل اليه فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ثلاثمائة وعشرون قنطارا منها هدية مع أحد الصناع البيزنطيين المهرة . وبعد أن أدى هذا الصانع مهمته بنجاح عاد إلى بيزنطة

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٢٣ ، ٢٣٣ ، ابن الابار : الحلة السيراء ، جـ١ ، ص ١٩٧ .

(٢) بشأن تفاصيل هذه الغزوات انظر ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٣٤ – ٢٣٦ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٤) انظر الفصل الثانى من هذا البحث ، ص ص ١٢٢–١٣٢

(٥) لم يذكر ابن عذارى اسم الامبراطور الذى ارسله الخليفة الاموى المستنصر بالله ، وانما اكتفى بالاشارة إليه باسم «ملك الروم» ، وقد حدد ابن عذارى تاريخ وصول الفسيفساء التى ارسلها الامبراطور البيزنطى إلى الاندلس سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، والمعروف ان الجالس على العرش البيزنطى آنذاك كان الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ – ٩٦٩ م) .

« بعد أن أجزل له المستنصر الصلة والكسوه » ، وذلك على حد تعبير المؤرخ المغربى ابن عذارى (١) .

اما بالنسبة لمسلمى الشام ، الذين طالما تعاونوا مع اهالى كريت اثناء صراعهم مع الدولة البيزنطية وعلى الاخص فى النصف الثانى من القرن التاسع والنصف الاول من القرن العاشر الميلاديين ، فانه لم تتح لهم الفرصة للقيام بأى دور فعال فى العمل على استرداد كريت ، اذ عاجلتهم الدولة البيزنطيـة بضربات متلاحقة ، افقدتهم القدرة على توسيع دائرة الصراع معهاإلى خارج حدودهم الأقليمية . فبعد أن تم الاحتفال بانتصار البيزنطيين واستعادتهم لكريت ، تحرك نقفور فوقاس نحو المشرق لاستئناف الحرب مع المسلمين على الجبهة الشرقية للأمبراطورية . والواقع ان فتوحات نقفور فوقاس فى المشرق الإسلامى ، سواء وهو قائد ، او بعد اعتلائه للعرش الامبراطورى من الموضوعات الهامة التى تحتاج لمعالجة موضوعية كبيرة (٢) ، ونظرا لأنها ليست الموضوع الأساسى فى هذا البحث ، ولايتسع المجال لايفائها حقها من المعالجة ، لذلك فسنعرض لها بايجاز وتركيز شديدين يفيان بالغرض المقصود منها ، وهو ايضاح الظروف التى عرضت للمسلمين بالمشرق وقتذاك وحالت بينهم وبين العمل على استرداد كريت من يد البيزنطيين .

وجدير بالذكر ، أن معظم الجهود العسكرية لنقفور فوقاس قد تركزت فى هذه المرحلة فى قيليقية وشمال الشام ، وهى المناطق التابعة آنذاك لسيف الدولة بن حمدان ، حاكم امارة حلب ، وذلك رغبة منه فى كسر شوكة

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٢) من أحسن البحوث التى كتبت فى هذا الموضوع ، كتاب الاستاذ الدكتور عمر كمال توفيق «الامبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الاراضى المقدسة» الاسكندرية ١٩٥٩ .

هذا الأمير المسلم الذى حمل لواء الجهاد ضد البيزنطيين فى وقت شغل فيه كل حاكم من حكام المشرق الإسلامى بمشاكله وخصوماته مع جيرانه المسلمين ، عن مواجهة المشكلة الكبرى الخاصة بزحف النفوذ البيزنطى على هذه المناطق الحيوية .

ففى أواخر عام ٩٦١ م (٣٥٦ هـ) سار نقفور على رأس جيوشه ونزلوا بقليقية حيث هاجموا مدينة عين زربه ، وفرضوا الحصار عليها ، فأرسل سيف الدولة جيشا بقيادة والى طرسوس رشيق النسيمى لانقاذها من حصار البيزنطيين ، ولكن نقفور قضى على هذه الحملة وانزل الهزيمة بهذا الجيش ، ويقال ان عدد القتلى من المسلمين بلغ خمسة آلاف ، كما اسر البيزنطيون اربعة آلاف اخرى (١) . وواصل نقفور حصاره للمدينة حتى استسلم لـه الأهالى فى فبراير ٩٦٢ م (المحرم ٣٥١ هـ) ، بعد ان وعدهم بالأمان ، ثم نقض وعده ، وامرهم بمغادرة المدينة على الفور ، فلبوا اوامره (٢) . ويذكر ابن الاثير ان نقفور ظل واحد وعشرين يوما فى اقليم قيليقية استولى اثناءهـا على ٥٤ حصنا من حصون المسلمين (٣) . ثم سار نحو شمال الشام فاستولى على بعض الحصون مثل رعبان ودولوك ومرعش ومنبج (٤) ، وبعدها غادر نقفور اراضى المسلمين وعاد إلى العاصمة البيزنطية ليقضى بها فترة الصيـام وبعد رحيله شغل المسلمون باسترجاع كل مااستولى عليه من الحصون ، كما

---

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١١٨ (طبعة بيروت ١٩٠٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، فى تاريخ حلب جـ١ ضـ، ص ١٣٢ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢ .

(٤) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١١٨ (طبعة بيروت ١٩٠٥) ، ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ١ ، ص ١٣٢ . راجع ايضا :

C.M.H , vol V, p 83, pp. 144—145.

اعاد سيف الدولة بناء عين زربة بعد التخريب الذى لقيته على يد القوات البيزنطية (١) .

وفى ديسمبر من عام ٩٦٢ م (ذى القعدة ٣٥١ هـ) قام نقفور فوقاس بحملة جديدة على شمال الشام ، وكان هدفه هذه المرة مدينة حلب مقر سيف الدولة وعاصمة امارته ، ولم يكن سيف الدولة فى حالة استعداد تمكنه من منازلة البيزنطيين ، اذ كان قد ارسل غلامه نجا على رأس جيشه للأنقضاض على الجيش البيزنطى ، ولكن نجا سلك طريقا غير الطريق الذى سلكته القوات البيزنطية فلم يقدر له لقاءهم . لذلك اضطر سيف الدولة لمواجهة البيزنطيين فى معركة لم يستعد لها ، فحلت به الهزيمة وانسحب إلى قنسرين ، وقد استولى نقفور على قصر سيف الدولة وكان خارج مدينة حلب واستحوذ على جميع ماحواه القصر من ذخائر وأموال (٢) . ثم نزل نقفور بقواته على مدينة حلب وفرض الحصار عليها ، وقد أبدى الأهالى بها شجاعة نادرة فى الدفاع عن مدينتهم مما اضطر البيزنطيين إلى التقهقر والأنسحاب حتى جبل جوشن الذى يقع إلى غربى المدينة ، على ان الفتنة سرعان مااندلعت فى حلب ، فترك الأهالى اماكنهم على السور ولحقوا بمنازلهم ليحفظوها من النهب . وقد اتاح ذلك للبيزنطيين الفرصة كى يتسلقوا الأسوار ويفتحوا بوابات المدينة ويقتحموها حيث اعملوا الذبح والتقتيل فى الأهالى ، واستحوذوا على غنائم هائلة ، ثم انسحبوا منها بعد أن ظلوا بها لمدة ستة أيام ، لم ينجحوا خلالها فى الإستيلاء على القلعة التى ظلت بيد المسلمين ، وبعد مغادرة نقفور لحلب فى ٣١ديسمبر

---

(١) ابن االاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٥ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ١ ، ص ١٣٤ ، — ١٣٥ ، ابن مسكويه : تجارب الامم ، ص ١٩٥ ، حاشية رقم (١) ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١ ، ص ٣ .

٩٦٣ م (ذى القعدة ٣٥١ هـ) اتخذ طريقه إلى القسطنطينية ، وكان ذلك نهاية المرحلة الأولى فى سلسلة صراعه مع المسلمين فى الشام (١) .

وقد تطورت الأمور فى بيزنطه بشكل ادى إلى اعتلاء نقفور فوقاس للعرش البيزنطى ، ففى ١٥ مارس ٩٦٣ م ، توفى الإمبراطور رومانوس الثانى ، وخلف ولدين صغيرين هما باسيل الذى كان يبلغ من العمر آنذاك خمس سنوات ، وقسطنطين وكان فى الثانية من عمره . ولما كان لا بد من قيام وصى على الطفلين القاصرين ، يتولى تصريف شئون الإمبراطورية ، فقد طمع نقفور فى ان يكون هو ذلك الوصى ، ولم يلبث ان نادى به جنوده امبراطورا فى ٢ يوليه ٩٦٣ م ، فى مدينة قيصرية فى قبادوقيا ، ثم تم تتويجه بعد ذلك رسميا فى القسطنطينية . ولكى يؤمن نقفور منصبه ويضفى عليه الصبغة الشرعية ، تزوج من ارملة الإمبراطور الراحل ووالدة الإمبراطورين الطفلين الشابه الجميلة ثيوفانو Theophano (٢)

وقد أكمل الامبراطور نقفور فوقاس فتوحاته فى قيليقية وشمال الشام ، تلك الفتوحات التى بدأها وهو قائد ، ففى شهر يوليه من عام ٩٦٤ م (رجب ٣٥٣ هـ) قام بحملة على المسلمين استعاد خلالها مدينة عين زربة وفتح أدنه ثم انتقل إلى طرسوس والمصيصه فحاصرهما ونظرا لحصانة المدينتين فقد طال أمد الحصار ، ولما حل فصل الشتاء ترك نقفور شقيقه ليون فوقاس امام طرسوس وامره بالأستمرار فى حصارها ، كما ارسل بفصائل من الجيش

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ١ ، ص ١٣٧ ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١١٩ طبعة بيروت ، ابن مسكوية : تجارب الامم ، ص ١٩٢ - ١٩٣ ، ابن الاثير : الكامل جـ٧ ، ص ٣ .

(٢) عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوقاس ، ص ١٤ .

لتعزيز حصار المصيصة ومنع وصول اى مؤن او امدادات اليها ، اما نقفور فقد عاد إلى قلعةدروزو Diozio بآسيا الصغرى ليقضى بها فصل الشتاء (١) .
وفى ١٣ يونيه ٩٦٥ م (٧ جمادى الثانى ٣٥٤ هـ) ظهر نقفور من جديد فى قيليقية واتجه إلى المصيصة ونجح فى اقتحامها بعد أن انهكت المدينة من المجاعة وانتشار الأمراض (٢) . وقد تعرض اهاليها للقتل والأسر ، ويقال ان عدد الأسرى الذين ارسلهم نقفور إلى القسطنطينية من اهالى هذه المدينة بلغ نحو الف شخص (٣) . ثم انتقل نقفور إلى طرسوس واجتمع بشقيقه ليون وقواته وواصلوا حصارها ، فطلب اهلها التسليم فأجابهم نقفور إلى ذلك وعاملهم بلطف ثم امرهم بمغادرتها فلبوا أوامره (٤) .

وفى خريف عام ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) قام نقفور بحملة جديدة على المسلمين بالمشرق فهاجم بعض البلاد الجزرية وهى آمد ودارا ونصيبين وقتل وأسر الكثيرين من اهالى هذه البلاد ، ثم نزل على شمالى شرق الشام ، وحاصر منبج وطلب من اهلها تسليمه قرميدة السيد المسيح ، وحين اجابوه إلى طلبه رفع الحصار عنها ولم يعرض لهم بمكروه . واستولت قواته على قافلة واردة من ميافارقين ، ثم نزل على وادى بطنان واسر عددا من الأهالى ، وفتح تيزين وحصن ارتاح الواقع بين حلب وانطاكية ، وبذلك اصبح فى موقف يسمح

(١) كيدرينوس : ص ص ٣٦١ — ٣٦٢ . باليونانية .
Zonaras : Liber XVIII, pp. 501—502
(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ١٣ .
(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٣ ، ابن مسكويه : تجارب الامم ، جـ٢ ، ص ٢١١ .
(٤) كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣ . باليونانية .
Zonaras, p 502
انظر كذلك : ابن الاثير ، الكامل ، جـ٧ ، ص ١٣ ، ابن مسكوية : تجارب الامم ، جـ٢ ، ص ٢١١ .

له بتهديد البلدين . وقد اتجه نقفور اليها وحاصرها سبعة ايام خرب خلالها الأراضي المجاورة لها ، ثم رفع الحصار وعاد إلى القسطنطينية نظرا لاقتراب فصل الشتاء (١)

وقد استأنف نقفور عملياته العسكرية ضد المسلمين فى خريف عام ٩٦٨ م (٣٥٧ ﻫ) فخرج على رأس جيش كبير بلغ نحو ثمانين الف مقاتل وكان هدفه الرئيسى من هذه الحملة هو فتح مدينة انطاكية . وقد اتخذ نقفور طريقه فى ديار مضر، ونازل أرزن وكفرتوثا ونكل بأهالى هذه البلاد ، ثم اتجه إلى أنطاكية فابدى الأهالى بها مقاومة شجاعه ، اضطرت نقفور إلى الرحيل من أمامها بعد ان هددهم بالعودة والاستيلاء على مدينتهم ، ثم نزل على معرة مصرين واسرا هلها وفتح معرة النعمان وكفر طاب وشيزر وحماه وحمص واتجه إلى طرابلس على ساحل الشام ، وخرب اراضيها وحاصر مدينة عرقة وافتتحها ثم انتقل إلى البلاد الساحلية ففتح حصون انطرسوس ومرقيه وحاصر اللاذقية ، ولكن اهلها دفعوا اليه مبالغ كبيرة من المال وعقدوا معه صلحا مقابل رفع الحصار ، فأجابهم إلى طلبهم وعاد إلى انطاكية حيث فرض الحصار عليها (٢). ولما كان الشتاء وشيكا فقد رجع عن المدينة وأجل مهاجمتها للعام التالى ، وقام بتشييد حصن على مكان مرتفع فى مواجهة انطاكية وعهد إلى ميخائيل بورتزيس — وهو المعروف لدى المؤرخين المسلمين باسم البرجى — أمر الاشراف عليه ومراقبه انطاكية ، ومنع وصول اية مؤن او ذخائر حربية إلى اهاليها ، اما بقية الجيش البيزنطى ، فقد اسند قيادته إلى بطرس فوقاس

---

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٢٧ (طبعة بيروت) ، ابن الاثير : الكامل ، ج٧ ، ص ١٩ . راجع كذلك : عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوقاس ، ص ٢٧ — ٣٤ .

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٣٠ — ١٣١ ، انظر ايضا : عمر كمال توفيق . الامبراطور نقفور فوقاس ، ص ٣٥ — ٣٦ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٦٢ .

الذى يذكره المؤرخون المسلمون باسم الطربازى — وامره نقفور بأن يعسكر فى قيليقية لقضاء فترة الشتاء بها أما هو فعاد إلى القسطنطينية (١) واثناء مراقبة بورتزيس لأنطاكية سنحت له الفرصة للأستيلاء عليها ، وبمساعدة بطرس فوقاس تمكنت القوات البيزنطية من اقتحام المدينة فى ٢٨ اكتوبر ٩٦٩م (١٤ ذى الحجة ٣٥٨ هـ)(٢) . وكان ذلك آخر انتصار حققه نقفور فوقاس ، اذ لم يلبث أن لقى مصرعه فى ١٠ ديسمبر ٩٦٩ م على يد جماعة من المتآمرين على رأسهم يوحنا تزيمسكس ، الذى خلفه على عرش الإمبراطورية البيزنطية(٣)

وهكذا لم تترك الدولة البيزنطية للمسلمين فى المشرق ، الفرصة للعمل على استرداد كريت ، بل لاحقتهم بالحروب المستمرة ، التى اثقلت كاهلهم واخذوا يرزحون تحت وطأتها ، ويطلبون لأنفسهم الخلاص منها .

ومن هذا العرض للظروف التى ألمت بالقوى الإسلامية المختلفة فى انحاء العالم الإسلامى ، يتضح ان كل طرف من اطرافها قد شغل بمشاكله وظروفه المحلية ، مما اتاح الفرصة لبيزنطة لاحكام قبضتها على كريت ، وتأكيد سيطرتها عليها . وبذلك وضعت هذه الخاتمة المؤلمة للملحمة البطولة التى خط سطورها فئة من المسلمين اتخذوا من الجهاد فى سبيل الله طريقا لحياتهم .

---

(1) Zonaras, Liber XVIII, pp. 508—509

راجع كذلك .

Ostrogorsky, op cit., p. 257; Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantine p. 408.

(٢) كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ص ٣٦٦ — ٣٦٧ . باليونانية .

(٣) هذا وقد اكمل الامبراطور يوحنا تزيمسكس (٩٦٩ — ٩٧٥ م) الفتوحات البيزنطية فى المشرق الاسلامى ، فقام بعدة حملات فى هذا السبيل ، وبشأن التفاصيل الخاصة بها انظر ، عمر كمال توفيق مقدمات العدوان الصليبى ، «الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية الاسكندرية ، ١٩٦٦ .

الخاتمة



أستعرضنا فى هذا البحث الدور الذى قام به مسلمو كريت فى الصراع البيزنطى الإسلامى فى العصور الوسطى ، وفى تقييم هذا الدور يمكن القول أنهم ساهموا الى حد كبير فى القضاء على السيادة البحرية البيزنطية على الجزء الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، تلك السيادة التى استمرت قبل ذلك قرونا عديدة بلا منازع . كما ساعدوا كذلك على ارساء قواعد السيطرة البحرية الإسلامية على هذا الجزء الهام من عالم العصور الوسطى — ويؤكد المؤرخ أرشيبالد لويس هذه الحقيقة بقوله : «بدأ عهد جديد فى التاريخ البحرى البيزنطى فى البحر المتوسط باغارة المسلمين على صقلية ثم باستيلائهم على كريت عام ٨٢٧ م ، وانتهى بهذين الحادثين أيضا عهد العجز عن تحدى الإمبراطورية وأخذت السيطرة على البحر المتوسط تنتقل إلى المسلمين الذين انتشروا على الشواطىء الجنوبية لذلك البحر ، من جبال طوروس حتى جبال البرانس ولم يتم هذا التغيير كله دفعة واحدة ، بل ظلت لحكام القسطنطينية سيطرة على بعض القوات البحرية الهامة ، كما أنهم ظلوا يكافحون ببسالة ضد أعدائهم المسلمين فى شرق البحر وغربه . . . . . وحاولوا استعادة كريت بأرسال الحملة تلو الحملة لطرد القرصان المسلمين من ارض الجزيرة ، ولكنهم كانوا — فيما عدا فترات محدودة — فى موقف المدافع لا المهاجم ، كما أن ما أخفقوا فيه يرجح كثيرا ماحققوه ، وعلى هذا لم يأت القرن العاشر الميلادى الا وقد انتقلت السيادة الكاملة فى البحر المتوسط لاعدائهم المسلمين»(١)

والواقع أن الأثار المترتبة على استيلاء المسلمين على كريت لم تقتصر على البحار الشرقية وانما تعدتها إلى المساس بمركز بيزنطة فى الغرب ، فان انشغالها الدائم بموضوع كريت ، وما سببه لها المسلمون بها من مشاكل ومضايقات

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٢١١ .

مستمرة ، وعلى الأخص فى بحر ايجه ، كان من العوامل الهامة التى أدت إلى تعريض مركزها فى صقلية وجنوب ايطاليا للخطر ، اذ كان من العسير على بيزنطة أن تحارب أعداءها المسلمين فى الشرق والغرب فى وقت واحد. ليس ذلك فحسب ، بل لقد مست هذه الأثار كذلك علاقات الدولة البيزنطية بجيرانها البلغار والروس ، وقد مر بنا كيف استغل اولئك وهؤلاء الهزائم التى أوقعها مسلمو كريت بالدولة البيزنطية لكسب الإمتيازات على حسابها إلى حد استقطاع اجزاء من اراضيها (١) .

هذا ولم يؤثر وقوع كريت فى يد المسلمين على مركز بيزنطة السياسى فقط ، بل كانت له آثاره كذلك على مركزها الأقتصادى ، بعد أن فقدت هذه الجزيرة التى لعبت دورا هاما كطريق تجارى لنقل البضائع بين الشرق والغرب . ذلك أن طريق التجارة المألوف بين الشرق والغرب كان الطريق المار بكريت وقبرص وعلى طول الساحل الجنوبى لاسيا الصغرى . وهناك طريق آخر هو الطريق المباشر بين كريت والإسكندرية (٢) . وكانت بيزنطة تجبى مكوسا هائلة من السفن التجارية المارة بهذين الطريقين نتيجة لحصارها المحكم واشرافها الدقيق عليها ، وكان فى استطاعة القوة البحرية البيزنطية أن أن تقف فى وجه التجارة الذاهبة إلى المغرب أو إلى مصر وسورية وشمال أفريقية ، واذا أمكن لسفينة تجارية أن تفلت من هذا الحصار عند مكان ما ، فهناك اماكن اخرى يمكن منعها من الأفلات للمرة الثانية (٣) . وباستيلاء

(١) انظر الفصل الثالث من هذا البحث ص ص ٢٠١-٢٠٢ .
(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٤٢ .
(٣) لويس : نفس المرجع ص ١٤٢

المسلمين على كريت وسيطرتهم على المضايق البحرية الهامة ، انهارت السيادة البيزنطية على طرق التجارة فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، مما ادى إلى الاضرار بمركز بيزنطة الأقتصادية .

والجدير بالذكر ، أنه رغم الدور العظيم الذى قام به مسلمو كريت فى النضال ضد العدو البيزنطى لفترة تزيد على القرن من الزمن ، وما أنزلوه به من خسائر عسكرية واقتصادية ، الا أن عددا من المؤرخين وخاصة الغربيين منهم (١) ، قد حرصوا على اضفاء صفة القرصنة (٢) على الأعمال البطولية

(١) انظر المراجع التالية :

Brehier, Vie et mort de Byzance, p. 149; Finlay, History of Greece vol 11, p. 251; Schlumberger, Un Empereur Byzantin, p. 33; Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, tome I, p. 367; Bloy, Constantionople et Byzance, pp. 17—20.

راجع كذلك ، فازيلييف ، العرب والروم ، ص ١٨٧ ، لويس ، القوى البحرية البيزنطية ص ٢١١ ومابعدها .

هذا وقد تأثر بهم بعض المؤرخين المسلمين انظر على سبيل المثال : العرينى : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦٨ ، ص ٣٦٩ ، عصمت راشد : كريت تحت الحكم المصرى ص ص ١٦ ، ٢٤ و ٢٥ .

(٢) لقد انتشرت القرصنة فى حوضى البحر المتوسط الشرقى والغربى منذ منتصف القرن التاسع الميلادى ، وكانت جماعات القراصنة تتكون من جنسيات مختلفة ، فكان بينهم أعداد كبيرة من أهالى ايطاليا والبلقان وجنوبى فرنسا والمغرب ، وكانت الشواطئ الاوروبية للحوضين الشرقى والاوسط للبحر المتوسط حافلة بمراكز القراصنة المسيحيين الذين كانوا لايفرقون بين البلاد الاسلامية والمسيحية ، فكانوا يغزون سواحل الدولة البيزنطية وسواحل ايطاليا والاندلس ويروعونها ويقول المؤرخ الفرنسى ليفى بروفنسال : «وكانت مهاجمة السفن فى البحر وأسر من فيها ثم المساومة على فدائهم ، امر لا دخل فيه للملوك نصارى كانوا أو مسلمين ، ولم يكن هؤلاء وأولئك ليهتموا بنزول القرصان على شواطئ ممتلكاتهم إلا فى الحالات التى يصبح فيها هذا النزول خطرا على أراضيهم ، وكان لابد فى هذه الحالة أن يكون لديهم من القوة مايستطيعون به مدافعة أولئك الطغاة ولكن الغالب أن عبء هذه المدافعة كان ملقى على كواهل سكان الشواطئ أنفسهم» انظر مقالة الاستاذ الدكتور حسين مؤنس فى المجلة التاريخية المصرية تحت عنوان «أثر ظهور الاسلام فى البحر الابيض المتوسط» المجلد الرابع العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ص ١٢٨ . راجع كذلك عن القرصنة كتاب لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط مواضع متفرقة من الكتاب .

التى قامت بها هذه الفئة من المسلمين . ولا شك ان اصرارهم على ذلك لايخلو من روح التعصب ، اذ المعروف أن قراصنة المسلمين كانوا شيئا آخر غير المجاهدين الذين كانوا يغازون النصارى بدافع دينى (١) وكان مسلمو كريت من هذه الفئة الأخيرة ، أى فئة المجاهدين . فقد ثبت فى أكثر من موضع من هذا البحث مما رسمهم للجهاد ضد البيزنطيين ، يضاف لذلك أنهم قد مارسوا مع الدولة البيزنطية حربا بحرية وبرية منظمة لا يعرفها القراصنة (٢) . كما أنه لم يأت فى أى مصدر عربى أو بيزنطى اشارة إلى أية غارة قام بها المسلمون بكريت ضد ساحل من السواحل الإسلامية ، مثلما كان يفعل القراصنة المسلمون والمسيحيون الذين كانوا يغيرون على البلاد الإسلامية والمسيحية على السواء ، ودون تفرقة أو تمييز (٣) وكان هدفهم الأول والأخير هو الحصول على الغنائم والاسلاب ، لايهمهم مصدرها ، ولا لمن تنتمى ، وسواء أكان أصحابها ممن يتفقون أو يختلفون معهم فى العقيدة الدينية بل على العكس من ذلك ، قام المسلمون بكريت بدور المدافع عن السواحل الإسلامية فى شرقى البحر المتوسط ضد غارات البيزنطيين ، كما أنهم حرصوا على مساندة القوى الإسلامية المختلفة ، أثناء صراعها مع العدو البيزنطى (٤) .

وان كان هؤلاء المؤرخون المذكورون قد اتخذوا من أعمال التخريب والسلب والأسر التى قام بها مسلمو كريت فى الأراضى البيزنطية ، دليلا يبيح لهم نعتهم بالقراصنة ، فانه يمكن القول أن هذه الأعمال لاتتنافى مع احكام

---

(١) انظر مقالة الدكتور حسين مؤنس سالفة الذكر ، ص ١٢٧

(٢) انظر مثالا للحرب البحرية المنظمة فى الفصل الثالث من هذا البحث وهو الخاص بفتح مدينة سالونيك ومثالا آخر للحرب البرية المنظمة فى الفصل الرابع ، ص ٢٥٩

(٣) انظر مقالة الدكتور حسين مؤنس فى المجلة التاريخية المصرية ، ص ١٢٦ ، ص ١٢٨ .

(٤) تمت الاشارة فى الفصل الثانى من هذا البحث إلى اشتراك الاسطول الكريتى فى فتح صقلية ، انظر ص ١٠٦ .

الجهاد الإسلامى حيث أن الدين الحنيف قد أباح للمجاهد الاستيلاء على غنائم وأسلاب عدوه ، وهناك روايات عديدة تروى عن الرسول عليه السلام ، وكلها تبيح للمسلمين المجاهدين للحصول على الغنائم من أعدائهم (١) . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل المجاهد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله ، كمثل الصائم القائم ، وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة ،أو يرجعه سالما مع أجر وغنيمة»(٢) .

وهكذا يتضح أن الجهاد الدينى ، لا يتنافى مع اكتساب المغانم ، وتخريب المواقع ، وأسر الأعداء ، وان الحكم على هذه الأعمال يتوقف على وجهة النظر المتعصبة أو المنصفة .

أما عن النتائج التى ترتبت على استرجاع بيزنطه لكريت فى عام ٩٦١ م / ٣٥٠ هـ فبقدر ماكانت شديدة الأهمية بالنسبة للجانب البيزنطى ، فانها فى نفس الوقت كانت خطيرة على المسلمين ، بعدأن فقدوا هذه الجزيرة التى كانت من اهم نقط الأرتكاز البحرية للمسلمين فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، والتى كان لها دور فعال فى حماية سواحل المشرق الإسلامى ،وعلى الأخص اقليم مصر من عدوان البحرية البيزنطية ، والتى لعبت دورا هاما فى عرقلة النشاط العسكرى البيزنطى ضد اقليم الشام ، حتى ان بيزنطه لم تنجح فى تحقيق انتصاراتها وفتوحاتها العديدة فى هذا الإقليم فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، الا بعد فرض سيطرتها على كريت فى عام ٩٦١ م . وقد ترتب على سقوط كريت فى يد البيزنطيين أن أصبح الطريق مفتوحا أمامهم لغزو جزير

---

(١) انظر صحيح مسلم ، الجزء السادس ، ص ص ١٤٧ — ١٥٦ .

(٢) الشافعى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ٦ ، ص ٥ — ٦

قبرص فى عام ٩٦٥ م / ٣٥٤ ه واخراجها من دائرة النفوذ الإسلامى ، بعد أن ظلت فى يد المسلمين لمدة سبع وسبعين عاما (١) . كما مكن الدولة البيزنطية كذلك من اعادة الأمن والسلام إلى منطقة البحر الإيجى ، والعمل على تأمين طرق مواصلاتها البحرية فى المياه الشرقية حوض البحر الأبيض المتوسط وكان ذلك تدعيما حيويا للسيادة البحرية البيزنطية ، بعدما تعرضت للخطر زمنا طويلا من جانب جزيرة كريت الإسلامية .

---

(١) تم استرداد بيزنطه لجزيرة قبرص فى عهد الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ – ٩٦٩ م) الذى أرسل عليها حملة بحرية بقيادة البطريق نقيتاس ، انظر المصدر التالى :

راجع أيضا :

Ostrogoısky, History of the Byzantine State, p. 257; Finlay History of the Byzantine Empire p. 307.


الملاحق



الملحـــق رقـــم (١)

الرسالتان المتبادلتان بين الامبراطور ثيوفيل والخليفة المأمون

من ابرز الأحداث فى التاريخ البيزنطى خلال عهد الإمبراطور ثيوفيل ، الحروب ضد الدولة العباسية ، التى كان مسرحها اقليم آسيا الصغرى ، والتى حقق فيها العباسيون انتصاراتهم العديدة على الدولة البيزنطية . وخلال الصراع الذى اشتغل بين ثيوفيل والخليفة العباسى المأمون ، وبعد أن ادرك الإمبراطور البيزنطى التفوق العسكرى للجانب العباسى ، ارسل للخليفـة المـأمون هـذه الرساة يلتمس منه فيها قبول العرض الذى سبق ان تقدم به لأقرار السلام ، واحلال الهـدنة بينهما ، كمـا عرض عليـه تبادل الاسرى ، وتأمـين طرق المواصلات بين الدولتين ، وحرية التجارة بين المسلمين والبيزنطيين . على أن رد الخليفة المأمون جاء مخيبا لآمال الامبراطور ثيوفيل فى الصلح والهدنـة ، اذ اشترط لقبول عرض الامبراطور شروطا قاسية كان من العسير على الجانب البيزنطى قبولها ، وهى دعوة الامبراطور ثيوفيل ورعاياه لأعتناق الدين الإسلامى الحنيف ، فان أبى ، فعليه ان يدفع الفدية للخليفة العباسى وقد رفض الامبراطور قبول شروط المأمون ، لذلك فقد اشتعلت الحرب بين الطرفين من جديد ، وواصل العباسيون انتصاراتهم على الدولة البيزنطية حتى تم لهم فتح مدينة عمورية مسقط رأس الأسرة العمورية الحاكمة فى بيزنطة .

نـص رسالـة ثيوفيـل (١)

. . . . اما بعد ، فان اجتماع المختلفين على حظهما اولى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ، ولست حريا ان تدع الحظ يصل إلى غيرك حظا تحوزه إلى

(١) انظر نص رسالة ثيوفيل إلى المأمون فى ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١٠ ، ص ٢٨٣

نفسك ، وفى علمك كاف عن اخبارك . وقد كنت كتبت اليك داعيا إلى المسالمة ، راغبا فى فضيلة المهادنة ، لتضع اوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد وليا وحزبا ، مع اتصال المرافق ، والفسح فى المتاجر ، وفك المستأسر ، وأمن الطرق . فان ابيت ، فلا ادب لك فى الخمر ، ولا ازخرف لك فى القول ، فانى لخائض اليك غمارها ، آخذ عليك اسدادها ، شأن خيلها ورجالها ، وان افعل فبعد ان قدمت المعذرة ، واقمت بينى وبينك علم الحجة و السلام .

نص رد المــأمون (١)

. . . . أما بعد ، فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ، ودعوت اليه من الموادعة ، وخلطت فيه من اللين والشدة ، واستعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق ، وفك الاسارى ، ورفع القتل والقتال . فلولا مارجعت اليه من اعمال التؤدة والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة ، والا اعتقد الرأى فى مستقبله الا فى استصلاح ما أوثره فى معتقبه ، لجعلت جواب كتابك لخيلا تحمل رجالا من اهل البأس والنجدة والبصيرة ، ينازعونكم عن ثكلكم ، ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ثم اوصل اليهم الأمداد ، وابلغ لهم كافيا من العدة والعتاد . هم اظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة ، من مخوف معرتهم اليكم ، موعدهم احدى الحسنيين ، عاجل غلبة ، أو كريم منقلب . غير أنى رأيت ان اتقدم اليــك بالمواظبة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فان ابيت ، ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وان تركت ذلك ، ففى يقين المعاينة لنعوتنا ما تغنى عن الابلاغ فى القول ، والاغداق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى .

---

(١) انظر نص الرسالة التى رد بها الخليفة المأمون على الامبراطور ثيوفيل فى المصدر التالى ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١٠ ، ص ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

ملحق رقـــم (٢)

كتاب الأمير عبد الرحمن الثانى إلى الإمبراطور ثيوفيل

ان الباحث فى تاريخ العلاقات البيزنطية الإسلامية ، لايخفى عليه ، العلاقات الودية التى ربطت بين الدولتين البيزنطية والأموية بالأندلس ، وكانت هذه العلاقات احد الدوافع الرئيسية التى حدت بالإمبراطور البيزنطى ثيوفيل ، إلى التوجه للأمير الأموىعبد الرحمن الثانى ، يشكو اليه من الضربات العنيفة التى الحقها به مسلمو كريت نتيجة لغاراتهم المستمرة على الممتلكات البيزنطية ، وكذلك الهزائم العديدة التى انزلها به العباسيون فى آسيا الصغرى ويطلب اليه ان ينعقد بينهما حلف ضد العباسيين وضد امارة كريت الإسلامية وقد رد عليه الأمير الأموى بهذا الكتاب الذى نحن بصدد معالجته .

والملاحظ ان الإمبراطور ثيوفيل قد استغل العداء القائم بين الأمويين والعباسيين من ناحية ،وبينهموبينمسلمى كريت من الناحية الأخرى، لأقناع الامير الأموىبقبول اقتراحهلعقدحلف بينهما ضد العدو المشترك لكليهما.وبالنسبة للعباسيين ، فهم الذين اسقطوا الخلافة الأموية فى المشرق فى عام ١٤٢ هـ (٧٤٨ — ٧٤٩ م) بعد حروب عنيفة بينهم وبين مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١) ، اخر الخلفاء الأمويين ، وانتهى الأمر بقتلهم له ، واحتزت

(١) كان الخليفة مروان يكنى ابا عبد الملك ، وبويع بالخلافة بمدينة دمشق فى ١٤ صفر ١٢٧ هـ (منتصف نوفمبر ٧٤٤ م) وقيل انما بويع بمدينة حران بديار مضر ، وقتل بقرية بوصير من قرى الفيوم بأقليم مصر ، وذلك فى أول سنة ١٣٢ هـ ٧٤٩ م انظر ، المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ٢ ، طبعة بولاق ، ١٢٨٣ هـ ص ١٥٥ .

رأسه ، وأرسلت إلى ابو العباس السفاح (١) ، اول الخلفاء العباسيين ، ولم يكتف العباسيون بذلك ، بل نكلوا بأهل هذا الخليفة ، وطاردوهم فى كل مكان (٢) . ومنذ سقوط الخلافة الأموية والأمويون يرغبون فى استعادة ممتلكاتهم السابقة ، واعادة بناء صرح الخلافة الأموية الذى انهار بالمشرق .

اما بالنسبة لمسلمى كريت ، فهم الرعايا السابقين للأمويين ، الذين ثاروا على السلطات فى الأندلس فى ١٣ رمضان عام ٢٠٢ ﻫ (٢٥ مارس ٨١٨م) ، وانتهى الأمر بطردهم من البلاد ، ثم نزولهم بمدينة الأسكندرية ومشاركتهم فى احداثها السياسية ، حتى خروجهم منها فى عام ٢١٢ ﻫ (٨٢٧ م) وفتحهم لجزيرة كريت . ويعتبر كتاب الأمير الأموى عبد الرحمن الثانى ، للامبراطور ثيوفيل ، وثيقة تاريخيه هامة ، تؤكد ان هذه الجزيرة كانت تدين بالولاء السياسى للدولة العباسية ، وليس للدولة الأموية بالأندلس ، كما ذكر بعض المؤرخين (٣) .

ورغم ان الأمير عبد الرحمن قد رحب باقتراح الإمبراطور ثيوفيل الخاص بعقد تحالف بينهما ، وأبدى استعداده لقبوله ، الا ان الأحداث التى تعرضت لها كل من الدولتين الأموية والبيزنطية فى الفترة التالية ، لم تتح للطرفين الاستمرار فى المفاوضات الخاصة بهذا المشروع ، فأهمله الجانبان ، وبذلك قضى عليه بصفة نهائية .

---

(١) هو عبدالله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، بويع للخلافة فى ١٣ ربيع الاخر سنة ١٣٢ ﻫ (نوفمبر ٧٤٩ م) ، وقيل فى النصف من جمادى الاخرة من نفس السنة وتوفى فى ١٢ ذى الحجة ١٣٦ ﻫ (يونيه ٧٥٤ م) . وعمره آنذاك ثلاث وثلاثين سنة . أنظر المسعودى ، نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ١٦٥ .

(٢) انظر تفاصيل الحروب بين العباسيين والخليفة مروان بن محمد وماارتبط بهذه الحروب من احداث فى المصدر التالى ، المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ص ١٥٧ — ١٦٤ .

(٣) انظر ، نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٣ . وراجع كذلك الفصل الاول من هذا البحث ، ص ٩٢ ، حاشية رقم (٣) .

نص الكتــاب (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد بلغنى كتابك تذكر فيه الذى كان عليه من مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة ، وانه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا ، وارسال قرطيوس رسولك الينا لتجديد تلك المودة ، وترتيب تلك المصادقة ، وتسأل ان ينعقد فيما بينناوبينك من ذلك ماتتمسك به ونتواصل له ، ونبعث رسلا من عندنا اليك ، ليعلموك بالذى نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ، ودعوت اليه ، لتثبت بقدومهم عليك مودتنا ، وتتم به صداقتنا . وفهمت ماذكرتــه. من امر الخليفة مروان رضى الله عنه وصلى عليه ، ومن وشائج قرابتنا منه ، وآسيت لما استلب من سلطانه ، واستبيح من حرمة ، واستحل من دمه ، وماكان من الفاجر ابى جعفر (٢) تربه الله ، وجراءته على الله ، واغتراره به وانتهاكه لمحارمه ، والله قد احصى عليه ذلك فآسفه منه فهو لا محاله مجازيه جزاء سعيه .

ثم الذى ذكرته من فعل الخبيثين ابن مراجل (٣) وابن مارده (٤) اخيه بعده ، من الحادهما فى نحلتهما ، واساءتهما لسيرتهما ، ورغبتهما فى رعيتهما ، وشدة

---

(١) انظر نص الكتاب فى المرجع التالى ، بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، مجموعة الالف كتاب رقم ٢٨٩ ، ص ص ١١٥ – ١١٨

(٢) هو ابو الجعفر المنصور ، ثانى الخلفاء العباسيين ، تولى الخلافة فى ذى الحجة ١٣٦ هـ (يونيه ٧٥٤ م) ، وتوفى فى ذى الحجة ١٥٨ هـ (اكتوبر ٧٧٥ م) ، وهو فى طريقه إلى مكة المكرمة للحج ، انظر ، المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٨٠ .

(٣) المقصود بابن مراجل ، الخليفة العباسى المأمون ، لان امه كانت تدعى مراجل وهى جارية ام ولد للخليفة هارون الرشيد ، انظر ، المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ص ٢٤٧ .

(٤) المقصود بابن ماردة الخليفة المعتصم بالله العباسى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وطأبها عليهم ، واستحلالها دماءهم واموالهم ، وماذكرت من حضور وقت زوال دولتهم ، وانقطاع مدة سلطانهم ، وتأذن برد دولتنا وسلطان آبائنا الذين نبأت عنهم الكتب ، ونطقت بهم الرسل ، واوجب لهم الإجماع ، وحازه اليهم البرهان ، والذى حضضت عليه من الخروج اليهم ، وطلب الثأر منهم ، ووعدته من نصرتك لنا بما ينصر الصديق صديقه ، ومايعلم هواه فيه ومودته له . وماعطفت اليه من امر ابى حفص ، ومن معه من جالبة بلدنا ، وغلبتهم على ماغلبوا عليه من بلدك ، وخضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم فى طاعته ، وما سألت من أهل الأنكار لذلك ، والا نفه منه ، وحكيت من ذلك وقصصته فى كتابك ، فقد قرأناه وفهمناه .

وأما مارغبت من مودتنا ، وأحببته من مصادقتنا ، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه ، مما كان عليه أولوك لا ولينا ، فقد رغبنا منك فى مثل الذى ذكرته من حرصك على مواصلتنا ، وان نتمسك من ذلك بما كان عليه سلفنا ، ومالم يزل من مكان قبلنا من الملوك يتمسكون به ، ويتحاضون عليه ، ويحفظه بعض لبعض ويشدون ايديهم به .

وأما ماذكرت من امر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله ، فان الله تعالى احب ان يكرمه ، بما انتهك من حرمته ، ونكث بيعته ، ويسوقه إلى رحمته ، وأن يشقى بذلك من ركبه منه ويخزيه ويعذبه عليه .

واما ماكان عليه الفاجر ابو جعفر فى تعذيبه العباد،وظلمه وجرأته على الله وانتهاكه لمحارمه ، فان الله قد اخذه بذنبه ، واستدركه ببغيه ، وصيره من عذابه ونكاله ، إلى مالا انقطاع له ، ولاتخلص منه ، جزاء بما اجترأ ، وكذلك حكم الله فى اهل معصيته واولى الاجتراء والافتراء عليه .

وأما ماذكرت عليه من امر الخبيث ابن مارده ، وحضضت عليه من الخروج إلى ماقلته وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة اهله ، وزوال سلطانهم وماحضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا فاننا نرجو فى ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعده ايانا ، ونمترى حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ،من اهل شأمنا واندلسنا واجنادنا وكورنا وثغورنا ، ومالم نزل نسمع ونعترف ، ان النقمة تنزل لهم ، والدائرة تحل عليهم من اهل المغرب وعلى ايدينا ، فيقطع الله دابرهم ويستأصل شأفتهم ان شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرت من امر ابى حفص الأندلسى ، ومن صار معه من اهل بلدنا فى خضوعهم لابن مارده ، ودخولهم فى طاعته ، وما سألت من النظر فى امورهم ، والانكار لفعلهم ، فانه لم ينزع اليه منهم الا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم وأباقهم ، وليسوا فى بلدنا ، ولا برتبتنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وانما اضطروا إلى الدخول فى طاعة ابن مارده لمأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ، ولا تصعب عن نكايتهم ، ولا تتوقف عن اخراجهم عما تطرقوه من بلدك ، واذ ترى مكانهم به من موضعك ، وان الله بحوله وقوته وفضله ومنته رد الينا سلطاننا بالمشرق وماكان تحت ايدى ابائنا منه ، نظرنا ، فى ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامه لطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذى يكون من معونتك على مادعوت اليه ، وحضضت عليه ، بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته ولم يضع لك عندما مارعيته من حقنا وقمت فيه من حفظنا .

وقد ادخلنا رسولك قرطيوس علينا ، وكشفناه على الذى اوصيت بـه الينا ، وعن كل مايجب لصديق ان يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا اليـك بكتابنا هذا رسولين من صالحى من قبلنا ، فاكتب الينا معهما بالذى انت عليه من الأمر الذى كتبت به الينا ، والذى يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك ، لننظر فيما يتصرفان به على حسب مايأتينا من عندك ان شاء الله .

ملحـق رقـــم (٣)

كتاب الخليفة الفاطمى المعزالى الإمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى

هذا الكتاب أرسله الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، إلى الإمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى ، وذلك حين تعرضت جزيرة كريت الإسلامية لحصار القوات البيزنطية بقيادة نقفور فوقاس فى عام ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ فاستغاث اهلها بالخليفة المعز ، وارسلوا اليه بشمال افريقيا ، وفدا لطلب المساعدة العسكرية . وكان الخليفة المعز فى ذلك الوقت مرتبطا بالهدنة لمـدة خمس سنوات مع البيزنطيين ، لذلك فقد ارسل هذا الكتاب إلى الإمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى ، ينذره فيه بوقوف الدولة الفاطمية بجانب اهالى كريت وعزمها على اغاثتهم ونجدتهم ، رغم انهم يدينون بالولاء السياسى للدولة العباسية ويعتنقون مذهبها السنى ، وحجته فى ذلك ان كريت وغيرها من البلاد الإسلامية هى ملك خالص للفاطميين ، بصرف النظر عمن يحكمها غيرهم ، فهم جميعها مغتصبين لحق الخليفة الفاطمى فى حكم العالم الإسلامى بأجمعه .

والواقع ان ذلك يوضح نظرية الشيعة فى الحكم، تلك النظرية التى حصرت الخلافة فى اسرة معينة وفى بيت معين ، هو بيت الأمام على رضى الله عنه ، وأصبحت عقيدتهم ، ان الحسن هو الخليفة بعد ابيه ، وان الخلافة ارث فى بيت الأمام على إلى يوم الدين (١) .

ويؤكد الخليفة المعز لدين الله ، ان الحق يعود دائما لأصحابه مهما طال الأمد ، ويستشهد على ذلك بعودة العرش البيزنطى خالصا للأسرة المقدونية وبعد ان حاول رومانوس ليكابينوس قائد البحرية البيزنطية ، اغتصاب العرش من صاحبه الشرعى الإمبراطور قسطنطين السابع ، والد الإمبراطور رومانوس الثانى ، وتأسيس اسرة جديدة يقضى بها على الأسرة المقدونية . لكن الإمبراطور قسطنطين السابع نجح فى استرجاع عرشه من أيدى المغتصبين (٢)

واخيرا أوضح الخليفة المعز ، للأمبراطور رومانوس الثانى ، انه اذا استمرت القوات البيزنطية فى حصارها لكريت ومحاربتهم ، فان الهدنة بينهما ستصبح لاغية ، وسيخوض الفاطميون الحرب ضد البيزنطيين مساندين لأهالى كريت ومؤيدين لهم .

نص كتاب الخليفة المعز إلى الإمبراطور

رومانوس الثانى (٣)

. . . ولا يرى ان دعوة اهل اقريطش قبل اليوم إلى غيرنا ، وقد انابوا اليوم الينا واستغاثوا بنا ، مما يوجب لك عندنا تمام الموادعة بتركهم اليك وترك

(١) عطية مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ، ص ٥٥ .

(٢) انظر ظروف اغتصاب رومانوس ليكابينوس للعرش البيزنطى ، ثم استرجاع قسطنطين السابع لعرشه فى الفصل الثالث من هذا البحث صص٢١٣-٢١٤، صص٢٢٠-٢٢١ .

(٣) هذا النص مأخوذ من النعمان : المجالس والمسايرات ، ج٢ ، لوحات ٤١٣ - ٤١٦ .

اعتراضك فيهم ، ان امتناع اهل الباطل من اهل الحق ليس بمزيل حقهم ، وان تغلبوا عليه دونهم ، بل هولهم بتصيير الله تع اياه اليهم .فاقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا بما خولنا الله منها واقامنا له فيها ، أطاعنا من أطاعنا ، وعصانا من عصى ، وليس بطاعتهم يجب لنا ان نملك ولا بعصيانهم يحق علينا ان نترك ، ولو كان ذلك لكان الأمر اليهم لا إلى الله تع الذى خولنا ، ولا لنا ان شاؤوا اعطونا ، وان احبوا منعونا ، كلا ان ذلك لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ، هو الذى اصطفانا وملكنا واعطانا ، ولو كان ذلك للخلق لما وسعنا قتال من امتنع منهم ، ولا رد ما انتزعوه بالغصب من ايدينا ، اذا اقدرنا الله على ذلك وبه قوانا . قلت انت غير ذلك ، وانت ترى أن مافى يديك لك فقد كان رومانس تغلب عليك وعلى ابيك من قبلك ، ثم دارت لكما عليه الدائرة . فان رأيت أن من احتجز شيئا وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذى ملكه ، فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على رومانس ، ولا انتزع ماصار اليه من بين يديه ،فهذه سبيل اهل الحق عندنا،فان اعترفت لها فقد انصفت ، وان جهلتها لم يكن جهلك اياها حجة على من عرفها . وعهدك ان تماديت على حرب من أناب الينا،منبوذ اليك،فانظر لنفسك ولأهل ملتك ، فأنا مناجزوك واياهم الحرب بعون الله لنـا وتأييده ولا حول ولاقوة الا به .

ملحـق رقـم (٤)

رسالة الخليفة المعز الفاطمى إلى كافور الاخشيدى

هذه هى الرسالة التى بعث بها الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى كافور الاخشيدى ، المسيطر على شئون مصر آنذاك ، وذلك فى نطاق الجهود التى بذلها الخليفة المعز لأنقاذ اهالى كريت المسلمين من قوات الأحتلال البيزنطى

المحاصرة لهم بقيادة نقفور فوقاس . والمعروف انه كانت هناك علاقات متبادلة بين المعز وكافور ، رغم ان مصر كانت لاتزال تدين بالسيادة للدولة العباسية ، غير ان كافور كان حريصا على توثيق علاقاته بكل من الخليفة العباسي والخليفة الفاطمى ، فكان ، كما قال ابن تغرى بردى «يهادى المعز صاحب المغرب ، ويظهر ميله اليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويخدع هؤلاء وهؤلاء»(١) .

وقد ارسل الخليفة المعز بهذه الرسالة إلى كافور ، بغرض التعاون معا لنجدة جزيرة كريت ، وكانت خطة الفاطميين ان ترسل مصر بأسطول يجتمع مع الأسطول الفاطمى فى مرسى طنبه فى اقليم برقة ، الذى يخضع لسلطة الفاطميين ، وتبحر القوات الفاطمية والمصرية معا إلى كريت . لكن جهود المعز فى هذا السبيل ذهبت هباءا ، ولم تجد دعوته تلك اذنا صاغية لدى كافور وربما كان السبب فى ذلك هو الأحوال السياسية المضطربة التى كانت تمر بها مصر وقتذاك ، ومن المحتمل ان يكون السبب كذلك هو رغبة كافور فى عدم اغضاب الخلافة العباسية ، بانضمامه السافر للفاطميين ، وتعاونه معهم على هذا النحو ، ولهذا فلم تحقق هذه الرسالة الغرض الذى ارسلت من اجلـــه .

نص رسالة الخليفة المعز إلى كافور الأخشيدى (٢)

. . . . ان الله سبحانه قد خولنا من فضله وأمرنا من معونته وتأييده بما نرى بحوله وقوته ونصره لنا واظهارنا على عدونا ، أنا نكف أيدى الكفرة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٦ .

(٢) هذا النص مأخوذ من المصدر التالى : النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، لوحات ، ٤١٧ — ٤١٩ .

عما تطاولت اليه من حرب هذا الصقع والايقاع بأهله ، وقد انتهى الينا ، انك اظهرت الحركة إلى الجهاد وامداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك وانت لعمرى بذلك اجدر ، لقربهم منك ، واتصالهم بك وميرتهم بلدك وكونهم واياك فى دعوة واحدة ، ولو اسلمناهم اليك وقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهم علينا حجة فى ذلك ، ولكنا آثرنا نصرة أمة جدنا محمد ص ولم نر التخلف عن ذلك ، وقد رجونا له ، وألقوا بأنفسهم اليناقيه ، ونحن لا (نحول) (١) بينك وبين الجهاد فى سبيل الله ، ولا نمنعك من تمام ماأملت منه ، فلا يكن مايتصل بك من انفاذ اساطيلنا يريثك عن الذى هممت من ذلك ، وان تخشى على من تبعث به وعلى مراكبك منا ، فلك علينا عهد الله وميثاقه أنا لانكون معهم الا بسبيل خير ، وأنا نحلهم محل رجالنا ونجعل ايديهم مع ايدينا ، ونشركهم فيما أفاء الله علينا ، ونقيمهم فى ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام اساطيلنا حتى يفتح لنا ان شاء الله ثم ينصرفوا اليك على ذلك ، أو يكون من امر الله وقضاءه ماهو فاعله ، فاعلم ذلك وثق به منا ، ففى تظافر المسلمين على عدوهم واجتماع كلمتهم ، اعزاز لدين الله وكبت لأعداءه ، فقد سهلنا لك السبيل والله على مانقول وكيل ، فان وثقت بذلك ورأيت ايثار الجهاد ، فاعمل على ان تنفذ مراكبك إلى مرسى طنبه من ارض برقة ، لقرب هذا المرسى من جزيرة اقريطش ، ويكون اجتماعهم مع اساطيلنا بهذا المرسى مستهل ربيع الآخر ، بتوفيق الله وقوته وتأييده ونصره وعونه ، والا ترى ذلك ، فقد أبلغنا فى المعذرة اليك والنصيحة لك ، وخرجنا مما علينا اليك ، ونحن بحول الله وقوته وتأييده ونصره وعونه ، مستغنون عنك وعن غيرك ، وعلى عزم وبصيرة فى انفاذ اساطيلنا ورجالنا وعدتنا وما خولنا الله اياه ، وقد أقدرنا عليه مما نرى بحوله وقوته نبلغ به مانؤم اليه بذلك ونصمد نحوه ، فبالله نستعين وعليه نتوكل وعلى تأييد نعول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) هذه الكلمة جاءت فى النص الاصلى (لا حول) والاصح (لا نحول) .

ملحـــق رقـــم (٥)

كان للبيزنطيين تقاليد معينة يتبعونها عند الأحتفال بانتصاراتهم العسكرية على اعدائهم ، وكانت هذه الاحتفالات تتم عادة فى الهيبودروم ، ويحضرها الامبراطور والامبراطورة وكبار رجال الدولة وعامة الشعب ، وكان يتخلل هذه الاحتفالات الأناشيد والابتهالات الدينية . وبعد استرجاع نقفور فوقاس لجزيرة كريت فى عام ٩٦١ م ، اقيم احتفال كبير فى الهيبودروم ابتهاجا بالانتصار الذى احرزوه على المسلمين فى كريت، وحضر هذا الأحتفال الامبراطور رومانوس الثانى ، وبعد ان تم استعراض موكب الاسرى الذين كان بينهم امير كريت السابق عبد العزيز بن شعيب وابنائه ، اخذ رجال الدين البيزنطيين يرتلون هذه الأنشودة التى تمجد انتصارهم على المسلمين .

الترجمة العربية للأنشودة(١)

المجد للرب سيد الجميع خالق كل شيء ، المجد للرب الذى نصرنا على ابناء هاجر (٢) المجد للرب الذى قوى الامبراطور الورع ، المجد للرب الذى ضرب الاسماعيليين (٣) الذين حاربوا المسيح ، المجد للرب الذى خلص اسرانا

(١) النص اليونانى للانشودة اورده الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه «المراسم الامبراطورية» الجزء الثانى ، ص ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

(٢) المرجح أن المقصود «بابناء هاجر» المسلمون ، وكان البيزنطيون يطلقون عليهم اسم المهاجرين (Agaienus) نسبة اليها .
انظر المصدرين التاليين :

Genesius, p. 33 Zonaras, p. 491.

(٣) الغالب أن الاسماعيليين هم المسلمون ايضا ، وهنا ينسبهم البيزنطيون إلى النبى اسماعيل عليه السلام .

من أيدى الأعداء ، المجد للرب الذى خرب مدن العرب ، المجد للرب الذى اهلك الذين ينكرون أم الا له ، المجد للرب الذى لطخ بالعار الرجل المتغطرس عدو المسيح ، المجد للرب الذى يحكم جيدا هكذا . مولانا من لا يمجد ارادتك مولانا من لا يحمد صنيع يديك ؟ مولانا نشكرك جدا ، لأنك تكن الكثير من الشفقة لشعبك بكونك تتركه يحكم بكل هذه القوة .

المصـــــادر والمــراجــــع



اولا ـ المصادر البيزنطية

أ ـ المصادر اليونانية :

ـ كتاب يوحنا كامينياتى بعنوان «قهر سالونيك» ، وقد نشر فى بون فى عام ١٨٣٨ م .

ـ الملحمة التى كتبها ثيودوسيوس الشماس واطلق عليها اسم «فتح كريت».

ـ كتاب المؤرخ البيزنطى كيدرينوس المسمى «موجز التاريخ»، الذى نشر فى بون عام ١٨٣٨ م .

ـ كتاب « المراسم الإمبراطورية » للامبراطور قسطنطين السابع ، وقد نشر فى بون فى عام ١٨٤٠ م .

ب ـ المصادر اليونانية المترجمة إلى اللغة اللاتينية :

— Diaconus, Leonis Diaconi Historiae, (C.S.H.B.) Bonn, 1828

— Constantin Porphyrogenetus, De Thematibus, (C.S.H.B.), Bonn, 1940.
:De Administrando Imperio, Bonn, 1840.

— Genesius, Basileiai, (C.S.H.B.) Bonn 1834.

— Leonis Philosophi, Tactica (Patrologiae Greacae, Parisina 1863).

— Monachus, Vitae Recentiorum Imperatorum, (C.S.H.B.) Bonn 1838.

— Nicolai Constantinopolitani Archiepiscopi Epistolae (Patrologiae Cursus Completus) (1863).

— Symeon Magestri, Annales, Bonn, 1838.

— Theophanes Continuatus, Bonn, 1838.

— Zonaras, Epitomae Histoiiarum, Bonn, 1838.

ثانيا ــ المصادر العربية

ابن الابــــــار : (ابو عبدالله بن عبد الله القضاعى)
الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ابــن الاثــير : (على بن احمد بن ابى الكرم)
الكامل فى التاريخ ، الاجزاء ٥ ــ ٧ ، المنيريــة ، ١٣٥٣ ــ ١٣٥٧ هـ .

ابـن الخطيب : (لسان الدين بن الخطيب السلمانى)
أعمال الاعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال ، الطبعــة الثانية ، بيروت ، ١٩٥٦ .

ابــن العــديم : (كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله)
زيدة الحلب فى تاريخ حلب ، جزءان ، تحقيق الدكتور سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥١ .

ابــن الفقيــة : (ابى بكر احمد بن محمد الهمذانى)
مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ .

ابــن القــلانسى : (ابو يعلى حمزة)
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ .

ابن القوطية القرطبي : (ابو بكر محمد)
تاريخ افتتاح الأندلس ، حققه وشرحه وعلق عليه

مخطوطتي باريس ومدريد وقدم له عبد الله انيس الطباخ بيروت ، ١٩٥٧ .

ابـــن الـــوردى : (سراج الدين ابى حفص عمر)
خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، مصر ١٩٣٩ .

ابـــن تغرى بـــردى : (جمال الدين يوسف)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الاجزاء ١ ـــ ٤ الطبعة الاولى ، دار الكتب المصرية .

ابـــن جبـــــير : (ابى الحسن بن احمد بن جبير الكنانى الأندلس)
الرحلة ، بغداد ، ١٩٣٧ .

ابـــن حـــوقـــل : (ابو القاسم ابن حوقل النصيبى)
صورة الارض ، جزءان ، الطبعة الثانية، ليـــدن ، ١٩٣٨ ـــ ١٩٣٩ .

ابـــن خلـــدون : (عبد الرحمن بن محمد)
ـ المقدمة ، نشر المكتبة التجارية ، مصر .
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الاجزاء ١ ـــ ٣ ، بولاق ١٢٨٤ هـ .
ـ اخبار دولة بنى الأغلب بأفريقية وصقلية وبقيـــة اخبار صقلية إلى حين استيلاء الافرنج عليها (مـــن كتاب العبر) طبعة باريز ، ١٨٤١ .

ابـــن خرداذبـــــة : (ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله)
المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ .

ابـــن رستـــه : (ابى على احمد بن عمر)
الاعلاق النفسية ، ليدن ، ١٨٩١ .

ابن سعيد المغــربى : (ابو الحسن على بن موسى)
المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الاول ، حققه وعلق عليه ، الدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف مصر .

ابن عذارى المراكشى :
البيان المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب ، نشر وتحقيق س كولان ، ليفى بروفنسال ، الجزء الاول ليدن ، ١٩٤٨ ، الجزء الثانى ، ١٩٥١ .

ابـــن المنكـــلى : (محمد)
الاحكام المملوكية والضوابط الناموسيه فى فن القتال فى البحر ، مخطوط مصور ، مطبعة دار الكتب المصرية رقم التصوير ١٩٥٠ ، موجود بمكتبة كلية الاداب — جامعة الاسكندرية .

ابـــن هشام :
السيرة النبوية ، حققها وضبطها ووضع فهارسها ، مصطفى السقا ، ابر هيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبى ، مجموعة تراث الإسلام ، رقم (١) ، القسم الثانى ، مصر ، ١٣٧٥ هـ .

ابــــو الفـــدا : (اسماعيل بن على عماد الدين (
المختصر فى اخبار البشر ، ٤ اجزاء ، الطبعة الاولى
المطبعة الحسينية ، ١٣٢٥ هـ .

الادريسي : (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى)
- نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والاقطار والبلدان،
تحت الجزء الرابع من الاقليم الرابع .
- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، رومه ، ١٨٧٨م

الاصطخــرى : (ابى اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى) .
مسالك الممالك ، ليدن ، ١٩٢٧ .

البــلاذرى : (احمد بن يحيى بن جابر)
فتوح البلدان ، ١٣١٧ هـ / ١٩٠٠ م .

الحسن بن عبد الله :
آثار الاول فى ترتيب الدول .

الحميــــدى : (ابى عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله)
جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، قام
بتصحيحه محمد بن تاويت الصنجى ، القاهرة ،
الطبعة الاولى ، ١٩٥٢

الحمــــيرى : (ابى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)
صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب « الروض
المعطار فى خبر الاقطار » ، عنى بنشرها وتصحيحها
وتعليق حواشيها ، ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧

البـــــــرزداری : (ابو شجاع)
ذیل تجارب الامم ، مصر ، ١٩١٦ .

السیـــوطـــــی : (جلال الدین عبد الرحمن)
تاریخ الخلفاء ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

الشافعــــــــــی : (الحافظ ابی الفضل شهاب الدین احمد بن علی بن محمد بن حجر العسقلانی)
فتح الباری بشرح صحیح البخاری ، ستة اجزاء ، مصر ١٣٤٨ هـ .

الطـــــــبری : (ابوجعفر محمد بن جریر بن یزید بن قدیر بن خالد)
تاریخ الامم والملوك ، الجزءان ١٠ ، ١١ ـ الطبعة الاولی ، المطبعة الحسینیة .

القلقشنـــــدی : (شهاب الدین ابو العباس احمد بن علی)
صبح الاعشی فی صناعة الانشا ، الأجزاء ١ ـــ ٥ ، طبعة دار الکتب .

الکنــــــــدی : (ابو عمر محمد بن یوسف بن یعقوب)
ولاة مصر ، تحقیق الدکتور حسین نصار . دار صادر ، بیروت ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .

المـــالکــــی : (ابی بکر عبد الله بن ابی عبد الله)
ریاض النفوس ، تحقیق الدکتور حسین مؤنس .

المسعـــــودى : (ابو الحسن على)
- التنبية والاشراف ، ليدن ١٨٩٣ .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزءان ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .

المقـــــدسى : (شمس الدين ابو عبد الله)
احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦ م .

المـــــراكشى : (ابو محمد عبد الواحد بن على)
المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ضبط وتصحيح وتعليق ، محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى القاهرة الطبعة الاولى ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .

المقـــــرى : (احمد بن محمد المقرى التلمسانى)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، حققه وضبط غرائبه وعلق حواشيه ، محمد محى الدين عبد الحميد ، الطبعة الاولى ، ١٩٤٩ .

المقـــريـــزى : (تقى الدين)
- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، الجزء الاول ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور زيادة القاهرة ، ١٩٣٤ .
- اتعاظ الحلفا باخبار الأئمة الفاطميين الحلفا ، نشر الدكتور الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .

النعمان : (ابو حنيفة بن محمد المغربى)
المجالس والمسايرات ، الجزء الثانى ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٦٠٦٠ .

النويرى : (احمد بن عبد الوهاب بن محمد شهاب الدين)
نهاية الارب فى فنون الادب ، الجزءان الاول والثانى نشر دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ ، ١٩٣٠ ، والجزء الثانى والعشرين مايزال مخطوطا موجودا بمكتبة كاية الاداب جامعة الأسكندرية .

النويرى السكندرى : (محمد بن قاسم)
الالمام بما جرت به الاحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية ، نسخة مصورة من مخطوط دار الكتب المصرية المقيدة برقم ١٤٩٩ تاريخ ، ومحفوظة بمكتبة كلية الاداب جامعة الاسكندرية برقم ٧٣٧ م

اليعقوبى : (احمد ابن ابى يعقوب بن وهب بن واضح)
التاريخ ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، طبعة باريز ، ١٨٠٤ .

مسكويه : (ابو على احمد بن محمد بن يعقوب)
تجارب الامم وتعاقب الهمم ، الجزء السادس ، مصر ١٩١٥ .

ياقوت : (شهاب الدين ابو عبد الله الحموى الرومى)
معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر .

يحيى بن سعيد الانطاكى : تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ، نشر كراتشوفسكى وفازيلييف ،
طبعة باريز ، ١٩٢٤ ، وطبعة بيروت

ثالثا ــ المراجع العربية

ابراهيم احمد العدوى : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
ـ الاساطيل العربية فى البحر الابيض المتوسط ، القاهرة ١٩٥٧ .
ـ الامويون والبيزنطيون ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٥٣ ، والطبعة الثانية ١٩٦٣ .

السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية (٣٢٣ ـ ١٠٨١ م) القاهرة ١٩٦٠ .
ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية (١٠٥٠ . ١١٩٣ م) ، القاهرة ١٩٦٣ .

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الأسكندرية وحضارتها فى العصور الإسلامية الطبعة الثانية ١٩٦٩ .
ـ التاريخ والمؤرخون العرب ، الأسكندرية، ١٩٦٧

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ .

: المسلمون فى حوض البحر الابيض المتوسط ، مقال فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الاول ، مايو ١٩٥١ .

زينب عصمت راشد : كريت تحت الحكم المصرى (١٨٣٠ - ١٨٤٠) نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة.

سعد زغلول عبد الحميد : الاسكندرية من الفتح العربى حتى العصر الفاطمى مقال فى كتاب « تاريخ الاسكندرية وحضارتها منذ اقدم العصور » ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، الجزء الاول ، الطبعة الاولى ١٩٦٣ .
- اوروبا العصور الوسطى ، الجزء الاول ، الطبعة الرابعة ١٩٦٦ .

سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
- مصر فى عصر الاخشيديين ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

عطية مصطفى مشرفه : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

عمر كمـال توفيق : الامبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الاراضى المقدسة ، الأسكندرية ١٩٥٩ .
- مقدمات العدوان الصليبى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦
- الأمبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧

فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، جزءان ، القاهرة ١٩٦٧ .

محمد امين الخانجى : منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان ، الطبعة الاولى ، مصر ، ١٣٢٥ هـ .

محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى نهايـة مملكة غرناطة ، العصر الاول ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٣ .

نبيـه عـاقـل : الامبراطورية البيزنطية . دراسة فى التاريخ السياسى والثقافى والحضارى . دمشق ، ١٩٦٩ .

رابعا : المراجـع المعربـة

اومـان :
الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة مصطفى طه بدر ، القاهرة ، ١٩٦٠ :

باركـر : (ارنست)
الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٠ .

بـــروفنسال : (ليفى)
الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة السيـد عبد العزيز سالم ، محمد صلاح الدين حلمى ، ومراجعة لطفى عبد البديع ، مجموعة الالف كتاب رقم (٨٩) .

بيـــــنز : (نورمـــان)
الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ومحمود زايد ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

حـــــتى : (فيليب)
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجى ، بيروت ، ١٩٥٩ .

ديفـــز : (ه . و .)
اوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ، الاسكندرية ، ١٩٥٨

رانسيان : (ستيفن)
الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ومراجع زكى على ، القاهرة ، ١٩٦١ .

فـــازيلييف :
العرب والروم ، ترجمة الدكتور عبد الهادى شعيرة ومراجعة فؤاد حسين ، القاهرة ، نشر دار الفكر العـــربى .

لـــومبـــــــار : (موريس)
الاسس النقدية للسيادة الاقتصادية ، بحيث ترجمه ونشره توفيق اسكندر ، فى كتاب « بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، القاهرة ١٩٦١

لــــــويس : (ارشيبالــد)
القوى البحرية فى حوض البحر الابيض المتوسط ترجمة احمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

هـــارتمـــان (ل . م (وباراكلاف (ج) :
الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، نشر دار المعارف ١٩٧٠ .



خامسا ــ المراجع غير العربية

— Bailly, A. : Byzance, Paris.

— Brehier, L.; Le monde byzantine, 3 volumes, Paris, 1947—1950.

— Buckler, g.; Anna Comnena, Oxford, 1929.

— Bury, Y.B.; A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912
The Imperial Administrative Systeme in the Ninteen Century, London, 1911.

— Cahen, C. : La Syrie du Nord à l'époque des Croisades, Paris, 1940.

— Cambridge Medieval History, vols IV, V, Cambridge, 1926.

— Canard, M. : Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jezira et de Syrie, Paris 1953.

— Dictionnaire de Théologie Catholique, Sous La Direction de Vacant et Mangenot, Neuviéme edition, Paris 1922.

— Diehl, Ch : Byzance, Grandeur et decadence, Paris, 1919.
Histoire de l'empire Byzantin, paris 1920.

— Diehl et Marcais : Le monde Oriental de 395 à 1081, Paris, 1936.

— Encyclopedia Britanmica, Fourteenth Edition, 12 vol, London, 1929.

— Encyclopdié de l'Islam, Par Hautsana, Basset et Arnold, 11 volumes, E.K. 1927.

— La Grande Encyclopedie, Inventaire Raisonné des Sciences, des lettres, des arts, Par une Societé de Savants et de gens de lettres, 31 volumes, Paris.

— Finaly, G. : History of the Byzantine Empire from DC XIV to ML VII, London 1856-: History of Greece, ED. Tozer, Oxford, 1877.

— Gibbon, E. : The History of the decline and Fall of the Roman Emmpire, ED. Bury

— Gregoire, H., : Etudes sur le neuvième Sécle, (la revue de Byzantion, Tome VIII, Bruxelles, 1933).

— Hitti, Ph. : History of the Arabs, London, 1946.

— Hussey, Y. : The Byzantine World, London, 1955.

— Oman, C., The Byzantine Empire, London

— Ostrogorosky, G. : History of the Byantine State, English Trans, Hus sey, Oxford, 1956.

— Rambaud, A. : Etudes sur l'His toire Byzantine, Paris, 1912.

— Schlumberger, G. : Un Empereur Byzantin au dixième siécle, Nicéphore Phocas, Paris, 1890.

-: L'Epopée Byzantine à la fin du dixième Siécle, 3 vols. Paris 1896 1950.

— Vasiliev, A. : Histoire de l'Empire Byzantin, traduit du Russes par Bourguina, 2 vols. Paris, 1932.

المحتويات



طبع بمطابع جريدة السفير
٤ شارع الصحافة ـــ اسكندرية



١/١٢٢٠٥١

٤٠٠ قرش

الناشر : دار المعارف بالاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول
٢ ميدان التحرير (المنشية)